جون بوكان

جزيرة الخراف

ترجمة أحمد عبد المنعم



جزيرة الخراف

تأليف

جون بوكان

ترجمة

أحمد عبد المنعم

مراجعة

هبة عبد العزيز غانم



جزيرة الخراف

جون بوكان

The Island of Sheep

John Buchan

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٥٢٥ ٧

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٩٣٦.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

المحتويات

إلى

جون نورمان ستيورات بوكان؛

العالم بدروب نورلاندز وطرق هجرة الإوز البرِّي.

الجزء الأول

فوسي

الفصل الأول

آلهة مفقودة

لم أومن قَط بالطوالع والنُّذُر، بخلاف البعض؛ فقد هبطت الأحداث التي غيَّرت مجرى حياتي على رأسي فجأةً كعاصفة استوائية. ولكني لاحظت أنني — بطريقة ما — أكون مستعدًّا لها في بعض الأحيان بأن ينجرف عقلي فجأة إلى مزاج غير متوقع. فكنت أتذكر أمرًا لم أفكر به منذ سنوات، أو يبدأ ذهني في التفكير في أفكار غير معتادة دون سبب يدعو إلى ذلك. هذا ما حدث لي ذات ليلة من ليالي شهر أكتوبر عندما كنت أستقل القطار في مدينة فيكتوريا.

في عصر ذلك اليوم، كنت قد فعلت أمرًا نادرًا بالنسبة إليَّ؛ فقد حضرت نقاشًا في مجلس العموم. كان لامانشا سيُلقي خطابًا رسميًّا، ولامانشا يستحق الاستماع إليه في مثل هذه المناسبات. ولكن لم يكن يشغل بالي فصاحة صديقي أو تعامله البارد مع المقاطعات، بل ما شغلني هو ردُّ وزير شئون المستعمرات على سؤال طُرِح قبل بدء النقاش. قد تسمع اسمًا في بعض الأحيان فيكون كالرائحة أو اللحن الذي يذكِّرك بذكريات نُسِيت منذ أمد بعيد. وعندما نطق ملبَري العجوز كلمة «لومبارد»، انطلقت أفكاري مسرعةً تتسابق في أزقَّة الماضي المعتمة. كان ملبَري يقتبس من مذكرةٍ كُتِبت منذ أعوام كانت مدرَجة ضمن تقرير لإحدى اللجان، وقال عنها إنها «مذكرة بارعة جدًّا كتبها سيدٌ يُدعَى لومبارد»، وكانت تحتوي على النقطة التي كان يريد عرضها. بارعة! يجدر بي أن أعتقد أنها كذلك. وماذا عمَّن كتبها! إن وصفه بأنه «سيدٌ يُدعَى لومبارد» يدل على أن الرجل الذي كنت أعرفه في الماضي قد سقط تمامًا من ذاكرة العالم.

لم أوفِّ خطبة لامانشا حقَّها فقد كنت منشغلًا بلومبارد طوال فترة إلقائها. تذكرته راكبًا معي سيارة الأجرة متجهًا إلى المحطة، وعندما عثرت على مقصورتي في القطار، حال وجهُه بيني وبين صفحات الجريدة المسائية التي أقرؤها. لم أفكر به كثيرًا طوال سنوات،

إلا أن اقتباس ملَبَري العارض أثار في ذهني مجموعةً من المشاهد مرت أمام ناظريَّ وكأنها شريط صور. تخيلت لومبارد كما رأيته آخر مرة؛ أسمن قليلًا منَّا نحن النُّحفاء الناجين من الحرب، ويرتدي ملابس تختلف قليلًا عن ملابس العصر الحالي، ولم تكن عيناه مشوَّشتَين بسبب قيادة السيارات، ولم تكن نبرة صوته عالية مثل نبرة صوتَينا لكي تعلو فوق صخب محيطنا. تخيلت ابتسامته، والارتفاع الخاطف الغريب لذقنه، وأدركت أني أتقدم في العمر وأني تركت خلفي بعض الأمور الرائعة.

كانت مقصورة القطار ممتلئةً برجال من المدينة عائدين إلى ضواحيهم الجنوبية المريحة. كانوا جميعًا يحملون الجرائد المسائية، وبعضهم يحمل الجرائد الصباحية ليكمل قراءتها. كان يبدو على أغلبهم أنهم يقومون بهذه الرحلة بانتظام، فكانوا يعرف بعضهم بعضًا، ويتناقلون أخبار السوق أو يعلقون على الشئون العامة. كان الأمر يشبه حفلًا خصوصيًّا ودودًا، فجلست في ركني أشاهد عبر النافذة منظرًا طبيعيًّا مختلفًا عما أطلق عليه بعض الشعراء «البيوت القزمة التي يتصاعد منها الدخان»، وأرى وجه شابٍّ مختلفًا تمامًا عن وجوههم.

حضر لومبارد إلى شرق أفريقيا ليشغل منصب سكرتير بعثة حكومية؛ البعثة التي سرعان ما أصبح يتحكم فيها كما يحلو له. التقيته هناك أثناء بعثتي في مهمة تنقيب. كان حينئذٍ صغير السن جدًّا؛ لم يتخطَّ الخامسة والعشرين من العمر، وكان يقضي سنواته الأولى في الخدمة. تلقَّى لومبارد تعليمه في واحدة من المدارس الحكومية العادية وفي جامعة كامبريدج، وكان طالبًا مجتهدًا اطلع على أكبر عدد من الكتب طالته يداه. أتذكَّر لقاءَنا الأول في معسكر بارد فوق هضبة أوسين جيشو عندما قال بيتًا شعريًّا يونانيًّا عن نسمات الفجر الباردة وترجمه لنا. ولكنه لم يتباهَ بتعليمه أبدًا؛ لأنه كان يرغب في أن يتناغم بشكل كامل مع محيطه، وأن يظهر بمظهر المستكشف دون نقصان. تلك كانت الأيام الخوالي في شرق أفريقيا قبل مستعمرة «الوادي السعيد» والمهاجرين المعتمدين في معيشتهم على الحوالات من بلادهم والمستوطنين الذين يريدون حكمًا ذاتيًّا، حين كانت آمال الناس ضخمة. وكان يحب أبطال الماضي حبًّا جمًّا، على غرار رودي أوين وفانديليير، وكان يشترك معهما في أمرٍ ما، عدا أنه كان مجرد فارس متواضع. كان بجسده النحيل وشعره الأشقر الذي لوحته الشمس وبشرته المُسمَرَّة خير تجسيد للرجل الإنجليزي المغامر. كنت أظن أن أحد أسلافه ربما كان من اليهود، أو من أي شعب أجنبي آخر أسمر البشرة، فقد كان أضخم من بقيتنا جسمًا وأكثر سرعةً في الاستجابة. ولكن، كان في مجمله إنجليزيًّا مثل مروج هامشير المائية …

انتشر دخان الغلايين الأزرق اللون في مقصورة القطار. وكان رفاقي يتحدثون عن الحدائق الصخرية. وكان الرجل الجالس في الركن المواجه لي أكثر إلمامًا بالموضوع، وكان يملك الكثير لقوله عن العديد من شركات المشاتل. كان الرجل أشقر، وسمينًا، وأصلع، وكانت نبرة صوته محببة أيقظت في ذهني ذكرى لم أتمكن من تحديدها. وظننت أني ربما رأيته في اجتماع شركة ...

عدت لأفكر في لومبارد مجددًا. وتذكرت جلوسنا على صخرة ذات مساءٍ نشاهد غور المنطقة الاستوائية من أعلى، والشمس تصبغ بأشعتها القرمزية غابات أشجار الزيتون البعيدة، حين أخبرني بما يطمح إليه. في تلك الفترة، لم يكن وهج السحَر الذي ألقاه سيسيل رودز على أفريقيا قد خبا بعد، وكان الناس لا يزالون يحلمون. وكانت أحلام لومبارد عظيمة. وكان يقول لي: «لقد حصلت على إلهامي.» لم يعد يشعر بذلك التَّوق القديم للنجاح القانوني أو الأدبي أو السياسي الذي كان يشعر به في الوطن. فقد عثر على هدفٍ جديد لحياته.

كان حديثًا يجري على لسان رجلٍ صغيرِ السن جدًّا. كنت في نفس عمره تقريبًا، ولكني عاركت الحياة قليلًا وأدركت أنه عديم الخبرة. إلا أنه أبهرني بشدة. فقد كان حديثه يحوي بين طياته حماسةً وشعرًا، ولم يخلُ من فطنة جذابة. كان قد تلقَّى «نداءً» وهبَّ مسرعًا لتلبيته. ومنذ ذلك الحين، كرَّس حياته لغايةٍ واحدةٍ؛ إنشاء «إقليم استوائي بريطاني»، تكون فيه المرتفعات الشرقيَّة والجنوبيَّة قاعدة للبيض. ستكون دولةً للبيض والسود على حدٍّ سواء، مملكة الكاهن يوحنا الجديدة. وسترتبط جنوب أفريقيا بمصر والسودان؛ ومن ثَم ستُكمل خطة رودز. وستكون مصدر جذب لشبابنا ومستوطنة لفائض شعبنا. وستعزز نهضة روحية لإنجلترا. صاح قائلًا: «عندما أفكر في الحياة الخانقة في الوطن! علينا أن نضخ فيها هواءً منعشًا، ونعطي شعبنا دولة مترامية الأطراف بدلًا من الأزقة المغلقة التي يعيشون فيها ...»

أصبح الحديث في مقصورة القطار يدور الآن حول رياضة الجولف. كانوا يرتبون لإقامة مباريات يوم الأحد القادم. يبدو أن الرجل الجالس في الركن المقابل لي كان لاعب جولف يمتلك بعض الشهرة، فقد كان يشرح كيف تمكَّن من تحسين معدل التمايُز الخاص به. بالنسبة إليَّ، كانت رياضة الجولف هي أكثر شيء كئيب على الإطلاق، فصمَمت أذنيَّ عن الحديث الدائر عنها. قال الرجل: «لذا، أمسكت مضربي القصير، مضربي القصير العزيز» ... بدا أن هذه الكلمات تحمل جميع مظاهر الاختناق التي شكا منها لومبارد.

فقد تمثلت فيها حياة الضواحي المتعجرفة التي ثار عليها لومبارد في أكمل صورها. ثم عادت أفكاري إلى قمة التل تلك التي تبعد عني حاليًّا ثلاثة آلاف ميل وثلاثين عامًا …

كنا جميعًا متحذلقين في حديثنا، إلا أن تحذلُق لومبارد لم يكن نابعًا من حماسة بالغة فحسب، بل كان أقرب إلى اعترافٍ شَغوفٍ بالإيمان. لم يكن يدري ما الخطوة التالية في مسيرته المهنية. كان قد عُرِض عليه منصب في الحكومة، كان سيصبح نقلة كبيرة بالنسبة إليه. كما كان يمكنه العمل في مجال التجارة أيضًا. فقد توفرت له فرصة الالتحاق بإحدى الشركات التي كانت بصدد ضخ استثمارات ضخمة في أفريقيا. كان يقول إن المال مهم، ويستشهد بسيسيل رودز وبيت. لم يكن قد قرر أيَّ مسار سيتبع، إلا أن السبل لم تكن تؤرقه كثيرًا. فقد كان هدفه واضحًا لدرجة أنه لا بد وأن يجد طريقًا تؤدي إليه.

ولا أعتقد أني امتلكت انطباعًا عن هدفٍ تملَّك صاحبَه أقوى من هذا الانطباع. فهذا شخص لن يرتضي أبدًا بأن يكون أحد العجول السمينة التي تسكن هذا العالم. قد يفشل، ولكنه سيفشل بطريقة رائعة.

قلت له: «ذات يوم ستكون ثمة دولة تابعة لبريطانيا تُدعَى لومباردي. إنك تملك اسمًا مناسبًا ليُطلق على إمبراطورية.»

كنت أتحدث بجدية تامة، وأخذ هو كلماتي على محمل الجد.

فقال: «نعم، لقد فكرت في ذلك، ولكنها ستكون لومبارديا.»

لم تكن هذه هي المرة الأخيرة التي نلتقي فيها، فبعد عام حضر إلى روديسيا، في بعثة حكومية مرة أخرى، ومررنا كلانا معًا بتجربة غريبة إلى حدٍّ ما. ولكنها حدثت هذه المرة في وقت الشفق الأفريقي، فلم أنسَها أبدًا. رأيته هذه المرة رجلًا كرَّس نفسه لمهمة مقدسة، على استعداد لإخضاع أي قوة ذهنية أو بدنية يملكها لتحقيق طموحه الكبير، وللتضحية بكل ما قد يثبط من عزيمته في الحياة. شعرت حينئذٍ بأني في حضرة فارس شاب يشرع في تأدية خدمته بجدية مبالغ فيها …

نظرت في المقصورة من حولي إلى الوجوه المترهلة المبتهجة التي جسدت بشكل صارخ النقيض التام لوجه الرجل الذي أتذكره. كان الحديث لا يزال دائرًا حول الجولف، وكان الرجل البدين ينقل دفة الحديث إلى المضارب الجديدة المصنوعة من الصلب. لا بأس، يتطلب الأمر جميع نوعيات البشر لتصنع عالمًا …

لم أكن قد التقيت لومبارد لفترة تزيد على ربع قرن. ولم أسمع اسمه طوال هذه الفترة حتى عصر اليوم عندما ذكره ملَبَري في مجلس العموم. ولكني كنت في البداية دائم

التفكير به أترقب تجسُّده أمامي. كنت أشعر تجاهه مثلما شعر براونينج تجاه وارينج في قصيدته؛ فقد كنت أعتقد أنه إن آجلًا أو عاجلًا — وربما عاجلًا وليس آجلًا — سيتمكن بطريقة ما من أن يصنع لنفسه اسمًا لامعًا. تخيلته يمشي بخطًى ثابتة نحو هدفه، مترفعًا عن الإنجازات غير المكتملة والسمعة سهلة المنال، منتظرًا بصبرٍ الفرصةَ الكبيرة واللحظة المناسبة. وكنت مقتنعًا بأن الموت وحده هو ما يمكنه إيقافه. ثم اندلعت الحرب …

فرغت مقصورة القطار تقريبًا من ركابها. فلم يتبقَّ فيها إلا أنا والرجل الجالس في مواجهتي. وكان أن رفع قدميه على المقعد وجلس يتصفح جريدة أخبار السيارات …

نعم، قررت أن الحرب هي السبب. ولا بد أن لومبارد شارك في الحرب؛ فهو من نوعية الرجال الذين لا بد وأن يشاركوا فيها، بل وفي إحدى المهام الغامضة في مكان ما من ساحة المعركة التي شملت العالم بأسره، أنهى الموت أحلامه. حالة أخرى من الإخفاق في تحقيق الشهرة. انقبض قلبي من هذه الفكرة. فلطالما كان المستفيد الأكبر من هذه الحياة هم العجول السمينة. اندثرت الحكمة والطموحات العالية من العالم، وأصبح المُنعَّمون، مثل ذلك الرجل الجالس أمامي، هم من يملكون العالم.

مررنا بمحطة، وبدَا جليًّا أن المحطة التالية هي وجهة رفيقي في السفر؛ فقد نهض، ومدَّد ساقيه، وأخذ لِفافةً من رف الأمتعة. كان يحمل سمكةً من أجل العشاء. ثم طوى جريدته وأشعل سيجارة. وللمرة الأولى منذ بداية الرحلة، نظر إليَّ الرجل مباشرةً، وبدأ يعتلي وجهَه ببطء تعبيرٌ ينم عن أنه تعرَّف عليَّ. تردد الرجل للحظة، ثم نطق اسمي.

قال: «هاناي؟ ألست ديك هاناي؟»

عندما سمعت صوته تذكرت تلك اللكنة الواضحة المخارج التي لم تتغير أو تتشوه رغم مرور كل تلك السنوات. وتعرَّفَت عليه عيناي، وخطر الجواب على ذهني فجأةً. ورأيت وجهًا أكثر نحولًا وشبابًا خلف الوجنتين المكتنزتين والوجه الممتلئ وأمارات الدعة والراحة.

صحت قائلًا: «لومبارد! لم أرك أو أعرف عنك شيئًا طوال عشرين عامًا. هل تعلم أن وزير شئون المستعمرات ذكر اسمك اليوم في مجلس العموم؟ وظللت أفكر بك منذ ذلك الحين.»

فابتسم لومبارد ومد يده نحوي.

«ماذا قال؟ آمل أنه لم يقل شيئًا يحقر من شأني. فثمة خلاف بيننا وبين وزارته بخصوص العراق. سمعت عنك الكثير، وقرأت عنك في الصحف، وكنت آمل أن ألتقيك

مصادفة ذات يوم. لقد فعلتَ أمورًا مذهلة أثناء الحرب. أنت تحمل لقب فارس قائد لرتبة وسام الحمام، أليس كذلك؟ لقد عرضوا عليَّ لقب فارس أيضًا، ولكن شركتي نصحتني ألا أقبله. من سوء الحظ أننا لم يصادف أحدنا الآخر في وقت أبكر، فكنت سأود أن أطيل الحديث معك.»

أجبته قائلًا: «وأنا كذلك. فلدينا الكثير لنتحدث عنه.»

أجابني كما لو أنه قرأ السؤال البادي في عيني.

«لقد قضينا معًا أوقاتًا مرحةً في الماضي. يا إلهي، يبدو أنه قد مر زمن طويل. ماذا كنت أفعل منذ ذلك الحين؟ حسنًا، بدأت العمل في مجال النفط. ولكَم أتمنى لو أني بدأت هذا العمل في وقت أبكر؛ فقد أضعت سنوات طوالًا أدور حول نفسي دون هدًى. جَنَت شركتي قدرًا معقولًا من المال أثناء الحرب، والأمور تسير على خير ما يُرام منذ ذلك الحين.»

كان يتعامل بودٍّ، ويبدو سعيدًا برؤيتي، ولكن، بعد مرور تلك الفترة الطويلة على تباعدنا، وجد أنه من الصعب إعادة التقارب بيننا من جديد. ولم تختلف حالي عنه كثيرًا. فكل ما تمكنت من فعله هو التحديق في وجهه اللطيف المريح محاولًا دون جدوى أن أعثر فيه على شيء مضى دون رجعة.

شعر لومبارد بالضغط الواقع على كلينا. وعندما توقفنا عن الكلام، نفَّض قبعته، وعدَّل من وضع معطفه الواقي من المطر على ذراعه، ونظر إلى الخارج عبر النافذة. بدا وكأنه يبحث في عقله عن شيء ليقوله.

ثم قال: «أنا أسكن هناك. يجدر بنا ألا نتوقف عن اللقاء بعدما التأم شملنا من جديد. ما رأيك أن نتناول الغداء معًا في أحد الأيام في النادي الخاص بي؛ فأنا عضو في نادي جونيور كارلتون؟ أو ربما من الأفضل أن تقضي معي عطلة نهاية الأسبوع. ويمكننا أن نلعب معًا مباراة جولف محترمة.»

توقف القطار عند رصيف صغير أنيق مغطًّى بحصًى أصفر ناعم، وكان مبنى المحطة أحمر اللون يشبه كنيسة وزليان عندما تُكسَى في شهر يونيو بزهور دوروثي بيركنز من قمتها إلى قاعدتها. كان ثمة صفٌّ طويل من زهور إبرة الراعي الذابلة، والعديد من أحواض زهور الأقحوان. وخلف السياج، رأيت طريقًا أسفلتيًّا لامعًا وأشجارًا ومروجًا داخل فيلات كبيرة. ولاحظت سيارة ديملر لامعة تقف أمام مدخل المحطة، وتقف على رصيف المحطة امرأة، تشبه زهرة الفاوانيا في أوج ازدهارها، لوَّح لها لومبارد بيده.

وقال لي وهو يخرج من مقصورة القطار: «هذه زوجتي. أود أن أعرفك بها ... سُررت جدًّا برؤيتك مجددًا. أملك منزلًا صغيرًا جميلًا هنا ... عِدني بأن تحضر لزيارتنا في إحدى عطلات نهاية الأسبوع. ستراسلك بيريل.»

واصلت رحلتي في حالة ذهنية غريبة؛ إذ كنت ذاهبًا إلى مضيق سولنت لإرساء مركَبي الذي استخدمته في سباق يخوت بسيط. انتابني شعور نادرًا ما شعرت به؛ سخط بالغ على الحياة. استحوذت الطبقة المتوسطة العظيمة الراسخة القانعة على لومبارد رغم أنه كان يحتقرها في الماضي، بل وأصبح يبدو سعيدًا فيها. لقد أصبح الرجل الذي اعتقدت أنه نسرٌ جامحٌ راضيًا بأن يكون طائرًا داجنًا. حسنًا، إذا كان راضيًا بحاله، فلا شأن لي بذلك، ولكن ضاق صدري عندما فكرت في مدى هشاشة الآمال والأحلام.

شعرت بحزن أكبر على نفسي. لقد ولَّى شباب لومبارد، وكذلك شبابي. كان لومبارد مستريحًا مثل موآب على دُرْدِيِّه، وكذلك كنت أنا. نرسم جميعًا في خيالنا صورًا لأنفسنا ونحاول تحقيقها، ولطالما كانت صورتي عن نفسي شخصًا صارمًا ومنظمًا يمكنه أن يحافظ على حيوية روحه حتى آخر يوم في حياته. ومن ثَم واظبت على تدريب جسدي عبر التمارين الرياضية، ولكني أدركت أن روحي أيضًا معرَّضة لخطر التفسُّخ. فقد كنت في دَعَة دائمة. كنت أملك جميع النعم التي قد تُغدَق على إنسان، ولكني لم أكن أسعى للحصول عليها. حاولت إقناع نفسي بأني أستحق بعضًا من السلام والسكينة، إلا أن هذه الأفكار لم تُرحني؛ فقد كانت تعني أني قد تقبَّلت تقدمي في السن. وماذا كانت هواياتي وأيامي الهادئة، أهي مجاملات من الشيخوخة؟ نظرت إلى وجهي في المرآة المعلقة في مؤخرة عربة القطار وشعرت بالاشمئزاز، فقد ذكرني برفاق سفري الذين كانوا يثرثرون عن الجولف. ثم غضبت من نفسي. وقلت: «أيها الأحمق! إنك تتحول إلى رجل مسن هش، وتلك سنة الحياة، ويجب أن تملك العزم لأن تشيخ سعيدًا.» وضعَت هذه الكلمات حدًّا لشكواي، ولكنها تركتني بائسًا وغير مقتنع بالكامل.

الفصل الثاني

سهول هانام

طوال هذا الخريف وبداية الشتاء، ظل شعورٌ مؤرِّق يلازمني. لقد أسعدني وجود ذلك الرجل الثري الذي يسكن الريف في حياتي، إلا أنه فقد بعضًا من حيويته. وبدلًا من أن أشعر، كما أفعل دائمًا، بأن هذه هي الحياة الوحيدة التي تناسب الرجل الأبيض، انتابني شكٌّ بغيض بأن الرضا بهذه الحياة يعني أني أصبحت هرِمًا. وفي الوقت نفسه، لازمني توقُّع غريب بأن أمرًا على وشك الحدوث من شأنه أن يقضَّ راحتي، وأنه من الأفضل أن أستدفئ بالشمس أثناء سطوعها؛ فهي لن تظل ساطعةً لوقت طويل. الغريب في الأمر أن هذا التوقُّع أراحني. لم أكن أسعى للمزيد من المتاعب في هذا العالم، إلا أن مجرد وجود احتمالية بأن أحدها على وشك الحدوث جعلني أستمتع بأيام الرخاء بضمير أكثر ارتياحًا.

خلال الأسبوع السابق لعيد الميلاد المجيد، وقع ثاني حدث في سلسلة الأحداث التي أدت إلى هذه القصة. فقد ظهر ابني في الصورة، وهنا يجب أن أتوقف قليلًا لأقدِّم لكم بيتر جون الذي بلغ الرابعة عشرة من عمره.

كنت أتمنى عندما وُلِد أن يكون صبيًّا إنجليزيًّا نموذجيًّا، جيدًا في الرياضة، ذكيًّا بدرجة مقبولة، وأمينًا ونقيًّا بدرجة معقولة، من نوعية طلاب المدارس الحكومية الذين تقرأ عنهم في الكتب. قلت إني «كنت أتمنى» لأنها كانت الصورة التقليدية التي يسعد أغلب الآباء برؤية أبنائهم عليها، رغم أني أشك أني كنت سأسعد إذا كان ابني على هذه الصورة في الواقع. على أي حال، لم يكن بيتر جون يشبه هذه الصورة من قريب أو بعيد. فلم يكن مهتمًّا بأن يتوافق مع روح المدارس الحكومية. كان غلامًا ضعيفًا، ولكن بعدما تخطى عامه السابع، تحسنت صحته، وعندما التحق بالمرحلة الابتدائية أصبح صبيًّا صغيرًا قويًّا لم يُعانِ من أي أمراض عدا التهاب الغدة النكفية والحصبة، اللذين يصيبان الجميع. كان أطول من الطول المعتاد لمن هم في مثل عمره، وكان وسيمًا على طريقته الخاصة. ورث

عن والدته ماري شعرَها الرائع ذا اللون الرملي المائل إلى الاحمرار، كما ورث عنها عينَيها الزرقاوين ويدَيها وقدمَيها الطويلة النحيلة. وورث عني فمي وشكل رأسي، ولكنه اتسم بطابع متجهم لا يمكن أن يكون ورثه من أيٍّ منَّا. فقد رأيت شكله حين تغمره السعادة يبدو كئيبًا ومتجهمًا رغم سعادته. وكان هادئ الطباع جدًّا، ذا صوتٍ خفيض محبَّب، وكان قليل الكلام يميل إلى استخدام الكلمات الجزلة المعقدة. وقد نتج ذلك من قراءاته المفضلة التي تمثلت في سِفر النبي إشعيا، وإيزاك والتون، وكتاب من القرن الثامن عشر عن تربية الصقور مترجم عن الفرنسية. ذُكِر في أحد تقاريره المدرسية أنه يتحدث إلى أستاذته كما لو كان الشاعر الدكتور صامويل جونسون يتحدث إلى رجل من العامة.

لم يُخلق بيتر جون ليكون طالبًا في مدرسة، فكان الحديث عن «المشاركة في المباراة»، و«روح الفريق»، و«شرف المجموعة» يصيبه بالغثيان. كما أنه لم يكن متفوقًا في دراسته، ولكنه تعلَّم أن يجتازها بنجاح ولكن بصعوبة، أما في الألعاب، فكان حالةً ميئوس منها؛ إذ كان يرفض تعلُّمها رفضًا قاطعًا. كرِه مدرسته الابتدائية وهرب منها مرتين. وكان يُظهر أسوأ ما فيه في مدرسته الحكومية، ومع ذلك فقد كان أكثر سعادة فيها؛ لأن أحدًا لم يكن يتعرض له. وكان من نوعية الصبية الذين يصيبون الأساتذة بالإحباط، فلم يكن يسمح لهم بالتقرُّب منه، ورغم تعامله معهم بتهذيب وأدب بالغين، فإنه لم يتمكن من إخفاء عدم تقديره لهم. كما أنه لم يكن يُقدِّر الطلبة الآخرين أيضًا، ولكنهم كانوا على قدرٍ من الحكمة فلم يشعروا بالاستياء من ذلك، فقد كان يستخدم قبضتيه بمهارة لم أرَ لها مثيلًا في حياتي بالنسبة إلى وزنه.

كان فشل بيتر جون في الدراسة يقلق ماري في بعض الأحيان، ولكني كنت أرى أنه يشق طريقه الخاص ويحصل على تعليم جيد. فقد كان نزيهًا وشجاعًا وعطوفًا، وكانت هذه الصفات هي الأهم بالنسبة إليَّ. كما أن عقله لم يتوقف أبدًا عن التفكير في الموضوعات التي تهمه. لم يكن يستطيع التفرقة بين المضرب والكرة، ولكنه كان قادرًا على رمي صنارة الصيد بالذباب الجاف ببراعة. كانت احتمالية أن تراه يلعب بدمية أو بمضرب تنس متساوية، ولكنه قبل أن يبلغ الثانية عشرة من عمره كان بارعًا في استخدام بندقية الصيد عيار ١٦ لدرجة أنه أصبح قادرًا على استخدام بندقيته الخاصة للصيد في الغابة. كان ينفر من الخيول بشكل غريب، وكان يرفض امتطاءَها، ولكنه كان بارعًا في التعامل مع الحيوانات الأخرى. وأصبح قادرًا على قضاء يومٍ كامل في غابة أيائل بمجرد وصوله إلى مرحلة المراهقة. كما علَّم نفسه بنفسه ليصبح عالم طبيعة ميدانيًّا جيدًا لدرجة أن

آرتشي رويلانس قد أُعجِب بإلمامه بأنواع الطيور. وبدأ ممارسة الملاكمة في سن مبكرة جدًّا وبمطلق اختياره، لأنه لم يكن يحب فكرة أن يُلكم في وجهه، وفكَّر في أنه من الأفضل أن يقهر هذا الخوف. وثبَتت موهبته الفطرية في هذه الرياضة، فقد كانت ذراعه طويلة وكانت حركة قدمَيه خفيفة بصورة مذهلة. وأود أن أضيف أنه رغم تجهُّمه، كان أكثر الناس ودًّا. فكان جميع سكان القرى في محيط عشرين ميلًا من فوسي يُثنُون عليه. كان معتادًا على أن يُلقِّب الجميع بلقب «سيد»، وكان من الغريب سماعه يطلق هذا اللقب على صعلوكٍ ساعدتُ هيئةَ المحكمة في الزج به في السجن منذ بضعة أشهر. كان بيتر جون يتلقى تعليمه من الطبيعة البرية ومن القرويين، باختلاف عاداتهم، ورأيت أن نوعية التعليم هذه لا تقل جودةً عن أي نوعٍ آخر.

لكن هذا تسبب في عدم قدرته على الانسجام مع الطلبة الآخرين، فلم يكن يشاركهم أيًّا من طموحاتهم العادية. لم يكن ليشكرك مثلًا إذا ضممته إلى فريق الكريكيت أو التجديف، ولم تكن الغطرسة البريئة للصبية تؤثر فيه على الإطلاق. الأمر ببساطة أنه لم يكن ينافسهم فيما يطمحون إليه. وأعتقد أن الطلبة الآخرين كانوا يحترمونه، وكان أساتذته يحبونه بوجه عام، فقد كانوا يسامحونه دائمًا على خرقه للنظام. ولا شك في أنه كان بارعًا في النجاة بفعلاته. فكان أن قضى ليلته في الخارج مرتين، ولم يُطرَد من المدرسة في كل منهما؛ إذ لم يفكر أحد في تكذيب سببه للحالة الأولى وهو أنه كان يحدِّد توقيتًا لحيوان الغُرَير، أو سببه للحالة الثانية وهو أنه كان ينتظر وصول سرب من الإوز الرمادي. ولا شك في أنه مارس الصيد المحظور، ولكنه لم يُضبَط أبدًا، فقد أرسل إلى والدته ذات مرة زوجًا من دجاج الأرض بعدما اشتكت من صعوبة الحصول على هذا الطائر في خطاب أرسلته إليه. كما أنه احتفظ بصقور منذ الأسبوع الثاني من سنته الدراسية الأولى، ولم يبدُ أن أحدًا يمانع ذلك. في تاريخ كتابة هذه السطور، كان قد مضى عليه في الدراسة أربعة فصول دراسية امتلك في فترات عدة خلالها العديد من طيور الباز، والباشق، وعدد لا يُحصى من طيور العوسق. كان من المعتاد أن تصحبه حديقة الطيور تلك في صندوق القبعات جيئة وذهابًا في السيارة. كما كان يخبئ صقرًا من نوعٍ ما في معطفه المضاد للمطر، وذات مرة أصيب مجموعة من السياح الأمريكيين بذهول شديدٍ عندما أوقفوا صبيًّا يبدو مهذبًا ليسألوه عن الكنيسة، فانشقت السماء فجأة عن طائر وغاص تحت سترة الصبي.

أعلنت ماري على طاولة الإفطار أن بيتر جون بصدد تقليل نفقاته والتخلي عن هوايته. فرفع آرتشي رويلانس، الذي كان يقيم معنا، عينيه اللتين يملؤهما التعاطف عن سلطانية العصيدة التي أمامه.

وقال: «ماذا؟ هل سيبيع خيوله في مزاد تاترسالز العلني ويُغلق المنزل القديم؟ يا للفتى المسكين!»

قالت ماري: «لقد فقد أنثى طائر الباز، التي كان يطلق عليها جيزبل، ولا يملك ما يكفي من المال لشراء غيرها. كما أن قيود طيور الباز المصنوعة من جلد الخيول الأبيض تكلف الكثير من المال. لم يعد يملك أي طيور حاليًّا عدا بعض طيور العوسق. إذا كنت ترغب في العيش وسط الموت يا آرتشي، فعليك بتربية الصقور. فهي تموت لأتفه الأسباب. فهي إما أن تشنق نفسها، وإما أن تُصاب بالسكتات الدماغية أو الجلطات أو أمور من هذا القبيل، وإما أن تضل الطريق أو تَعلَق قيودُها في شجرة فتموت من الجوع.» كان قلبي ينفطر دائمًا عندما يدخل بيتر جون عليَّ في الصباح بوجه عابس ليخبرني أن طائرًا آخرَ قد مات. الصيف الماضي، كان يملك أربعة طيور عوسق أطلق عليها أسماء فيوليت، وسلينجسبي، وجاي، وليونيل. وكانت تلك الطيور الصغيرة هي أكثر طيور أحبها. كانت تجلس طوال اليوم على مجثمها في المرج المحيط بالمنزل، وتصرخ مثل امرأة سيئة الخلق إذا ما اقترب منها أيٌّ من كلاب ديك من فصيلة كوكر، فلم تكن تطيق الكلاب السوداء. ولكن، لم يتبقَّ أيٌّ منها. فقد قتلت جيزبل إحداها، ومات اثنان بمرض القلب، وكسر الأخير عنقه في فناء الإسطبل. أحضر بيتر جون هيثمين ليحلَّا محل الطيور الميتة من متجر ونستانليز، ولكن لم يختلف مصيرهما عمن سبقهما. والآن، ماتت جيزبل أيضًا. لم أحبها على الإطلاق، فقد كانت ضخمة مثل نسر وذات عينَين خبيثتَين، ولكنها كانت قرة عينه، وكان من الرائع رؤيتها تخرج من بين السحب لتحطَّ على المجثم. يقول بيتر جون حاليًّا إنه لا يملك مالًا كافيًا لشراء المزيد من الصقور وإنه سيتخلى عن هوايته. كان ينفق أغلب مصروفه على الصقور، وكان يراسل دائمًا نبلاء نمساويين يمرون بضوائق بشأن صقورهم.

في تلك اللحظة، دخل بيتر جون. كان ميَّالًا إلى التأخر على وجبة الإفطار، فعلى الرغم من أنه كان يستيقظ مبكرًا كان لديه الكثير ليفعله في الصباح. كان يرتدي سراويل قديمةً من تلك السراويل المخصصة لصيد الأرانب بالكلاب، وسترة ذات رقع جلدية قد يرفض المشردون ارتداءَها.

قال له آرتشي: «يؤسفني حظك العاثر. ولكن لا يجدر بك أن تترك تدريب الصقور. هل امتلكت صقر الشاهين من قبل؟»

قالت ماري: «لا يجب أن تتحدث هكذا. فلتقل الشاهين المدرَّب (ذكر الصقر) أو الشاهينة المدرَّبة (أنثى الصقر)، حسب النوع. إن بيتر جون يحب المسميات القديمة التي يستخرجها من كتب جيرفاس ماركام.»

واصل آرتشي حديثه قائلًا: «لأنك إذا أردت واحدًا، يمكنني أن أحضره لك.»

لمعت عينَا بيتر جون.

وسأله: «هيثمٌ أم صقرٌ مهاجر؟»

قال آرتشي الذي يفهم هذه المصطلحات: «هيثمٌ. أخذه واتي لايدلو من عشه الربيع الماضي. إنها أنثى، أعتقد أنك تطلق عليها شاهينة، طائر استثنائي جميل. كما أنها مدرَّبة جيدًا، فقد استخدمها واتي في اصطياد عدة أزواج من طائر الطيهوج. ولكن، لن يمكنه الاحتفاظ بها، فلديه الكثير من المشاغل، وأرسل إليَّ رسالة الأسبوع الماضي مفادها أنه يَعرضها للتبني. فكَّرت في عرض الأمر على ديفيد ووركليف الصغير، ولكنه سافر إلى فرنسا ليستعد لامتحان السلك الدبلوماسي. ما رأيك إذن يا فتى؟ ستكون مِلكك حالَ موافقتك.»

كانت النتيجة أن قضى بيتر جون أيامًا سعيدة في صناعة قلنسوات وأربطة وقيود جديدة، وبعد أسبوع، وصلت الشاهينة من بلدة كراسك في صندوق. كانت في حالة هياج لدرجة أنها كسرت ريشتين من ذيلها، فاضطُر بيتر إلى قضاء يوم كامل في ترميم ريشها باستخدام إبرة التَّوْسِير. إذا كنت تهوى تربية الصقور، فعليك أن تكون مربيًا ماهرًا تعرف كيف تُطعِمها وتُحمِّمها وتعالجها. ولم تكن أنثى الصقر تحمل اسمًا، فسماها بيتر جون موراج، تنويهًا عن أصولها التي تعود إلى مرتفعات اسكتلندا. وقضى أغلب وقته في التواصل الفردي معها حتى أصبحت تعرفه، وبحلول الأيام الأولى من السنة الجديدة، كان قد درَّبها جيدًا.

كنت معتادًا أن أذهب في شهر يناير، إذا كان الطقس جيدًا، إلى ساحل نورفوك لقضاء بضعة أيام في صيد البط. وكنت أنوي أن أصطحب بيتر جون معي هذه السنة، فقد اعتقدت أنها ستكون رياضة موافقةً لهواه. ولكن بدَا جليًّا أنه لم يكن قادرًا على ترك موراج، ولأني كنت أريد أنيسًا في رحلتي وافقت على ذهابها معنا. وعليه، في ليلة السابع من يناير، وجدنا، أنا وبيتر جون وطائره، أنفسَنا في نُزُل «روز آند كراون» في

هانام نشاهد غروب الشمس فوق السهول الطينية التي تجلدها الرياح الجنوبية الغربية العاصفة.

عثر بيتر جون على مسكن من أجل موراج في مبنًى ملحقٍ بالنُّزُل، ثم ذهب لينام بعد العشاء، فكان عليه أن يستيقظ في الرابعة من صباح اليوم التالي. بحثت بعيني في الحانة بحثًا عن أيٍّ من صيادِي الطيور الذين أعرفهم لأتحدث إليه، خاصةً صديقي سامسون جروس الذي حددت معه موعدًا للقائي هناك. كان في الحانة اثنان من صيادي الطيور بالإضافة إلى سامسون، جو ويبل وجرين المسن، وكلاهما من الأسماء الشهيرة في سهول هانام، بينما كان بقية الصيادين في جولة الصيد المسائية وسيحضرون إلى الحانة فيما بعد أثناء عودتهم لديارهم ليحتسوا المشروب الخاص بصيادي الطيور المكون من شراب الرَّم الساخن والحليب. كان ثلاثتهم مسنين، شارك اثنان منهم في حرب البوير، وكانوا يملكون مقلتَي العينين الصفراوين وتلك البشرة الشاحبة التي تُميز أولئك الذين قضوا حياتهم بين الرمال الساحلية والبحر. لم ألتقِ رجالًا أشد من رجال هانام، ولم أرَ مظهرًا ينمُّ عن ضعف الصحة مثل مظهرهم. إنهم فصيلة مختلفة عن بقية البشر، فهم لا يعيشون على الأرض بالكامل ولا يعيشون في البحر بالكامل.

كان لدى سامسون أخبار جيدة. كانت منطقة البلطيق تتجمد، ومن ثَم، أتت الطيور البرية ناحيتهم بوفرة، ولكنها نحيلة جدًّا ولا تستحق صيدها. تتكون أسراب هذه الطيور في الأغلب من البط الصافر والبط الشرشير، ولكنه رأى عددًا قليلًا من البلبول الشمالي. سألتُه عن الإوز. فأجابني أنَّ ثمة الكثير من الإوز الأسود، وهو أمر سيئ، فلا يمكن أكل هذا النوع من الإوز، والقليل من الإوز الأبيض الرأس والإوز الرمادي. كما توجد أعداد من الإوز الأبيض الجبهة والإوز الوردي القدمين، إلا أنه من شبه المستحيل أن تطير على مقربة منَّا، ولكن تسببت هذه الريح العاصفة في أن تطير على ارتفاعات منخفضة. واعتقد سامسون أن رحلة الصيد المسائية هي الأفضل في الوقت الحالي، فقد كان القمر مُحاقًا، وإبصار الإوز ليس أفضل من البشر العاديين، والإوز يغادر الحقول الشاطئية قبل الغروب ليعود إلى البحر، ولم يكن على المرء أن ينتظر لوقت طويل. حدَّد سامسون الرابعة والربع موعدًا للقائنا عند باب النُّزُل في صباح اليوم التالي، فلم يكن الفجر يبزغ إلا قرب الثامنة صباحًا، ما منحنا الوقت الكافي لنتعمق في سهول الطين ونحفر «قبورنا».

غادر صيادو الطيور الثلاثة الحانة إلى ديارهم، ودخلت أنا إلى صالون الحانة لأتحدث إلى صاحبة النُّزُل، السيدة بوتينجر. عندما زرت هانام للمرة الأولى، كانت وزوجها جوب

زوجَين وسيمَين في منتصف العمر، ولكنَّ جوب أصيب بكسر في الظهر في غابة هانام العظيمة بينما كان يزيل الدعائم من أحد المناجم الناضبة ومن ثَم تُوفِّي، وتحولت أرملته فجأةً إلى امرأة عجوز. كان العمل في نُزُل «روز آند كراون» يورث الوحدة، فقد كان على حافة المستنقعات المالحة ويبعد بضعة أميال عن أية قرية، ولكنها لم تكن تمانع ذلك. لقد تَسبَّب الحزنُ على جوب، وكذلك إصابتُها بنوع من الحمَّى المتكررة الشائعة في هذه الأنحاء في فصل الخريف — أحد أنواع الملاريا البسيطة — في استنزاف الحيوية من جسدها، ووُضِع في عينَيها السوداوين الجميلتين ذلك الشجن الذي تراه في أعين الكلاب. كانت تدير النُّزُل الصغير من أجل صيادِي الطيور الذين كانوا أصدقاء جوب، وأنشأت شركة نقل صغيرة تمتلك عبَّارتَين تعملان في الخليج وعربة نقل قديمة تعمل على طول الساحل. تقبلتني السيدة بوتينجر نزيلًا لأن جوب كان يحبني، ولكنها لم تكن تفتح النُّزُل لاستقبال النزلاء رغم أن النُّزُل يحتوي على ثلاث أو أربع غرف صغيرة مريحة وقد كانت تغلق الباب في وجه الأغراب الفضوليين.

عثرتُ عليها تحتسي فنجانًا من الشاي في وقت متأخر عن الموعد المعتاد وتبدو في حالٍ أفضل مما كانت عليه المرة السابقة. كانت النار تبعث دفئًا محبَّبًا، والنوافذ وألواح السقف تهتز بفعل العاصفة. كان لديها الكثير من التساؤلات عن بيتر جون الذي أَوْلاها احترامَه على الفور بأسلوبه المحافظ وطلب منها أن تسامحه على ما ستسببه موراج من متاعب. وهزت رأسها في عدم رضًا عندما علمت أنه سيخرج للصيد صباح اليوم التالي. وقالت: «يا للصبي المسكين! يحتاج الصغار لقضاء أوقات طويلة في الفراش.» ثم أفضت لي بما لم أكن أظن حدوثه أبدًا، أن ثمة نزيلًا آخر في نزل «روز آند كراون».

قالت: «إنه شاب نبيل ووسيم وهادئ، ولكنه ليس صغيرًا جدًّا، فيبدو أنه تخطى الخامسة والثلاثين. اسمه سميث … السيد جيمس سميث. إنه مريض وأراد مكانًا بحيث لا يمكن لأقربائه أن يزعجوه، وسمع عن هذا المنزل من قريبتي نانسي المتزوجة من رجل يعمل في إسطبلات خيول سباق اللورد هانام. أرسل إليَّ خطابًا يتذرَّع فيه بأني لا أملك قلبًا قاسيًا قادرًا على رد طلبه، وها هو الآن يقيم في الغرفة الحمراء منذ أسبوعين، وأصبح جزءًا من العائلة، كما قد تقول. إنه لا يتدخل فيما لا يعنيه، ولكن من الرائع جدًّا التحدث إليه.»

سألتها عما إذا كان السيد سميث يهوى الصيد.

«لا. إنه ليس صيادًا. إنه ينام لوقت متأخر ويذهب إلى فراشه مبكرًا، ويقضي ما بين صحوه ونومه في السير على الشاطئ من تريم هيد إلى وافل كريك. ولكنه خرج مع

الصيادين الليلة للمرة الأولى. فقد تمكَّن من إقناع جيب سمارت بأن يصحبه؛ فهو يهوى الطيور البرية مثل ابنك الصغير المهذب.»

نهضت السيدة بوتينجر من مقعدها بصعوبة، فعلى الرغم من حزنها، زاد وزنها منذ وفاة زوجها.

وقالت: «أعتقد أني أسمعهم قادمين. لطالما كان جوب يقول إني مرهفة السمع مثل إوزة برية. وعليَّ أن أرى إن كانت سو قد حافظت على نار المدفأة مشتعلة في الحانة، وأحضرت قدر الحليب. لا بد من أن هؤلاء المساكين يموتون عطشًا؛ فهذه الريح قادرة على اقتلاع الأشجار من جذورها، كما يُقال.»

لا شك في أن هذه الأصوات كانت تخص صيادي الطيور العائدين. كان اثنان منهم يرتديان معطفَين صوفيَّين قصيرَين جعلا عرضهما يساوي طولهما، وكانا يخطوان بأقدام ثقيلة على الأرضية المصنوعة من القرميد. وكان الرجل الثالث يخلع معطف طيار جلديًّا ذا بطانة صوفية، وكشف عن ساقين طويلتين موضوعتين في حذاء مستنقعات طويل الرقبة، وجسد طويل يرتدي ملابس مصنوعة منزليًّا. فكَّرتُ أنه أحد أضخم الرجال الذين رأيتُهم في حياتي.

كنت أعرف الصيادَين الماهرَين، جيب وزيب — ولطالما كان اسماهما الأولان مصدرًا للارتباك بالنسبة إليَّ — وعرَّفاني بالرجل الثالث، فقد انسحبت السيدة بوتينجر إلى صالونها بعدما اطمأنت على أن كل شيء على خير ما يرام. رشف صيادو الطيور الرَّم والحليب، وقصوا عليَّ أخبارهم ما بين الرشفات. لم يصطادوا الكثير، فقط «تشارلي»، الإوزة التي اخترقتها طلقة أثناء طيرانها فسقطت من بين السرب. ولكنهما قالا إن الوضع سيكون أفضل في الصباح، فلسوف تستمر العاصفة طوال أربعٍ وعشرين ساعة، فقد خرج حاليًّا الكثير من الإوز الأبيض الجبهة والإوز الوردي القدمين إلى البحر، وسوف تطير الأسراب على ارتفاع منخفض بسبب هذا الإعصار. لم يكن جيب وزيب ممن يهوون الثرثرة، وفي خلال ثلاث دقائق، كانا يتمنيان لي ليلة سعيدة ويغادران.

وأصبحت بمفردي مع ثالث المجموعة. كما قلت سابقًا، كان رجلًا ضخمًا جدًّا، حليق الوجه فيما عدا شارب صغير أنيق، يميل لون شعره إلى لون الرمال ومن المؤكد أنه لم يُصفَّف بواسطة حلاق جيد. كان يرتدي حُلةً قديمة مصنوعة من نسيج صوفي خشن مغزول منزليًّا، وكنزة صوفية عليها نقوش رديئة باللونين الأبيض والأسود، من نوعية الملابس التي يرتديها صيادو سفن الصيد في جريمسبي. كنت سأقول عنه إنه مزارع أو

شيء من هذا القبيل، إلا أن حقيقة شحوب بشرته الغريب، ويديه اللتين تشبهان يدَي رجل لم يؤدِّ أي عمل يدوي شاق في حياته. انحنى الرجل لي بطريقة لم تبدُ إنجليزية تمامًا. فقلت شيئًا عن الطقس، وردَّ عليَّ بإنجليزية سليمة تشوبها لمحة من لكنة أجنبية.

كان واضحًا أنه لم يتوقع وجود نزيل آخر في نزل «روز آند كراون»، فكانت النظرة الأولى التي وجهها إليَّ مِلؤُها الدهشة. بل تتخطى الدهشة. كنت سأقسم أنها الخوف، بل تقريبًا الذعر، حتى طمأنه أمرٌ ما خلال تعاملي معه. ولكن، ظلت عيناه تجوبان وجهي كما لو كانتا تبحثان عن شيء يتوق للعثور عليه فيه. بعد ذلك، بدا أكثر ارتياحًا عندما تحدثت. فقد أخبرته بأني معتادٌ على القدوم إلى هانام منذ بضع سنوات الآن، وأني أحضرت ابني معي، وأتمنى أن أريه كيف يكون الصيد.

سألني: «ابنك؟ هل هو صغير السن؟»

عندما أخبرته بأنه على مشارف الرابعة عشرة، بدت عليه الراحة.

«وهل يهوى الصبي الصيد بالبندقية؟»

قلت إن بيتر جون لم يخرج لصيد الإوز من قبل، ولكنه مهووس بالطيور.

قال: «وأنا أيضًا. لا أصطاد الطيور، ولكني أحب مشاهدتها. توجد هنا أنواعٌ كثيرة من الطيور لم أرها من قبل، وأنواعٌ أخرى نادرًا ما أراها ولكنها توجد هنا بوفرة.»

عندما ذهبت إلى فراشي، رقدت أفكر في السيد سميث. استنتجت من لكنته الطفيفة ومن لغته الإنجليزية المنمقة أنه أجنبي. فكرت في أنه ربما يكون ألمانيًّا أو هولنديًّا أو سويديًّا، ربما كان عالم طبيعة في زيارة إلى هانام مثلما كان آرتشي رويلانس معتادًا على زيارة تيكسل. أعجبتني ملامحه الطيبة الخجلة، ولأنه يبدو وحيدًا هنا قررت أن أعرض عليه وبيتر جون أن نصحبه إلى رحلة الصيد معنا. ولكن، كان ثمة أمران بشأنه حيَّراني. أولهما أنه انتابني شعور غامض بأني رأيته من قبل، أو على الأقل شخص يشبهه. فقد كان شكل فكِّه والطريقة الحادة التي يبرز بها أنفه من تحت جبهته مألوفين. والأمر الثاني هو ذلك الاختلاج في عينيه الذي نمَّ عن الخوف عندما رآني للمرة الأولى. لا يمكن أن يكون مجرمًا متخفيًا؛ فقد بدا صادقًا ومأمون الجانب بشكل كبير، ولكنه كان خائفًا؛ خائفًا من شخص أو شيء قد ينقضُّ عليه فجأة حتى في تلك البقعة النائية من إنجلترا. غفوت وأنا أتساءل عما يخفيه ماضي ذلك الكائن الضخم البسيط.

أُوقظنا في تمام الرابعة صباحًا، وبعد تناول كوب من الشاي لحقنا بسامسون عند المرفأ، وعلى ضوء مصباح كهربي خافت، بدأنا نتلمس طريقنا عبر الرمال الجافة حتى

وصلنا إلى المستنقعات المالحة. كانت العاصفة قد خفَّت قليلًا، ولكن ظلت الرياح تضرب وجوهنا بقوة من ناحية اليمين، وشعرنا كما لو كان العالم المظلم من حولنا بالكامل صندوق ثلج. كنت وبيتر جون نرتدي أحذية مطاطية طويلة الرقبة حتى الركبتين، وكان من الصعب جدًّا السير بها، ولأننا لم نكن نملك خبرة سامسون، غصنا عدة مرات حتى الخصر في الجداول الصغيرة. كان كلٌّ منا يحمل بندقية من عيار ٨ تُطلق خراطيش ويبلغ طول كلٍّ منها ثلاث بوصات ونصفًا، بينما كان سامسون يحمل بندقية من عيار ١٢ ذات ماسورة في نفس طول البندقية بور رور. وبالتدريج خرجنا من الأرض العشبية ووصلنا إلى السهول الطينية الموحلة. وهناك، أوقفنا سامسون، وأخرجنا مجارف الفحم من الحقائب التي تحتوي على أدوات صيد الإوز، وبدأنا نحفر «قبورنا» مكدسين متراسًا من الطين على جانب البحر الذي تأتي منه الطيور. ثم صمتنا كالموتى، وجثم كلٌّ منا في حفرته على بُعد حوالي مائة ياردة من الآخر وأبصارنا شاخصة لأعلى تحدق في الظلام الدامس، وأسناننا تصطك معًا، منتظرين ذلك البرق البطيء الذي يعني بزوغ الفجر.

بعد السادسة بقليل تصاعد من فوقنا صوتٌ يشبه صرير عاصفةٍ ثانية؛ فقد هدأت العاصفة الأولى ولم تعد إلا ريح جنوبية غربية خفيفة هادئة. أدركت بخبرتي كُنْهَ هذا الصوت، ونبهت بيتر جون له. كان صوت عدة آلاف من الطيور الخواضة، طيور الدريجة والطيطوي الأحمر والطيطوي الأحمر الساق وما شابهها، تطير في مجموعات، تُصدر كل مجموعة منها صوتًا يشبه هدير موجة هائلة تصطدم بالشاطئ. ثم خيَّم الصمت مرة أخرى لفترة قصيرة، وانقشع الظلام قليلًا، واعتقدت أنه لا بد أن أتمكن من الرؤية لمسافة خمسين ياردة على الأقل. ولكني لم أتمكن من الرؤية لهذه المسافة، وعندما بدأ البط في الطيران، لم أتمكن إلا من سماع رفرفة أجنحته رغم علمي بأنه يطير على ارتفاع منخفض.

ثم حلَّ صمتٌ غريبٌ من جديد، ثم بدَا وكأنَّ العالم يتغير. كانت السحب تنقشع، ورأيت فجأةً بقعة من السماء مرصعة بالنجوم. ثُم تحوَّل لون الأفق بالكامل من الأسود الداكن إلى الرمادي، وكان اللون الرَّمادي محاطًا من جهة الشرق بهالة من الضوء الأصفر الساطع. نظرت خلفي وتمكنت من رؤية معالم الساحل المنخفض، وكانت ثمة منطقة غير واضحة كنت أعلم أنها الغابة، وكان ثمة برج كنيسة واحد يبرز بوضوح من وسط الضباب الباهت.

كان وقت انطلاق الإوز قد حان، وخلال لحظة كانوا يمرون فوقنا. كانت أسراب الإوز تصل الواحد تلو الآخر، كأشباح غير واضحة المعالم في مقابل السحب المُضاءة

بالضوء الخافت، ولكنها كانت واضحةَ المعالم تمامًا في مقابل السماء الصافية الشاسعة البنفسجية اللون. لم يكن البط يبقبق مثلما يفعل عادةً خلال رحلات الطيران المسائية من الحقول إلى البحر، بل كان يزقزق ويتحدث بصوتٍ منخفض إلى نفسه. أدركت من الصوت أنها من نوع الإوز الوردي القدمين؛ فالإوز الأبيض الجبهة يصدر صوتًا أكثر حدة. لطالما حبس هذا المشهد أنفاسي، مشهد هذا العدد الكبير من الكائنات الحية البرية تنطلق من وسط الظلام والمجهول، بنظامها الذي لا يختلُّ مثل كتيبة من الحرس الملكي. لم تراودني أبدًا الرغبة في إطلاق النار، ولم أكن أبدًا أول من يطلق النار، ولم يوقظني من سِحر هذا المشهد إلا صوت بندقية سامسون من عيار ١٢.

وفجأة أطلق أحد ذكور الإوز الكبار — وكان يقود أحد الأسراب — صيحةً. كان سامسون قد أصابه فسقط على بُعد خمس ياردات من رأسي، وتردد صدى الطلقة لأميال عبر المستنقعات. وبدأت متعتنا في تلك اللحظة. بدأت الطيور تطير على ارتفاع عالٍ نسبيًّا، وواتت بيتر جون فرصة ذهبية لصيد بعضها، ولكن لم يبدُ أن ثمةَ روحًا حيًّا في حفرته. بمجرد أن مر الإوز، وتبعه زوج من أسراب البط الصافر يطير على ارتفاعٍ عالٍ جدًّا، سرت نحو حفرته لأستطلع أحواله. فوجدت ابني يجلس على متراسه الطيني والذهول يعلو وجهه. وتلعثم قائلًا: «لم أتمكن من إطلاق النار عليها، فقد كانت رائعة الجمال. سأحضر موراج غدًا. لا أمانع صيد الإوز باستخدام صقر، فأنا أرى أنها معركة عادلة من أجل البقاء، ولكني لن أقتلها ببندقية.» احترمت ما يشعر به، ولكني اعتقدت أنه شديد التفاؤل، فهو لن يتمكن من الاقتراب منها أبدًا حتى يتعلم كيفية تقدير سرعتها.

تناولنا وجبة إفطار ضخمة، ثم أوينا إلى الفراش ونمنا أربع ساعات. بعد الغداء، خرجنا إلى الكثبان الرملية ومعنا الصقر، وهناك رأى بيتر جون طائر حجوالة. ولكنه لم يُطلِق موراج، وقال إنه من المشين أن يُطلَق طائر جارح حسن التغذية في مواجهة طيور خوَّاضة عجفاء ومرهقة طارت كامل المسافة من منطقة البلطيق. التقينا سميث في طريق عودتنا إلى النزل، وكان خرج من أجل نزهة طويلة سيرًا على الأقدام، وعرفته إلى بيتر جون. نما الإعجاب بين الاثنين على الفور، بالطريقة المعتادة التي يتبعها رجل خجول عندما يعقد صداقة مع صبي. كان سميث يعلم الكثير عن الطيور، ولكني تساءلت عن الخلفية التي استقى منها معلوماته، فقد كان مهتمًّا بالبط الشرشير والبط الصافر، وهي تُعَد من الطيور الشائعة في المناطق الساحلية، وكان في الوقت نفسه يتحدث عن طيور نادرة على غرار الدريجة الأرجوانية كما لو أنه رآها مرات كثيرة. رغم ذلك، لم يتحدث

إلينا كثيرًا، ورأيت في عينيه نفس تلك النظرة الحزينة الحذرة التي رأيتها الليلة السابقة. ولكن انفرجت أساريره فرحًا عندما اقترحت أن يأتي معنا إلى رحلة الصيد صباح اليوم التالي.

كانت جولة الصيد المسائية لهذه الليلة إخفاقًا تامًّا. فقد هدأت الرياح دون مقدمات، وزحف من أعماق المستنقعات ضبابٌ يطلق عليه الصيادون «الكثيف». جربنا جزءًا آخر من السهول الطينية على أمل أن يصفو الجو. وظل الجو صافيًا بالفعل لنصف ساعة حتى بدأت الشمس تغرب وسط هالة رائعة قرمزية مُتلألِئَة. ولكن زحف الضبابُ حولنا مجددًا بعد غروب الشمس، ولم نتمكن من رؤية أي شيء سوى ومضات بيضاء لأجنحة البط من وقت لآخر. أتى الإوز من جهة البحر في الخامسة والنصف تقريبًا، ولكن لم يكن يزقزق مثلما كان يفعل في الصباح، بل كان يصدر ضجيجًا عاليًا، ولم يكن يطير في أسراب، بل في قطيع واحد مستمر. كنا نسمع أصواته جيدًا، ولكننا لم نتمكن من رؤية أي شيء يمر من فوقنا سوى أشياء تشبه الأغطية الصوفية الرمادية. في تمام السادسة، استسلمنا وعدنا أدراجنا لتناول العشاء، بعد ذلك قرأت رواية «كنوز الملك سليمان» بصوتٍ عالٍ لبيتر جون أمام نار المدفأة، وأضفت تعليقات عليها استقيتها من مغامراتي الخاصة.

فكرت في أن الطقس يقترب من درجة التجمد وأنه لا يوجد أمل كبير في نجاح جولة صباح الغد. ولكن، لم تكن العاصفة قد مرَّت بعد، فقد استيقظت على صوت تصادم النوافذ وتساقط البرد على السقف. وجدنا سميث في انتظارنا مع سامسون، وبدَا عليه أنه مستيقظ منذ ساعات أو أنه لم ينم في الأساس، فلم تكن عيناه منتفختَين مثل عينَي بيتر جون وعينَيَّ. سرنا بصعوبة على العشب، وانحنينا لتفادي العاصفة الثلجية، وعندما وصلنا إلى الطين، كانت أيدينا قد تجمدت لدرجة أننا تمكنا بمشقة من الإمساك بجواريف الفحم. ساعد سميث، الذي لم يكن يحمل بندقية، بيتر جون في حفر «خندقه»، فقد كان الأخير يحمل موراج التي كانت تحتاج إلى بعض الانتباه. لم أرَ طائرًا من قبل أشد منها غضبًا وذلك بسبب صيحاتها الحاقدة واللمحات التي أراها في عينيها الغاضبتين اللامعتين الثاقبتين اللتين لا تثبتان.

قضينا سهرة تعسة توقَّفت خلالها الأمطار الثلجية وهدأت الريح قليلًا. كانت حفرتي بالقرب من أحد الجداول، وأتذكر جيدًا أنه عندما كان الفجر على وشك البزوغ، ظهر رأس فقمة بحرية لامع مقاوم للبلل بجواري. بعد ذلك، حدث الطقس المعتاد: أسراب الطيور الخوَّاضة التي تُصدر ضجيجًا عاليًا، وقطعان البط، ثم مع ضوء النهار الأول، أتت أسراب

الإوز، وكانت هذه المرة مكونة في أغلبها من الإوز الأبيض الجبهة. جاءت الأسراب متأخرة قليلًا عن موعدها المعتاد، فلا بد أنها وصلت بعد السابعة والنصف، وتخطت الثامنة قبل أن تمر جميعها.

ولم تصب بنادقُنا أيًّا منها. لم يُطلق سامسون أي طلقات، وعلى الرغم من أني أطلقت طلقتين على الطيور في مؤخرة السرب، فإني لم أصِب أيًّا منها. كانت الطيور على مسافة بعيدة، وكان ثمة أمر خاطئ جدًّا يتعلق بالرؤية ... كنت نهضت للتو لأنفض الطين عن حذائي الطويل الرقبة فجثمت في حفرتي مرة أخرى على الفور، فقد ظهر أمامي فجأة مشهد مذهل. وركع سميث، الذي كان يشاركني الحفرة، على ركبتَيه أيضًا.

كان بيتر جون قد أطلق موراج، وانتقت أنثى الصقر ذكرًا من بين سرب الإوز وأخَّرته عن السرب. لمع برقٌ في السماء، ورأيت الحدث بأكمله بوضوح شديد. كانت موراج تطير على ارتفاع أعلى من طريدتها لتستعد للانقضاض عليها وتقتلها، إلا أن ذكر الإوز كان قد مر بمثل هذا الموقف من قبل ويعلم جيدًا ما عليه أن يفعل. فترك نفسه يسقط كالحجر نحو الأرض حتى أصبح على ارتفاع بضع ياردات من الطين، ثم حلَّق بأقصى سرعته على هذا الارتفاع نحو الشاطئ. وعلى ارتفاع ٥٠ قدمًا أو نحوها، حافظت أنثى الصقر على مسارٍ موازٍ. وصلت موراج إلى نفس سرعة ذكر الإوز بسهولة، ولكنها لم تجرؤ على الانقضاض عليه، فإن فعلت، فقد تقتل فريستها، ولكنها في الوقت نفسه، قد تكسر رقبتها هي في اندفاعها السريع أثناء الانقضاض.

شاهدت من قبل سباقات خيول ونزالات حتى الموت مثيرة، ولكني لم أشاهد في حياتي شيئًا أكثر إثارة من رؤية نهاية هذه المنافسة. انطلق الطائران على مسافةٍ لا تتعدى عشر ياردات من يميني، وكنت قادرًا على إطلاق النار بسهولة على ذكر الإوز الأبيض الجبهة، ولكني حينئذٍ كنت سأفقد فرصة نادرة لمشاهدة حدث استثنائي. كان مشهدًا لا ناقةَ لي فيه ولا جمل، صراع بين طائرين ظل دائرًا منذ بدء الخليقة. هللت في فورة حماسي لذكر الإوز العجوز. وكذلك فعل سميث الذي كان يقف على قدميه على قمة المتراس الطيني يصرخ مثل المجاذيب، وكان بيتر جون يخوض في الوحل خلف الطائرَين المتنافسَين ...

لم يتخطَّ الحدث بأكمله دقيقةً واحدة، فقد كانت سرعة الطائرَين مذهلة، ولكن بدَا الأمر بالنسبة إليَّ وكأنه قد مرَّت عدة ساعات. استدار ذكر الإوز الأبيض الجبهة ناحية اليسار قليلًا، ثم ارتفع قليلًا إلى أعلى ليجتاز تلة صغيرة وسط العشب الكثيف، ثم ابتعد

الطائران حتى أصبحَا مجرد نقطتَين صغيرتَين في الأفق. ولكن كان الضوء جيدًا بما يكفي لنرى النهاية. وصلت النقطة السفلية إلى غابة صنوبر واختفت، ولم تتمكن النقطة العلوية من رؤية شيء وسط عتمة الأشجار. لقد تمكَّن ذكر الإوز من الوصول إلى بر الأمان. وجدت نفسي أغمغم: «أحسنت ... أوه، أحسنت!»، وكنت أعلم أن بيتر جون تنتابه المشاعر نفسها وهو يلوح للصقر.

وفجأة، تحول انتباهي إلى سميث. كان يجلس على الطين يبكي ... نعم، يبكي. اعتقدت في البداية أنه يبكي بسبب الانفعال، ولم أستغرب ذلك، ثم أدركت أن ثمة أمرًا آخر. مددت له يدي لأساعده على النهوض، فتشبث بذراعي.

وتلعثم قائلًا: «إنه في مأمن. أخبرني، هل أصبح آمنًا؟»

فقلت: «آمِن تمامًا. لا يمكن لصقر أن يفعل شيئًا لطائر داخل غابة.»

فتمسك بذراعي بقوة أكبر.

وقال باكيًا: «إنه في أمان لأنه كان متواضعًا. لقد حلَّق قريبًا من الأرض. كان متواضعًا مهيض الجناح، مثلي تمامًا. إنها رسالة من السماء.»

ثم بدا خَجِلًا من نفسه، فقد اعتذر على تصرفه بمثل هذه الحماقة. ولكنه لم يتحدث تقريبًا خلال عودتنا، وعندما نهضت من نومي لأتناول الغداء، أخبرتني السيدة بوتينجر بخبر مغادرته نُزل «روز آند كراون» ... منحني ما حدث في السهول الطينية لمحةً عن سميث. كان رجلًا مطاردًا يعيش مرتعبًا ممن يطارده ويتنقل متخفيًا. ومنحته نجاة ذكر الإوز الأبيض الجبهة أملًا، فقد كان أسلوبهما متماثلًا. وتساءلت عما إذا كنا سنلتقي مرة أخرى.

الفصل الثالث

لوح اليشم

بدأ الفصل التالي من هذه القصة في نهاية شهر مارس عندما أتت عائلة كلانرويدن لتقضي معنا عطلة نهاية أسبوع طويلة في فوسي. استقر ساندي، بعد عودته من أمريكا الجنوبية وتزوج في ليفرلو وأصبح صاحب أطيان اسكتلنديًّا، وخلال القسم الأكبر من العام، لم تكن لتتمكن من إخراجه وباربارا من معتزلهما الرائع هذا. ثم وقعت أزمة في منطقة الشرق الأدنى شعر على إثرها بأن من واجبه أن يلقي خطابًا في مجلس اللوردات، وزاد انخراطه في الشئون العامة تدريجيًّا. واستغرقت باربارا وقتًا طويلًا لتتعافى بعد ولادة ابنتها، وكان عليها أن تقضي أغلب وقتها في لندن بالقرب من الأطباء. ونتج عن ذلك أن أصبحت أنا وماري نقضي مع آل كلانرويدن وقتًا أطول. كانت ماري واحدة من الأمهات الروحيات لابنتهم، وأقامت الليدي كلانرويدن معنا في فوسي خلال أغلب الفترة التي كان ساندي يذهب فيها إلى الصين ليرأس بعثة دولية. لم يعُد ساندي من الشرق الأقصى إلا في نهاية شهر فبراير.

كانت حالة الطقس تشير إلى أن فصل الربيع سيحل مبكرًا. هطل الثلج لأسبوعين خلال شهر فبراير، فأصبحت الأرض رطبة وأينعت الأشجار، وخلال الأسبوع الأول من شهر مارس، تعرَّضنا للفحات رياح جافة آتية من الشمال الشرقي. ثم هبت علينا رياح جنوبية غربية لطيفة، ودبت الحياة في الأنحاء فجأةً. فأزهرت أشجار الخوخ الشوكي، وغزت الغربان أشجار الزان، واحمرَّت أشجار الدردار، وأصبحت مروج فوسي محاطة بأكوام ذهبية من أزهار النرجس. بعد موعد احتساء الشاي يوم الجمعة، خرجت وساندي في نزهة سيرًا على الأقدام في تلال شارواي، التي تحدها وديان أوكسفوردشير من جهة الشرق، ومن الشمال تلال خضراء مكدسة قممها الدائرية الواحدة فوق الأخرى. ومع اقتراب الغسق، اصطبغ المشهد بلون وردي ناعم مثل أزهار الخوخ، وسُمع طائر شحرور

يغرد بملء رئتَيه من داخل إحدى الشجيرات، وربط الخليط بين الصيحات الجامحة لطيور الزقزاق وثغاء الحملان الصغيرة بين ما لا يُمكِن ترويضه وما نعتمد عليه بوصفنا بشرًا من أجل راحتنا.

بدا جليًّا أن ساندي شعر بسحر المكان بينما يشم الروائح المنبعثة من الغابات والأراضي الزراعية.

فقال: «رائع. إن إنجلترا هي المكان الوحيد المريح حقًّا على سطح الأرض؛ المكان الوحيد الذي يشعر فيه المرء أنه في وطنه بكل ما تحمله الكلمة من معنًى.»

قلت: «مريحة جدًّا حقًّا. أشعر بأني أتقدم في السن ويصيبني الضعف والتراخي. أنا لا أستحق هذا المكان، ولم أنله بمجهودي.»

فضحك. وقال: «هل هذا ما تشعر به؟ هذا ما أشعر به، أيضًا، كثيرًا. ثمة أحيان تمر عليَّ في ليفرلو عندما يبدو لي أن هذا الوادي الصغير المُبارَك مثاليٌّ بدرجة لا تناسب البشر المنحطين، وأني لا أستحق العيش فيه. من حسن الحظ أنْ طُرِد آدم من الجنة، فلم يكن ليستمتعَ بها لو بقي فيها. لقد شهدت الصباح في أيام صيفية جميلًا للدرجة التي أصابتني بالاكتئاب الشديد. أعتقد ألَّا بأس بشعور مثل هذا؛ فهو يساعدك على الحفاظ على تواضعك، ويجعلك تعدد النعم التي حباك الله بها.»

قلت: «لا أعتقد ذلك. لا يفيدك أن تعدد نعمك إذا كنت تشعر بأنك لا تستحقها.»

«أوه، نحن نستحقها. فقد مر كلانا بالكثير. ولكن لا يوجد ما يُسمَّى بالحق المطلق. فلا بد أن نسعى لننالَه.»

«ولكننا لا نفعل. أنا على الأقل لا أفعل. أنا غارق في الدَّعَة ... منعَّم في الترف، مثل رجل مسترخٍ في حمامٍ دافئ.»

«لا بأس في ذلك شريطة أن تكون مستعدًّا لتحمل السطل البارد عندما يُلقَى عليك. هكذا أرى الأمور من وجهة نظري على الأقل. استمتع بأوقاتك المترفة، ولكن لا تتعلق بها. وستستمتع بهذه الأوقات أكثر بكثير إذا ما نظرت إليها من نفس وجهة النظر تلك، فإنك لن تستخف بها أبدًا.»

لم نتحدث كثيرًا في طريق عودتنا إلى المنزل، فقد كنت أمعن التفكير فيما قاله ساندي وأتساءل عما إذا كنت سأكتسب تلك الحكمة التي أسعى لاكتسابها عندما يتقدم بي العمر. ولكن تكمن المشكلة في أني لا أعرف إذا ما كنت على استعداد للتخلي عن حياتي المترفة. سيفعل ساندي ذلك، فلطالما كان يسمع النصائح، أما أنا فلا أفعل.

كان ساندي في أفضل حالاته المزاجية تلك الليلة على العشاء. حتى العام الماضي فقط، لم يكن قد سافر شرقًا لأبعد من الهند، ولكنه كان يحفظ الشرق الأدنى والشرق الأوسط عن ظهر قلب، وكان لديه الكثير من التجارب الجديدة. كان من النادر أن يتحدث عن السياسة، فلم يذكر شيئًا عن عمل البعثة التي يرأسها، ولكنه استرسل في الحديث عن كل نزوات وغرائب رحلاته. لا تصلح المغامرات إلا للمغامرين، وكان لديه معارف كُثُر لدرجة أنه أينما ذهب، فمن المؤكد أن يعيد التواصل مع أحد معارفه القدامى. وكان لديه أمر ليخبرني به عن أصدقائنا المشتركين الذين لم أرهم منذ فترة طويلة، والذين جرفتهم لنا أمواج الماضي مثل خشب طافٍ انتهى به المطاف على شواطئ غريبة.

سألني ساندي: «هل تذكر رجلًا يُدعى هارالدسن؟»

قلت: «نعم. كنت أعرف رجلًا يُدعى هارالدسن، دنماركي. ماريوس إلياسر هارالدسن.»

فأومأ برأسه أن نعم. وقال: «هو بعينه.»

كان من الغريب أن أسمع هذا الاسم يُنطق، فرغم أنه لم يمر بخاطري منذ سنوات، تذكرته مؤخرًا، فقد كان على صلةٍ ما بلومبارد.

«لم أره منذ ربع قرن، وكان مسنًّا حينئذٍ. كيف حاله؟ هل التقيته مصادفةً؟»

«لا. لقد مات. ولكني تعرفت إليه في نهاية الحرب، واستمرت علاقتنا لما بعدها. لدي أمر أريد إخبارك به بشأن هارالدسن، وأمر أريد أن أريك إياه.»

بعد العشاء، جلسنا حول المدفأة في غرفة المكتبة، وصعد ساندي إلى غرفته وعاد حاملًا شيئًا صغيرًا مسطَّحًا ملفوفًا في جلد الشمواه. وقال: «بادئ ذي بدء يا ديك، ماذا تتذكر عن هارالدسن؟»

كنت أتذكر جيدًا أمورًا كثيرة، خاصةً القصة التي شارك فيها لومبارد. ولكن، نظرًا إلى أني كنت أتوق لسماع ما يريد ساندي قوله، فلم أقل إلا أني تعرفت عليه في روديسيا وكان مجرد مضارب محظوظ في عروض التنقيب عن الذهب. لقد قضى وقتًا طويلًا في جنوب أفريقيا، ويُشاع أنه جنى مالًا وفيرًا خلال الأيام الأولى للعمل في راند. ولكنه كان دائم البحث عن مجالات جديدة، وربما تخلى عن بعضها خلال مغامراته في روديسيا. كان آخر لقاء بيننا عندما كان يستكشف شمال نهر الزامبيزي، وكان يعمل تحت إمرته دزينة من المنقبين في ثنية نهر كافو.

قال ساندي: «نعم. هذا هو هارالدسن. دعني أخبرك بالمزيد عنه. كان مُنقِّبًا محترفًا عن الذهب من طراز رفيع، فكان كما لو أنه يشم رائحة الذهب، وكان يملك صبرًا كصبر

بوذا. ولكنه لم يكن صياد كنوز عادي، فقد كان يضع نصب عينيه هدفًا لا يحيد عنه أبدًا. كان دنماركيًّا، كما قلت، من يوتلاند، وتربي ليصبح مهندس تعدين. كما أنه كان خبيرًا رائعًا بالمعادن. ولكنه كان أيضًا، وفي المقام الأول، شاعرًا. كانت فترة شبابه قبل تلك الفترة التي انتشر فيها ذلك الهراء عن سيادة شعوب الشمال، ولكنه كان مقتنعًا بفكرة أن ثقافة شعوب الشمال قدمت للحضارة مساهمات لا تقل عظمةً عن مساهمات الإغريق والرومان، وأن الشعب الإسكندنافي مُقدَّرٌ له أن يكون القائد الحقيقي للقارة الأوروبية. كان يحفظ تاريخ شعوب الشمال عن ظهر قلب، ولم أرَ أحدًا يعرف ملاحمهم البطولية أكثر منه، وأنا مؤهل للحكم على ذلك، فأنا أعرفها حق المعرفة أيضًا. وكانت لديه رؤيةً تتعلق بإعادة إحياء الشمال العظيم، عندما تعود روح هارالد فيرهير إلى الحياة في النرويج، ويولد كلٌّ من جوستافوس أدولفوس وتشارلز الثاني عشر من جديد في السويد، وكذلك فالديمار المنتصر في الدنمارك. لا يعني ذلك أنه أراد أي فتوحات أو اتحادات — فلم يكن مهتمًّا بالسياسة، كان تصوره للأمر هو إعادة إحياء فكر شعوب الشمال، أو إقامة نهضة الشمال تحت قيادته. ربما تذكر كم كان عنيفًا عندما يتعلق الأمر بأي مسألة تمس صالح الناس، وكم يكون هادئًا ووديعًا في بعض الأحيان إذا ما تعاملت معه بالطريقة المناسبة.»

لا شك في أني تذكرت تلك المرة عندما تحدث إليَّ هارالدسن عن منزل يبنيه على جزيرةٍ صغيرة في مكان ما في الشمال، وكان متحمسًا للأمر مثل صبي صغير. فقد كان يُنظَر إليه على أنه من أبناء الجزيرة المخلصين.

«حسنًا، من أجل تحقيق غايته، كان يحتاج إلى المال، وكان من الصعب الحصول على المال إذا ما بقي في الوطن. فبدأ السعي، مثل راعية الإوز في رواية هانس أندرسن، بحثًا عن جمع ثروة؛ ثروة كبيرة جدًّا، فكان ثمة الكثير الذي يريد فعله بها. وانحرف مساره بشكلٍ ما، فتوجه إلى مصر، وكان من بين المنقبين الذين أرسلهم الخديوي إسماعيل إلى السودان بحثًا عن الذهب. لا بد أنه كان في بداية العشرينيات من عمره حينئذٍ. ثم اتجه جنوبًا عبر الحبشة ومدغشقر حتى وصل إلى موزمبيق حيث بدأ البحث عن مناجم ذهب ملكة سبأ.

لقد أضاع زمنًا طويلًا في هذا المجال العقيم، وكاد أن يتعرض لنحر عنقه أكثر من مرة، ثم حالفه الحظ بالعمل في مقاطعة راند مع بداية أعمال التنقيب. وأبلى بلاءً حسنًا لأبعد حدٍّ ممكن، ولكنه لم يرضَ بذلك. فكان لا يزال يبحث عن منجمه الغني الخاص.

فاتجه شمالًا إلى داخل روديسيا، حيث التقيتَه أنت، واستمر شمالًا حتى وصل إلى شرق الكونغو. ثم قرر أنه حصل على كفايته من أفريقيا، وأنه سيجرب حظه في آسيا.»

قلت: «ذهب إلى آسيا إذن. البطل العجوز! عندما تعرفت إليه، كان قد أوشك على الستين من عمره.»

«أعلم هذا. كان صُلبًا مثل شخصيات حكاياته. لقد مر بمغامرات كثيرة رائعة في آسيا؛ خاصةً في سيبيريا وفي الدولة التي تطل على بحر قزوين من الجنوب. عندما التقيته مصادفةً في بلاد فارس في بداية ١٩١٨، كانت حالُه سيئة جدًّا. هل تذكر كم كان ضخمًا، بذراعيه الطويلتين الهائلتين وكتفيه العريضتين؟ عندما التقيته، لم يكن سوى لحم على عظم، وكانت ملابسه معلقة على جسمه كما لو كانت أسمالًا باليةً معلقة على دعامة فزاعة. ولكنه لم يكن مريضًا، بل كان نحيلًا بدرجة مخيفة، ولم يكن استسلم بعد. كان لا يزال يبحث عن مدينة أوفير الخاصة به (مدينة ذُكِرت في الكتاب المقدس كان الملك سليمان يتسلم منها شحنة كل ثلاث سنوات تتكون من الذهب والفضة، إلخ ...)»

قاطعته قائلًا: «لا بد أنك التقيته أثناء الحرب. كيف سُمِح له أن يتجول بحرية في هذه الأنحاء؟»

«لم يُسمَح له بذلك. لقد ذهب إلى هناك فحسب، كان ثمة عددٌ من المتحررين المجهولين المتسربين إلى مناطق الحرب أكبر بكثير مما تخيل الناس حينئذٍ. كما تعلم، كان رجلًا مسنًّا نبيلًا مثيرًا للإعجاب، وكان يملك المال، ويعلم أساليب الحياة ... جميعها، على كثرتها. كما أنه كان يرتحل بأناقة مصطحبًا خدمًا وطاهيًا جيدًا وحارسًا مسلحًا يخشاه أكثر مما يخشى أي أعداء محتملين. لم يكن رجلَ أعمال من فراغ. قضيت حوالي أسبوع في معيته، وذات صباحٍ رطب، بينما كنا نأكل التوت الأبيض معًا في الحديقة، أخبرني بكل شيء عن نفسه. كان يتحدث إليَّ دون قيود، فقد كنا رجلَين متحضرَين يجلسان وحيدَين وسط البراري، وكان معجبًا بي، فقد كنت أعرف جميع ملاحمه المقدسة. كيف أبهرك يا ديك، عندما كنت تعرفه؟»

«كنت معجبًا به، جميعنا فعل، ولكننا كنا متحيرين مما يسعى إليه. كنا نعتقد أنه من الأفضل لأحد زعماء راند تخطى خمسين عامًا بعدة سنوات أن يذهب للاستمتاع بالحياة في أوروبا بدلًا من التنقيب عن المعادن وسط الأحراش. كان متمكنًا جدًّا وكان يدير فريقه ببراعة. كان يجدر بك أن تستيقظ مبكرًا جدًّا لتسبق هارالدسن العجوز.»

قال ساندي: «لا بد أن كل هذا تغير قبل أن ألتقيه. في أفريقيا، عليك أن تبذل قصارى جهدك لتمنع المادة من السيطرة على عقلك، ولكن، في آسيا، تكمن المشكلة في أن تُبقي

عقلك على صلة معقولة مع المادة. وكان هارالدسن، عندما كنت أعرفه، صوفيًّا وساعيًا للثراء في الوقت نفسه. أخبرني عن حياته الماضية كما لو كانت شيئًا بعيدًا لا يمت له بصلة. وأتذكر أني ذكرت اسمك، وتذكرك بالفعل، ولكن لم يبدُ عليه أنه مهتم كثيرًا بأي شيء حدث في أفريقيا. كان لديه ابن في مكان ما في أوروبا، ولكنه لم يذكر الكثير عنه، كما أن لديه بيتًا، ولكنه لم يخبرني أبدًا أين يوجد. كان كل ما يشغل تفكيره هو ذلك الكنز الذي سيعثر عليه ذات يوم، والذي ظلَّ ينتظره منذ بدء الخليقة. استنبطت أنه رجل ثري، وأنه لم يكن يسعى لتحقيق الثراء. أخبرني عن أحلامه لمستقبل شعوب الشمال، ولكنها بدت وكأنها تكرار لدرسٍ سمعته سابقًا. وفي واقع الأمر، أصبح عثوره على مدينة أوفير الخاصة به غايةً في حد ذاته، بغض النظر عن الفائدة التي ستعود عليه منها. قد تجد هذا الهوس أحيانًا لدى رجالٍ مُسنِّين عاشوا حياةً شاقة. يصبحون أحاديِّي الهوس.»

سألته: «هل عثر عليها؟»

«ليس في بلاد فارس. ولم تكن منطقة الشرق الأوسط مناسبة في ذلك الوقت للتنقيب عن الكنوز. يجب أن تدرك أن هارالدسن لم يكن ينقب عن الذهب اعتباطًا. فقد كان يتبع خطة، وكان يراعي أن تُنظم بياناته بدقة لا تقل عن دقة أي جهاز مخابرات. كان يتتبع ما وصل إليه من آثار مجموعة كبيرة ممن سبقوه، الذين جُمِعت أدلتُهم وحُلِّلت ... كان يقتفي، بصورة رئيسية، آثار طرق القوافل القديمة التي كان يعلم أن الذهب نُقِل عبرها. ولكنه فشل في بلاد فارس، بعد ذلك سمعت أنه كان في شينجيانج ... المنطقة التي كان يُطلق عليها اسم تركستان الصينية. كنت في الهند حينئذٍ، أراقب الوضع في وسط آسيا عن كثب، وسبب لي صديقي القديم هذا كمًّا كبيرًا من المشكلات. كان قد دخل مدينة كاشجر، وذقنا الأمَرَّين حتى تمكنَّا من إخراجه منها. كانت شينجيانج في ذلك الوقت ساحة حرب دائرة بين الحكام الوطنيين المسلمين والمبعوثين السوفييت، ولم يكن ثمة أحد يسعى لإحلال السلام بينهم سوى بعض المسئولين الصينيين الضعفاء والجيش الصيني المهلهل. رغم ذلك، أجريت ترتيبات في النهاية ليأتي إلى الهند، وكنت أتطلع إلى استقباله في مدينة شيملا عندما أتت لنا أخبار مفادها أن الدونجان قد انتصروا، وأن الحامية العسكرية والأجانب قد طُرِدوا وأنهم يفرون شرقًا نحو الصين. تأكدت حينئذٍ أن أمر هارالدسن قد انتهى. فمن المستحيل أن يتمكن من قطع مسافة ألفَي ميل في الصحراء التي تفصل بين شينجيانج والصين. وكتبت في مفكرتي عن حماقة صيد الكنوز.»

غمغمت قائلًا: «يا للمسكين! إنها النهاية الحتمية المقدرة له.»

فقال ساندي: «هذه لم تكن نهايته. حدث ذلك منذ اثني عشر عامًا. مات هارالدسن بالفعل، ولكنه عاش عشر سنوات كاملة بعدما خرج من شينجيانج. لا بد أنه كان في الثمانين من عمره عندما مات، ما يعني أنه تمكَّن من إدارة أمواله بطريقة لا بأس بها. علاوة على ذلك، لقد عثر على مدينة أوفير الخاصة به.»

سألته منفعلًا: «كيف عرفت ذلك؟»

«إنها قصة غريبة»، قالها ساندي ثم أخرج الشيء الذي في يده من لِفافة جلد الشمواه. كان الشيء عبارة عن لوح تبلغ مساحته حوالي ثماني بوصات في ست بوصات، وكان أروع حجر يشم زمردي رأته عيناي. أعطى ساندي اللوح إلى ماري التي أعطتني إياه. رأيت أن جانبَيه مغطيان بنقوش متشابكة، وإن كانت هذه النقوش لغةً معروفة، فلا شك في أنها لغة أجهلها تمامًا. وأبدت ماري، التي تحب جميع أنواع الجواهر، إعجابها الشديد بجمال اللوح.

فقال ساندي: «حصلت على هذا اللوح في بِكين. كانت ثمة أوقات لم نكن خلالها منشغلين جدًّا، وكانت هوايتي خلال تلك الأوقات أن أنقِّب في أنحاء المدينة خلال فترة العصر في أيام الخريف القارسة المشمسة. كان ثمة متجر للسلع المستعملة بالقرب من إحدى بوابات تينج كنت قد عقدت صداقة مع مالكه. كان رجلًا مسلمًا مسنًّا من قانسو تمكنت من تعلم التحدث بلغته، وكان متجره يحتوي أشياء تُعرِّفك بكل أنحاء آسيا وكل عصورها. ففي مدخل المتجر، الذي كان مفتوحًا على الشارع، كانت ثمة كومة هائلة من السروج والسجاجيد والمحفات والأقواس والسهام وأنواع مختلفة من فراء الحيوانات، وكذلك كائنات حية صغيرة على غرار صقور الصحراء الحمراء موضوعة في أقفاص من الخيزران. وكلما تعمقت أكثر داخل المتجر، قلَّت أحجام المعروضات وزادت قيمتها، أشياء على غرار العكاكيز المنحوتة برسومات رائعة، والسيوف المصنوعة من الصُّلب الدمشقي، وقبعات الماندرين، وأثاث المعابد، وجميع أنواع الطلاءات. كما كانت ثمة بعض المعروضات الأجنبية، مثل ساعة جد إنجليزية تقليدية تحمل وسم «لندن، ١٧٨٢.» وفي مؤخرة المتجر، يوجد المزار الداخلي الذي لن يسمح لك الرجل المسن بدخوله إلا بعدما يعرف كل شيء عنك. حمل هذا المزار رائحة الأخشاب العطرية والتوابل وتراب العصور، وكان من الصعب التحرك في داخله من دون ضوء عدا الضوء المنبعث من المصباح الأخضر الصغير الذي يحمله المالك. وُضعت في هذا المكان جميع الأشياء الثمينة الصغيرة الحجم، بعضها وضع على أرفف، وبعضها وضع في خزانات مقفلة، وبعضها في صناديق خشبية

رخيصة مصقولة. وكان ثمة كل شيء، من أحجار الفيروز البوتاني إلى أزرار الماندرين ذات الياقوت المعيب، ومن أكواب الخزف الأخضر إلى أوعية مينج، ومن أمشاط شعب المانشو العاجية إلى صناديق النشوق المصنوعة من العقيق. كنت أبحث عن هدية من أجل باربارا عندما عثرت على هذا اللوح.

لطالما أعجبني حجر اليشم الجيد، وحتى في تلك العتمة، رأيت أنه قطعة فنية جميلة. وسمح لي صديقي المسن بأن آخذه إلى مقدمة المتجر لأتفحصه في الضوء، وتبددت أي شكوك راودتني عنه. كان قطعة رائعة من حجر إمبراطوري حقيقي، فكان يحمل اللون المميز لظهر طائر الرفراف. وكما ترى، أحدُ جانبيه مغطًّى بكتابات هيروغليفية لا يمكنني قراءتها. ويحمل الجانب الآخر أيضًا نقوشًا اعتقدت للوهلة الأولى أنها من اللغة الغريبة نفسها. سألت صاحب المتجر عما تعنيه هذه الكتابات، ولكنه هز رأسه. وقال إنه يعتقد أنها لغة كهنوتية ما كان يستخدمها الرهبان عند حدود التبت.

أعجبتني هذه القطعة الفنية جدًّا، وقضينا قسمًا كبيرًا من عصر ذلك اليوم في المساومة حول سعرها. وفي نهاية المطاف، حصلت عليها بسعر معقول؛ أي سعر معقول بالنسبة إلى حجر اليشم الذي يحافظ على قيمته في الصين وإن فقدها كل شيء آخر. أعتقد أن السبب الوحيد لعدم بيعه هو حجمه الذي جعله غير مناسب للتزين به، وربما أيضًا بسبب النقوش المنحوتة عليه التي جعلت من صياغته في هيئة حلية عادية أمرًا صعبًا. لم يكن الرجل المسن واثقًا من منشأه. طبقًا لنوعية الحجر، اعتقد الرجل أن منشأه لا بد أن يكون في سيبيريا، من منطقة بحيرة بيقال، ولكنه كان واثقًا في الوقت نفسه من أن النقوش المحفورة عليه تعود إلى الركن الجنوبي الغربي من الصين. ورغم أنه لم يتمكن من قراءتها، فقد قال إن الحروف مألوفة بالنسبة إليه.

في تلك الليلة بينما كنت في غرفتي في الفندق، فحصت الحجر تحت ضوء مصباح قوي، وتلقيت المفاجأة الكبرى في حياتي. كانت الحروف على أحد الجانبين مجهولة تمامًا بالنسبة إليَّ، ولم أتمكن من فهم شيء منها. ولكن على الجانب الآخر، كانت الأسطر القليلة المحفورة مفهومة تمامًا. فقد كانت عبارة عن جملة مكتوبة باللغة اللاتينية، اسم مكان وتاريخ. كانت الجملة اللاتينية تعني: «ماريوس هارالدسن الذي كان على حافة الهلاك، والذي طار من الفرح عندما عثر على كنزه، هو من كتب هذه الكلمات.» كان اسم المكان هو جوتوك. والتاريخ هو الخامس عشر من أكتوبر السنة قبل الماضية. ما رأيك فيما قصصته عليك؟»

نظرت إلى اللوح الأخضر نصف الشفاف الذي أيقظت فيه نار المدفأة بريقًا ذهبيًّا رائعًا مائلًا إلى الأحمر الداكن. ورأيت على أحد جانبَيه الكتابات المتشابكة، وعلى جانبه الآخر الكلمات اللاتينية، والتي لم تكن محفورة بدقة كبيرة، ربما بسكين جيب. بدا لي أنه من الرائع أن تصلني على حين غرة أخبار عن صديق قديم في مكان يبعد أربعة آلاف ميل عن مكان تعارُفنا. أمسكت باللوح في إجلال ثم أعدته إلى ساندي. وسألته: «ماذا تستنتج من هذه الكلمات؟»

قال: «أعتقد أن الأمر بسيط. كان أول ما فعلته في صباح اليوم التالي هو أن عدت إلى الرجل المسن لأكتشف كيفية حصوله على اللوح. ولكنه لم يتمكن مِن تذكُّر أي شيء. وصل إليه اللوح ضمن أشياء أخرى؛ فهو دائمًا ما تصل إليه شحنات، عثرت عليها إحدى القوافل؛ أو ربما يكون قد اشتراه من بائع متجول أو لص. بعد ذلك، توجهت إلى السفارة، وساعدني أحد موظفي السكرتارية في البحث عن جوتوك. وعثرنا على موقعه بعد برهة في فهرس جغرافي روسي نُشر قبل الحرب. كان جوتوك عبارة عن مكان صغير في مقاطعة شو-سان حيث ينقسم فيه أحد الطرق التجارية المتجهة إلى بورما. وفي الماضي، كانت المسافة بينه وبين شنغهاي تستغرق من الرجل النشيط الذي يملك العتاد المناسب حوالي شهر.»

سألته: «هل ستذهب إلى هناك؟»

«لا لست أنا. فأنا لا أهتم بالكنز مطلقًا. ولكني أعتقد أنه يمكننا أن نعرف يقينًا ما حدث له. لقد عثر هارالدسن على مدينة أوفير الخاصة به — والله وحده يعلم كُنْهَها — ربما كانت منجمًا قديمًا، أو شيئًا من هذا القبيل، على أي حال، لا بد أن ما وجده كنزٌ حقيقي؛ فهو واسع المعرفة والخبرة ولا يمكن أن يخطِئه. ولكنه اكتشف أيضًا أنه يُحتضَر. ولم تكن جوتوك في ذلك الوقت مركزًا للنقل. وربما أرسل خطابات ولكنه لم تكن لديه وسيلة ليتأكد من وصولها إلى وجهتها. فقد كان هذا الركن من قارة آسيا منذ عامَين مرتعًا لقطاع الطرق والعصابات. فلجأ إلى تلك الخطة الصائبة: أن يكتب باللاتينية الركيكة على قطعة جميلة من حجر اليشم على أمل أنها قد تصل، إن عاجلًا أو آجلًا، إلى يد شخص يمكنه تفسيرها ويوصل إلى أصدقائه خبرًا عن مصيره. وربما أوكل مهمة حماية اللوح إلى أحد خدمه، الذي سُرِق أو قُتِل، ولكنه كان يدرك أن حجر اليشم ثمين ولن يختفي، وكان على يقين تام من أنه قد يسافر شرقًا ويظهر في أحد متاجر التحف المستعملة في بكين أو شنغهاي. كانت تلك طريقته في التعامل مع الأمور، فقد كان مؤمنًا بالقدر، وكان يترك الكثير من الأمور لتصاريفه.»

قلت: «نعم، هكذا كان ذلك العجوز. لقد انتصر إذن. كنا أنا وأنت صديقَيه، وأصبحنا نعلم متى وأين وافته المنية، وأنه عثر على ما كان يبحث عنه. كان سيَوَدُّ أن نعرف ما حدث في القسم الأخير من حياته، فلم يكن ممن يقبلون الهزيمة. ولكن، لم يفده كنزه أو شعوب الشمال كثيرًا. لقد عاد ليُطمَر مجددًا إلى الأبد هذه المرة.»

قال ساندي: «لا أعتقد ذلك. أنا واثق من أن تلك الكتابات المتشابكة على الجانب الآخر من اللوح ما هي إلا وصف لكيفية الوصول إليه. لقد كُتِبت في نفس وقت كتابة الكلمات اللاتينية، إما بيد هارالدسن نفسه أو الأرجح أنها كتبت بيد أحد مساعديه الصينيين. لا يمكنني قراءتها، ولكني أتوقع أني قادر على العثور على من يمكنه قراءتها، وأنا على استعداد لأن أراهن على أننا إذا ما تمكنَّا من ترجمتها، فسنعلم ما اكتشفه هارالدسن. أنت عاطل عن العمل يا ديك. لمَ لا تشغل نفسك قليلًا وتحاول حل هذا اللغز؟»

قلت: «أنا عجوز جدًّا، وكسول جدًّا.»

ثم أمسكت اللوح بين يدي مرة أخرى وتفحصته. انتابني شعور غريب عندما نظرت إلى هذا الدليل الأخير من صديقي القديم، وعندما تخيلت الظروف التي دفعت صاحبه إلى حفر تلك النقوش عليه في وادٍ جبلي ناءٍ ملعون، والتفكير في تقلُّبات الدهر التي مر بها حتى وصل إلى متجر السلع المستعملة في بكين. فالله وحده يعلم الدماء التي سُفِكت والدموع التي سُكِبت على طول الطريق الذي قطعه هذا اللوح. وشعرت أنا أيضًا — لا أعلم السبب — بأن ثمة أمرًا يتعلق بي؛ أمرًا يتعلق بي أكثر من ساندي بكثير. نظرت إلى مكتبتي التي تسر الناظرين مع انعكاس ضوء النار على الجدران المزدانة بصفوف من الكتب، وبدت وكأن تفاصيلها تتلاشى وتتحول تدريجيًّا إلى الأحراش التي التقيت فيها هارالدسن للمرة الأولى، ورأيته مجددًا بلحيته الرمادية المصفرة وحديثه البطيء القاطع. ورأيته في مخيلتي كما أتذكره تمامًا، يقف تحت ضوء القمر الأفريقي يلزمني بعهد لم أتذكره طوال عشرين عامًا.

قلت لساندي: «إن لم تكن تشعر بالنعاس، فسأحكي لك قصة عن هارالدسن.»

فقال ساندي بينما يشعل غليونه: «احكِ.» كان ساندي وماري أفضل مستمعين عرفتهما في حياتي، فقد جلسا حتى ساعات الصباح الأولى موليان انتباههما الكامل للحكاية التي سأقصها في الفصل الآتي.

الفصل الرابع

هارالدسن

خلال السنوات الأولى من القرن الحالي، كانت الأراضي شمالي نهر ليمبوبو، وما زالت، مكانًا مثيرًا للعيش فيه. استمررنا، نحن الروديسيين، في ممارسة أنشطتنا اليومية، من تنقيب وتعدين، وتجربة أصناف جديدة من الفاكهة والتبغ، وجازف الكثير منا بالذهاب إلى أجزاء غير مطروقة من البلاد. إلا أن الإثارة بأكملها لم تكن تقع أمامنا؛ فقد أتى بعضها من خلفنا. فقد انهمر علينا من مقاطعة راند ومن كيبتاون وافدون غريبو الأطوار كان على الشرطة أن تراقبهم عن كثب، وأصبحت إنجلترا ترسل إلينا بعض أبناء الطبقة الراقية البيض من حين لآخر. كانت البلاد لا تزال في نظر الكثيرين منطقة متنازع عليها لا تسري في داخلها الأوامر الملكية؛ ومن ثَم أصبحت نقطة انطلاق لجميع الجامحين الآتِين من الشمال. خلال رحلاتي من البلاد وإليها كنت أصادف مجموعات صغيرة غريبة الأطوار من البشر، وعادةً ما كنا نجدهم في أسوأ حال، ويبدو عليهم أنهم مُطارَدون، وكانوا يرفضون بشدة إعطاء أي معلومات عن أنفسهم. والله وحده يعلم ما حل بهم. كنا نُكلف في بعض الأحيان بمهمة إطعام أحد المتشردين يتضوَّر جوعًا، ونساعده على العودة إلى الحياة المتحضرة، ولكن عادةً ما كانوا يختفون بلا أثر وتنقطع أخبارهم. ربما اختلط بعضهم بعامة الشعب وانتهى بهم المطاف كفقراء بيض يسكنون أكواخًا قذرة في إحدى قرى السود. وربما مات البعض الآخر من الحُمَّى، أو هلكوا تعساء من الجوع أو العطش، أو ضلوا طريقهم في غابات روديسيا التي لا يجدر بأحد الاستخفاف بها. وإذا ما سرت في غابات نهر الزمبيزي الأوسط، ووديان الجرف العظيم، ومستنقعات نهرَي مازوي وروينيا، فلا مفر من أن ترى الكثير من أكوام العظام التي عفَّى عليها الزمن.

كنت قد عدت من رحلة إلى شرق أفريقيا، وسعدت في بولاوايو بلقاء لومبارد الذي صادقته في الوادي المتصدع. كان قد انتهى من عمله مع بعثته، وكان في طريق عودته إلى

الوطن، وأراد أن يزور جنوب أفريقيا في طريقه. وكان قد سافر عبر البحر من مومباسا إلى بييرا، وكان ينوي قضاء بضعة أيام في مبنى الحكومة. عندما التقاني، كان يتوق إلى الذهاب في رحلة، فقد كان يملك وقتَ فراغٍ عدة أسابيع، ونظرًا إلى أني كنت ذاهبًا في رحلة إلى المناطق الداخلية من البلاد، عرض عليَّ أن يصحبني. أرادت مني شركتي أن أفحص بعض الدلائل على وجود النحاس في مانيكالاند، شمالي نهر البونجو الأعلى في وادي ماكابان. كان لومبارد يريد أن يرى الأرض الرائعة حيث ينبسط الجبل والهضبة ليصبحا سهول نهر الزمبيزي، كما كان يأمل أن يمارس الصيد ولو قليلًا، فلم يكن يحظى بوقت فراغ في وظيفته في شرق أفريقيا. كنت أعلم أن رحلتي ستكون مملة، فرحبت بصحبة لومبارد مغتبطًا، فبالنسبة إلى شخص بسيط مثلي، كان حديث لومبارد بمثابة طريقة لفتح عينَيَّ على عوالم جديدة.

وعندما وصلنا إلى سالزبري، قابلنا مجموعةً غريبةً من البشر. كانت المجموعة مكونة من أربعة أشخاص؛ كهل، وشاب، وامرأتين. كان الكهل يبدو وكأنه تخطى الخمسين بقليل، وكان رجلًا ضخمًا، ذا وجه مربع وشارب مصفف على طراز الفرسان وضحكة صاخبة. كنت سأعتقد أنه كان جنديًّا لولا كتفَاه المتهدِّلتان اللتان تدلان على أنه كان يعيش حياة غير نشيطة على مدار حياته. كان يتحدث بصفته إنجليزيًّا مثقفًا، وخمنت أنه من لندن، فقد كانت كلماته مبتورة وغير واضحة بهذه الطريقة الغامضة التي تميز أبناء العاصمة الأصلاء. وخمنت أن الرجل الأصغر سنًّا أمريكي من لكنته، ولم أحبه منذ وقعت عيناي عليه. فقد كان دائم الابتسام لمن يتحدث إليه والربت عليه، يتظاهر بالطيبة، إذا صحَّ تخميني، إلا أن عينَيه الرماديتين الباردتين الماكرتين لم تبتسمَا أبدًا. لم نكن نهتم بمظهرنا في روديسيا، وكانت ملابس هذين الرجلين لافتة للنظر من فرط أناقتها. كانا يرتديان قميصَين مفصلين ببراعة، وياقتين من الكتان الناعم، وكانت الياقات ابتكارًا جديدًا حينئذٍ، وحذائين رائعين من جلد الغزال. لم يكن نمط زيِّهما صارخًا فعليًّا، ولكنه كان غريبًا، رغم أنه كان عاديًّا، ولا شك، في بورنموث. حتى لومبارد الذي كان أنيق الملبس دائمًا، بدا رثَّ الهيئة مقارنةً بهما.

بدت المرأتان كطائرين من طيور الجنة. كانتا شابتين، وجميلتين إلى حدٍّ بعيد، وكانتا تضعان الكثير من أحمر الشفاه ومساحيق التجميل، وتساءلت عما سيبدو عليه وجهاهما إذا ما لوحتهما شمس أفريقيا. كانتا ترتديان ملابس تصلح للحفلات التي تقام في الحدائق، وفي المساء ارتدتا فستانين منفوشين يصلحان لحفلات الشاي. وبدا عليهما

أنهما من طبقة اجتماعية أقل من الرجلين بصحبتهما، فقد كانتا تتحدثان بصوتٍ سوقيٍّ عالٍ ولكنة الطبقة العاملة في لندن. بدا جليًّا أن الجماعة تملك الكثير من المال لإنفاقه. فقد أحدثوا جلبة كبيرة بسبب الطعام الذي كان مكوَّنًا من المعلبات العادية ولحم ثيران الجر، ولكنهم كانوا يشربون الشمبانيا مع جميع وجباتهم، ولم تكن الشمبانيا مشروبًا رخيصًا في سالزبري.

لم أتحدث مع أيٍّ منهم عدا الرجل الأصغر سنًّا. كان أسلوبه متحضرًا جدًّا وكثير الأسئلة، ولا سيما بعدما أعد مشروبًا من أجلي زعم أنه من اختراعه. وقال إنه وأصدقاءه حضروا إلى روديسيا ليروا القضية الروديسية رأي العين، وليقيِّموا أي نوع من الرجال كان الراحل سيسيل رودز. ولكنهم لن يطيلوا المكوث، فقد رأى أنهم سيعودون إلى الوطن في أقرب وقت. كان يتحدث بلهجة أمريكية صحيحة، ولكني خمنت أنها ليست لغته الأم، وتأكد تخميني عندما أدركت أنه دنماركي الأصل يحمل اسم ألبينوس، وقضى بضعة أعوام في الولايات المتحدة. كان أن ذكر مونتانا، وحاولت أن أحمله على الحديث عن النحاس، ولكنه لم يُبدِ أي اهتمام بالموضوع. ولكن بدَا مطلعًا بشكل جيد على أجزاء روديسيا، فقد طرح عليَّ أسئلةً عن الركن الشمالي الشرقي منها الذي لا يعرفه كثيرون، ما أظهر لي أنه قد اطلع على بعضٍ من تضاريسها.

تحدث لومبارد إلى الرجل الأكبر سنًّا، ولكنه لم يعرف أي معلومات عنه سوى أنه إنجليزي يقضي عطلته. قال لومبارد: «إنهم مجموعة متنزهِين سوقيِّين من العامة. ربما فازوا بجائزة يانصيب كبيرة أو ربما حالفهم الحظ بالرهان على الأسهم الرابحة، ولا يريدون الآن سوى المرح. الغريب في الأمر أني أعتقد أن الرجل الأكبر سنًّا يحاول أن يبدو أكثر سوقية مما هو عليه في الحقيقة. فهو يتحدث كرجل نبيل عندما لا يكون منتبهًا. أما المرأتان! فهما من ذلك الصنف المعروف أزلًا؛ فتيات للتسلية، رفيقات سفر مأجورات. المجموعة بأكملها تبدو غير متوافقة مع المكان وتتعارض مع البيئة الطبيعية النقية من حولهم.»

كنا سننطلق فجر اليوم التالي. وقبل أن آوي إلى فراشي، توجهت نحو الحانة لأتناول مشروبًا، وهناك التقيت شرطيًّا من معارفي؛ جيم أركول، وكان اسمًا شهيرًا في منطقة شمال نهر فال بالكامل. لم أسأله عن سبب وجوده في هذا المكان، فكان من نوعية الأسئلة التي لا يسمح بها أبدًا، ولكني أخبرته بخططي. كان يحفظ كل شبر من البلاد مثل اسمه، وعندما عرف إلى أين نتجه، أومأ برأسه. وقال: «ستجد هارالدسن العجوز هناك. إنه ينقِّب

في مكان ما بالقرب من قرية مافودي. بلِّغه حبي إن التقيته، وأخبره أن يواصل إبلاغي بتحركاته. إننا نحيا في عالم قاسٍ، وقد يتورط في مشاكل.»

ثم رفع إبهامه نحو السقف.

وقال: «لديك مجموعة غريبة من الأصدقاء في الطابق العلوي.»

أجبته قائلًا: «صديقي الوحيد من بينهم هو لومبارد؛ الرجل الذي التقيته في بولاوايو.»

«لم أعنِ صديقك. أعني الآخرين. الرجلين والسيدتين الجميلتين. هل تعلم من يكون الرجل الأكبر سنًّا؟ إنه إيلمر تروث الشهير.»

لقد نسي الناس قضية السيف المعقوف منذ فترة، ولكنها أثارت ضجة شديدة في إنجلترا منذ عام. كانت جريمة نصب واحتيال مالي ضخمة اشتملت على حادث بشع ربما كان انتحارًا، أو ربما كان جريمة قتل. وكانت ثمة محاكمة شهيرة في محكمة أولد بايلي، وحُكم على خمسة من المتهمين الاثني عشر بفترات سجن طويلة مع الأشغال الشاقة. وكان أحد الشخصيات المهمة في هذه القضية محامٍ شهير من لندن يُدعَى تروث، وكان الشخص الغامض المحرك لعملية النصب بأكملها. ولكنه أفلت من العقاب بعد دفاع مذهل من محاميه، إلا أن القاضي كان قاسيًا جدًّا في تعليقاته وظلت غمامة كثيفة من الشكوك تحيط به.

قلت: «تروث! ماذا يفعل هنا يا تُرى؟ لقد فكرت بالفعل أن ذلك الرجل في الطابق العلوي أكثر أهمية من أن يكون مجرد شخص عادي يقوم برحلة.»

«لا شك في أنه مهمٌّ جدًّا. أما عن سبب وجوده هنا، فلا تسلني أنا. لا شيء لدينا ضده. لقد خرج من المحكمة من دون أي دليل قد يلطخ سمعته. رغم ذلك، فهو رجل وضيع، ولدينا تعليمات بأن نراقبه حتى يصعد على متن سفينة من بييرا أو كيبتاون. ولا أعتقد أنه بصدد القيام بأي فعلة تدينه هذه المرة. ففي ظل وجود طيور الحب التي بصحبته، فهو يرتحل مثقل الكاهل ولن يقدم على فعل أي شيء متهور.»

بعد بضعة أيام، وبعد أن غيرت مساري نحو الغرب لأقابل جزءًا من فريقي، وصلنا إلى التلال الواقعة بين نهرَي البونجو والروينيا. واعتقدنا أننا تخلصنا من تروث وطاقمه ذي الملابس المبهرجة، ونسينا فعليًّا كل شيء عنهم عندما التقيناهم فجأةً في عصر أحد الأيام بينما كنا نريد أن نريح خيولنا عند إحدى البحيرات. ووجدنا أربعتهم هناك جالسِين حول النار يتناولون غداءهم. كان الرجلان قد غيَّرا ملابسهما، وارتديَا سراويل لركوب الخيل وقماطات سيقان وقميصَين ذوَي لون كاكي مفتوحَي الصدر ومشمَّرَي الأكمام،

كانا يبدوان مختلفَين تمامًا عن أولئك المتأنقين الذين التقيناهم في الفندق. بدا ألبينوس متمرسًا مر بهذا الموقف من قبل، وحتى تروث نفسه كان يتعامل مع البراري بطريقة جيدة. أما المرأتان فكانتَا مريعتَين. كانتا ترتديَان أيضًا سراويل لركوب الخيل وقماطات سيقان وقميصَين خشنَين، ولكنهما لم تكونا مناسبتين لهذه النوعية من الملابس، فقد أطلت من أعينهما نظرة حزينة مرتبكة أشبه بنظرات كلبَي ترير صغيرَين تورطَا في شجار مع كلاب أخرى. وكانت الشمس، كما توقعت، قد دمرت بشرتهما.

لم يبدُ على أربعتهم أنهم تفاجئوا برؤيتنا — ولمَ يفعلون؟! — فقد كانوا على الطريق المعتاد إلى وادي ماكابان، وكان الكثير من الناس يمرون بهذا الطريق. كان الأربعة ودودين بشكل مبالغ فيه، وعرضوا علينا الشراب، الذي كانوا يملكون الكثير منه، والأطعمة الشهية، التي كانوا يملكون العديد من أصنافها. وكان يبدو عليهم أنهم في مزاج رائع، وكانوا يثرثرون كثيرًا. كان تروث متحمسًا وسعيدًا بكل شيء؛ المكان والمناخ، وروعة العيش في العراء، وكان حزينًا لأنه لم تتوفر له فرصة تجربة كل ذلك من قبل بسبب أشغاله. وللأسف، لم يكن أمامهم إلا بضعة أيام ليقضوها في هذه الجنة، ثم سيكون عليهم أن يعودوا أدراجهم إلى وطنهم. كما أنهم لم يخرجوا من أجل الصيد، فلم يصطادوا شيئًا سوى عدد قليل من الدجاج الحبشي يكفي للطعام. وتمنَّى تروث لو لم يكن غير مهتم بالطبيعة، أو أن يكون ثمة شخص معه ليخبره عن الحيوانات والطيور. كان بريئًا لدرجة أنك من المستحيل أن تكون قد التقيت موظف مصرف في عطلة أكثر منه براءة. أما الفتاتان فقد أدَّتَا دورهما بشكل جيد، رغم أني لم أصدق أنهما كانتا تستمتعان بالرحلة حقيقة. ولم يقل ألبينوس الكثير، ولكنه كان مهتمًّا جدًّا بتقديم المشروبات لنا.

سألتهم عمَّا إذا كانوا يحتاجون أي شيء منَّا، ولكنهم قالوا إنهم على خير ما يرام. وقالوا إنهم ذاهبون لرؤية مكان يُدعى وادي بينتو الذي قيل لهم إنه مكان لمشاهدة المناظر الطبيعية أفضل من ماتوبوس، ومن ثم سيكون عليهم أن يعودوا أدراجهم. بدا من الغريب أن رجلًا له ماضٍ مثل تروث قد يُمتع نفسه بمثل هذه الطريقة البسيطة، ولم يكن ألبينوس يتمتع بأي تذوق فطري لبساطة الطبيعة، أو النساء اللاتي يفْرِطن في استخدام مساحيق التجميل. ولكنهم واصلوا أداء أدوارهم ببراعة، وكانت كلمات تروث الأخيرة التي وجهها إليَّ هي أنه يتمنَّى لو كان أصغر سنًّا بعشرين عامًا وعاش حياةً مثل حياتي. قالها كما لو كان يعنيها.

عندما عدنا لركوب خيولنا، قال لومبارد إنه يعتقد أنهم كانوا حريصِين على إظهار أنفسهم كمبتدئين وعديمي الخبرة أكثر مما هم عليه في الحقيقة. فقال: «لقد لمحت

أسلحتهم، ولم تكن بنادق الرش هي أسلحتهم الوحيدة. أقسم لك أن معهم بنادق حقيقية؛ بندقية ماوزر واحدة على الأقل، وما بدا لي بندقية سريعة الطلقات.»

أومأت برأسي.

وقلت: «رأيتها أنا أيضًا. هل لاحظت الفتية الذين بصحبتهم؟ لا بد أنهم استأجروا اثنين منهما من سالزبري، ولكن كان ثمة رجل نصف برتغالي أعتقد أني رأيته من قبل، ولم يكن يرغب في أن أراه. فقد اختبأ خلف شجرة عندما رآني. كان آركول محقًّا في مراقبته لهذه المجموعة. لا يعني ذلك أني أدرك مدى الضرر الذي يمكنهم التسبب فيه. إن هذا الجزء من العالم لا يمكنه أن يقدم الكثير لمحامٍ مشبوه من لندن ولمحتال أمريكي.»

بعد ثلاثة أيام، وصلنا إلى وادي ماكابان وكنت قد بدأت مزاولة مهام وظيفتي المتعلقة بالتحقق من صحة تقارير منقبينا في أرض مكونة من رءوس صخرية صغيرة تقع على حافة الجرف العظيم مباشرة. كان بصحبتِي رجل هجين من مقاطعة كيب يُدعَى هندريك، وكان ذراعي الأيمن الذي يعتني بفريقِي بأكمله. لم يكن ثمة شيء لا يمكنه فعله؛ من صيد، أو قيادة عربات، أو علاج خيول، أو أي عمل قد يطرأ فجأة؛ كان شابًّا رائعًا ويمتلك فريقًا من البغال أيضًا، وكان أفضل طاهٍ في أفريقيا. كان لدينا أربعة خدم، من بينهم ماشوناس الذي استخدمته في مهمة سابقة. قضى لومبارد وقته في الصيد، وبما أننا كنا في بلد لا يمكن أن تضل طريقك فيه — إذا كان معك بوصلة — تركته يخرج وحده. ولكنه لم يصطد سوى بضعة ظباء وثَّابة صخور وظبي شجيرات واحد، ولكنها كانت منطقة تعج بالطرائد، فظل يأمل في أن يصطاد أحد ظباء الكودو.

ذات مساء بينما كنا نتناول العشاء بجوار المدفأة، رفعت بصري لأجد بيتر بينار واقفًا بجواري. لم يكن بيتر الذي عهدته أثناء الحرب، بل كان بيتر يصغره بعشر سنوات، فلم يكن ثمة شيب في لحيته، وكان ممشوق القوام ونحيلًا كرياضي أولمبي. ولكنه كان يملك نفس الوجه اللطيف، ونفس العينَين العطوفتَين الناعستَين اللتَين تتذكرهما، ونفس ذلك الهدوء العجيب. لم يكن ظهور بيتر يُصدر ضوضاء تعلو عن تحول الليل إلى نهار.

كان آخر ما وصلني عنه من أخبار أنه في صحراء كالاهاري، وكان هذا سببًا جيدًا لأن أتوقع وجوده على الجانب الآخر من أفريقيا. أكل بيتر كل الطعام الذي أعطيناه إياه، وشرب زجاجتين من البيرة، وكانت هذه عادته، فقد كان يختزن الطعام مثل الإبل، فلم يكن يعلم أبدًا متى سيأكل أو يشرب مرة أخرى. ثم كدس التبغ في غليون ذي وعاء عميق يحمل شعار نبالة قديم من مقاطعة ترانسفال حفره ابن عمه من أجله عندما كان أسير

حرب في جزيرة سيلان. انتظرت منه أن يبوح بسبب حضوره، فقد كنت متأكدًا تقريبًا من أن هذا اللقاء لم يكن محض صدفة.

قال بيتر: «لقد هرعت للعثور عليك يا ديك، فأنا أعتقد أن ثمة أعمالًا مشبوهة ستحدث في وادي ماكابان.»

قلت: «من المؤكد أن يكون ثمة عمل مشبوه حيث تحل أنت يا نذير الشؤم العجوز. وما هو العمل المشبوه هذه المرة؟»

«لا أعرف ماذا سيكون، ولكني أعتقد أني أعرف مَن سيفعله. إنهم أصدقاؤك يا ديك، أصدقاء سيئون جدًّا.»

فقلت له: «مهلًا! هل أرسلك آركول؟ هل تراقب السياح الذين التقيناهم على الطريق الأسبوع الماضي؟»

«نعم! لقد أرسلني الضابط جيم. وقال لي: «بيتر، هلا راقبت رجلَين وامرأتين يقضون عطلة قصيرة؟» ولكنه لم يخبرني بأكثر من ذلك، ولم يكن هو يعرف أكثر من ذلك. وربما أصبح يعرف المزيد الآن، فقد أرسلت إليه رسالة. ولكني اكتشفت أمورًا لن يتمكن الضابط جيم من منعها؛ فهي ستحدث في القريب العاجل. لهذا السبب أتيت إليك.»

قلت: «ولكن، هؤلاء السياح الأربعة لن يمكنهم التسبب في أي ضرر. أعرف أن أحد الرجلين محتال، وأعتقد أن الآخر محتال أيضًا، ويصحبهم رجل برتغالي بغيض أكاد أقسم أني رأيته من قبل. إنهم مجرد ثلاثة رجال ومعهم امرأتان تُشكِّلان عائقًا لهم.»

قال بيتر بجدية: «لقد عادت المرأتان إلى المدينة. وستنتظران هناك في هدوء حتى يعود الآخرون. سيجعلون الأمر برمته يبدو بريئًا، ربما يكون بذيئًا، ولكنه بريء. ولكن الرجال الثلاثة الذين تتحدث عنهم ليسوا الرجال الوحيدين. لقد انضموا إلى رجال آخرين في وقت حديثنا هذا، وأولئك الآخرون مجرمون عتاة. قد تقول، كيف عرفت؟ سأخبرك. أنا أعيش في وادي ماكابان، وسكان الوادي يفعلون ما أطلبه منهم. وقد أتوني بأخبار أكثر موثوقية وسرعة من المعلومات التي يمكن للضابط جيم الحصول عليها. ثمة عمل شرير يتم تحضيره. اسمعني، وسأخبرك.»

خلاصة قصة بيتر أن تروث وألبينوس، بعدما تخلصَا من عبء المرأتين، انطلقا من الجرف العظيم إلى حقل الشجيرات. وكان بيتر يعرف كل شيء عن الرجل البرتغالي، ثالثهم. يُدعى هذا الرجل دوراندو، وعثر بيتر على آثار مشاركاته في الكثير من الأعمال المشبوهة، فقد سجن فترة من الوقت في قضية شراء غير مشروع للماس، وبيع غير مشروع للخمور وهو مطلوب في موزمبيق لارتكابه العديد من الجرائم التي تتراوح ما بين قطع

الطريق إلى القتل بدم بارد. يا له من رفيق سفر غريب لسائحَين بريئين يهويان المناظر الطبيعية! عندما وصل الثلاثة إلى السهول انضم إليهم رجلان آخران، أحدهما أسترالي شارك في أعمال البحث عن كنز كروجر، ورجل آخر من حقول الماس يُدعَى سترينجر. اتسعت عيناي عندما سمعت الاسم الأخير، فقد كان جيم سترينجر اسمًا مشئومًا في ذلك الوقت في جنوب أفريقيا. كان نموذجًا «للرجل الشرير»، لا يردعه رادع، وكان واسع الحيلة، وأُشيع عنه أنه بارع في التصويب. وقد كنت أعتقد أنه مسجون لتورطه في عملية سطو كبيرة في جوهانسبرج.

قال بيتر: «لقد خرج من السجن الشهر الماضي، ولا بد أن صديقَيك التقياه عندما انتقلا إلى داخل البلاد ورتبوا للأمر معًا. ما رأيك يا ديك؟ ثمة ثلاثة أوغاد أعرفهم جيدًا، بالإضافة إلى صديقَيك اللذين ليسا من الأخيار. يصحب هؤلاء الرجال أربعة فتيان لا أعرفهم من الشانجان، ولكنهم من قرية ماكيندي، وهي قرية لا تلد إلا أشرارًا. ما الذي يسعون إليه في رأيك؟ إنهم لن يبقوا في السهول. لقد تحركوا بالفعل شمالًا ووصلوا إلى بيرج، وهم يتحركون بسرعة أكثر نحو الشمال. إنهم لا ينقِّبون عن الذهب، كما أنهم لا يصطادون، وهم لا يستمتعون بالمناظر الطبيعية. إلى أين يتجهون؟ يمكنني أن أخبرك بإجابة هذا السؤال؛ فقد اكتشفته قبل أن يلتقوا جيم سترينجر. إن الرجلين الإنجليزيَّين لا يشربان الكحول، وإذا ما شربا، لا يثرثران. إلا أن دوراندو يشرب الكحول ويثرثر. ثمة رجلٌ من وادي ماكابان، وهو صديقي، كان مرشدهم، وسمع دوراندو يتحدث وهو سكران. إنهم يتجهون إلى قرية مافودي. ومن يوجد في قرية مافودي يا ديك؟ وبالطبع، لا يرغبون في رؤية مافودي العجوز ملفوفًا ببطانيته الحمراء ثمة شخصٌ آخر هناك.»

صحت قائلًا: «هارالدسن!»

«نعم! السيد.» لطالما كان بيتر يدعو هارالدسن بلقب السيد، فقد كان يعمل لديه كمرشد وسائق عربة، وأنقذه هارالدسن من أكثر من ورطة وقع فيها. كان بيتر وفيًّا، وإن كان سيتعهد بولائه لأي شخص على وجه الأرض، فسيكون للدنماركي العجوز.

سألته: «ولكن، ما الذي يربطهم بهارالدسن يا تُرى؟»

قال: «لا أعرف، ولكن لا بد أنهم يتجهون إلى هناك من أجل السيد. فكر في الأمر يا ديك. إنه ليس شابًّا، وهو يقيم هناك بمفرده دون أحد سوى جماعته الصغيرة من الباسوتو وذلك الرجل الهولندي مالان، وهو بالمناسبة رجل ماهر ولكنه ليس مقاتلًا، فهو بذراع واحدة. كما أن السيد رجل فاحش الثراء، ويُعتقد أنه يعلم الكثير من الأسرار. ثمة

شيء ما يريده هؤلاء الأوغاد منه، ولن يكون أمرًا جيدًا. ربما كان ثأرًا قديمًا. ربما خدع السيد صديقَيك تروث وألبينوس في الماضي. أو ربما كانوا يريدون سرقته، وهم ذاهبون إليه ليجعلوه يفصح عن مكان ثروته. لا يمكن أن يحتفظ السيد بالكثير من المال معه، ولكنهم سيجبرونه على أن يفصح عن مكانه. لا أعرف، ولكني واثق من أمر واحد، أنهم ينوون أن يضعوا أيديهم على السيد — ولن يخرج من تحت أيديهم سليمًا — وربما لن يخرج حيًّا.»

ألجمت قصة بيتر لساني. فكنت أعتقد في البداية أنه يقول كلامًا فارغًا، فقد كنا مجموعة من المتحضرين في روديسيا، وأصبح العنف دربًا من الماضي. ولكن، لم يكن بيتر ليتفوه بشيء ليس واثقًا منه، وكلما زاد تفكيري في الأمر زاد قلقي. فخمسة أشرار في هذا المكان المنعزل يمكنهم أن يفعلوا ما يحلو لهم بهارالدسن ومساعده ذي الذراع الواحدة. تذكرت أن سمعة ذلك الرجل المسن تتعلق بالبحث عن الذهب طوال حياته، وأنه وجده في أماكن كثيرة جدًّا. ماذا قد يكون أكثر ترجيحًا من انفراد مجموعة من المجرمين المتوحشين به وسط الأحراش وإجباره على تسليم المال أو الإفصاح عن مكانه؟

سألته: «ماذا تنوي أن تفعل؟»

قال بيتر: «سأتجه نحو قرية مافودي مباشرةً. وأعتقد أنك ستأتي معي يا ديك.»

لا شك في أني لم أستطع الرفض، ولكني شعرت بأنه يجب أن أتوخى الحذر. ألن يكون من الأفضل أن نستدعي آركول والشرطة؟ لم أكن أستسيغ فكرة العبث منفردين مع أشخاص لا يتورعون عن فعل أي شيء. علاوة على ذلك، هل سنُحدث أي فارق؟ لقد انتهى عصر هارالدسن ومالان كمقاتلين، وسوف يواجه ثلاثتنا خمسة من عتاة الإجرام.

أبطل بيتر جميع اعتراضاتي بأسلوبه الهادئ. كان آركول يبعد عنا بمسافة مائة ميل. وقد أرسلنا إليه رسولًا من المحليين، ولكن من المستحيل أن يتمكن آركول من الوصول إلى قرية مافودي في الوقت المناسب، لأن تروث وعصابته سيكونون هناك بحلول صباح الغد. وبالنسبة إلى كوننا أقل عددًا، كنا خمسة رجال نزهاء في مواجهة خمسة أوغاد، وكان بيتر يعتقد أن جميع الأوغاد ضعاف القلوب. فقال: «قدرتي على إطلاق النار معقولة، وأنت كذلك يا ديك.» ثم التفت إلى لومبارد متسائلًا.

فقال لومبارد: «يمكنني إطلاق النار على أية حال.» كان يبدو عليه الإثارة، فقد كانت هذه مغامرة ساقها إليه حظه الطيب ولم تكن تصل إليها أقصى أمانيه.

كانت النتيجة أننا لن نحظى بأي قسط من الراحة هذه الليلة. أرسلت أحد غلماني برسالة أخرى إلى آركول ذاكرًا فيها تفاصيل أكثر من تلك التي أرسلها إليه بيتر، واقترحت

عليه طريقًا ناحية الشمال الغربي خشيت ألا يكون قد فكر فيها. تركت هندريك والبغال وبقية الفريق ليتبعوني لاحقًا، وأتذكر أني ظللت أفكر في الموقف الذي سيجدونه عندما يصلون إلى قرية مافودي. انطلقنا ثلاثتنا على الطريق بعد تمام العاشرة بقليل. وصحبنا غلام بيتر، وكان شابًّا قويًّا من شعب البتشوانا من بلدة خاما.

كنت قد ارتحلت على هذا الطريق عدة مرات من قبل، وكان بيتر يعرفها جيدًا، ولكن لم يكن من الصعب العثور عليها على أية حال، فكانت تشق الأراضي المكشوفة القريبة من حافة الجرف العظيم، وتنحني إلى الداخل فقط لكي تتفادى الرءوس الصخرية الحادة. كان المشهد بأكمله يسبح في ضوء دافئ أرسله القمر الرائع؛ القمر الأفريقي الذي لا يمت بصلة لذلك الشيء الشاحب في الشمال، بل قمر بازغ كالشمس نفسها. وعندما غاب ضوء القمر، كنا نسير على أرض مرتفعة، هضبة مكسوة بالحشائش الطويلة والنباتات الشوكية، وكانت ثمة هوة عظيمة صنعها المرج الأقل ارتفاعًا من الهضبة بدت لنا وكأنها خليجًا من الظلام يقع عن يميننا. كان من السهل الاهتداء بهذا الطريق، وعندما حل الفجر بأنواره الذهبية والقرمزية من الشرق، كنا قد اقتربنا من القمم الثلاثة الصغيرة الغريبة التي تقع بينها قرية مافودي.

اتجهنا من فورنا نحو معسكر هارالدسن الذي كان يبعد مسافة نصف ميل من القرية على أحد التلال. كان معسكر تنقيب عاديًّا كنت ستجد العشرات مثله في روديسيا في تلك الفترة، ولكنه كان مُنشأً بطريقة أكثر احترافية من أغلبها؛ إذ كان هارالدسن يملك المال المطلوب لفعل كل شيء بالشكل الصحيح. لم أكن أعرف الكثير عن الذهب، إلا أن أكوام الكوارتز التي مررت بها بدت جيدة. كان قد عثر على رأس صخري اعتقَدَ أنه واعد، وانشغل بتتبع مسار العرق المعدني فيه، فدق عمودين طول كل منهما سبعون قدمًا وتفصل بينهما مسافة ربع ميل تقريبًا. ولكني لم أكن منشغلًا بالعمليات التي أجراها هارالدسن، وإنما بهارالدسن نفسه. فقد رآنا غلمانه، وكان هو يقف أمام خيمته في انتظار وصولنا، وبدا مع سقوط ضوء الشمس على شعره الأشعث وكأنه بطريرك.

بينما كانت قهوتنا الصباحية تُعَد، أخبرته بسبب حضورنا، فلم يكن ثمة وقت لنضيعه، فقد حسب بيتر أن تروث وعصابته لا يبعدون عنا سوى خمسة أميال تقريبًا، طبقًا للطريق الذي سلكوه. كان وجه هارالدسن متغضنًا جدًّا ولم تختلج أيٌّ من قسماته فلم يكشف الكثير عما يعتمل في صدره، وكانت عيناه الرماديتان ثابتتين. ولكن ذِكر اسم تروث أيقظ حواسه، ولم يبدُ مرتاحًا لسماع اسم ألبينوس. وبَدَا أنه يشعر بالقلق منهما أكثر من بقية المجرمين.

قال بصوته العميق ولكنته الدقيقة، فقد كان يتحدث الإنجليزية دائمًا كما لو أنه تعلَّمها من أحد الكتب العتيقة: «أنا أعرف تروث. إنه محتال كبير وعدوٌّ لي. كان، منذ أمد بعيد، شريكًا لي لفترة قصيرة. إنه لا يحبني، وهو محقٌّ في هذا؛ فقد عملت جاهدًا على سجنه. وها هو يأتي الآن كشبح من الماضي يُضمر شرًّا.» أما بالنسبة إلى ألبينوس، فلم يسَعه إلا أن يقول إن والده كان مُتلبسًا بروح شرير، وأنه لا يعتقد أن هذا الروح الشرير طُرِد من الابن.

كان هارالدسن واثقًا من أن العصابة آتية من أجله، ولكنه لم يوضح السبب. وكان كلُّ ما قال هو: «سيحاولون أن يكسروا شوكتي، وإذا لم أنصَع لأوامرهم سيقتلونني. إلا إذا قتلتهم أنا أولًا.»

حاولت كعادتي أن أقيِّم الموقف بمنطقية. فقلت: «إذا ما وجدونا معك، فلن يجرءوا على فعل أي شيء. قد يلجئون إلى أسلوب الاغتيال في هدوء، ولكنهم لن يرغبوا في خوض معركة.»

ولكنَّ هارالدسن هز رأسه نفيًا. وقال إنه يعرف تروث، وسمع عن ألبينوس. لا بد أنه أذاق هذين الرجلين هزيمةً مريرةً في وقتٍ ما لكي يُضمِرا في نفسَيهما هذه الضغينة القاتلة تجاهه، أو ربما كان يعلم مدى جشعهما واستماتتهما في الحصول على المال. ولكن كانت وجهة نظر بيتر هي أكثر ما أبهرني. فقد سمع عن كل من سترينجر ودوراندو، وكان على يقين أنهما لن يعودا إلى وطنيهما دون غنيمة. كما أنهما لن يفكرا في عواقب فعلتهما هذه، فسيمكنهما أن يختفيا في غياهب أفريقيا.

لم أكن ألجأ إلى القتال أبدًا إلا باعتباره خيارًا أخيرًا، فاقترحت أن يركب هارالدسن أفضل حصان لديه ويهرب بأقصى سرعة، وأن يتركنا نواجه هذا الموقف العصيب، فلم يكن ثمة ما يفيد العصابة في قتلنا أنا أو بيتر أو لومبارد. ولكن هارالدسن لم يوافق على هذا الاقتراح. وقال: «إذا ما فررت، فسيعثرون عليَّ فيما بعد، وسأظل أعيش مهددًا. وهذا ما لا يمكنني احتماله. من الأفضل أن أواجههم هنا وننهي الأمر برمته.»

كان رأيه صائبًا، ولكني لم أكن أريد التورط في أي معركة بطولية. فسألته عما إذا كان أيٌّ من غلمانه ذا نفع. فقال: «لا أحد منهم. جميعهم من قبيلة الماشونا، وهم جبناء كالأرانب. كما أني لا أريد أن يتعرض أيٌّ منهم لأذى.»

سألته: «ماذا عن رجال مافودي؟»

وجاء الرد من بيتر. وقال: «مافودي سكران طوال الوقت، كما أنه بلغ من العمر عتيًّا. كانت عشيرته من المقاتلين في الماضي، ولكنهم لا يملكون أي بنادق حاليًّا. إنهم لن يقاتلوا.»

«حسنًا إذن، إن الوضع الآن هو خمسة منا — وأحدنا معاق — في مقابل خمسة منهم.»

ولكن الوضع كان أسوأ من ذلك، فقد كان مالان يعاني من حُمَّى شديدة ولن يكون قادرًا على القتال. كما أن ذخيرة هارالدسن نفدت وأرسل أحد غلمانه ليحضر مخزونًا جديدًا منها، وكانت بنادقه من نوع مانليتشر وبنادقنا من نوع ماوزر، فلم يكن بيدنا شيء نساعده به. وبدا لي أنه من الأفضل أن نتراجع عن هذه المواجهة، ولكن بيتر لم يفقد تفاؤله. فقال: «لنضع خطة»، كانت هذه إحدى عباراته العظيمة، وهرش طرف أذنه اليسرى برفق، ما كان يدل دائمًا على أن عقله يعمل بأقصى طاقته.

ثم قال أخيرًا: «إليكم خطتي. علينا أن نعثر على مكان حيث يمكننا الدفاع عن أنفسنا. سيصل الضابط آركول قبل حلول الظلام أو ربما الليلة، أو غدًا على أقصى تقدير. ولن يمكننا أن نواجه هؤلاء الأوغاد مواجهة عادلة في أرض مفتوحة، ولكننا، إذا ما تحصنا بحصن قوي، سوف نتمكن من صدهم اثنتي عشرة ساعة، وربما أكثر.»

سألته: «وأين هو حصنك؟» وبينما كنت أنظر حولي لهذا المكان المفتوح المشمس، مجموعة الرءوس الصخرية الصغيرة التي تتوسطها حقول قرية مافودي، لم أرَ أي مكان يصلح لأن يكون ذلك الملاذ الذي نريد الاحتماء به. كان المكان بأكمله مفتوحًا وعاريًا، ولم يكن لدينا ما يكفي من وقت لحفر خنادق أو وضعِ متاريس.

قال بيتر مستخدمًا كلمة من لغة الماشونا: «هذا هو تل الفهد الأزرق. إنه يعلو القرية؛ يمكنك أن ترى جزءًا منه خلف ذلك التل. إنه مكان ذو قدسية كبيرة، ولا يذهب إليه سوى القلة بخلاف الكهنة، وهو محاط بسياج من النباتات الشائكة يبلغ ارتفاعه خمسة أقدام بالإضافة إلى سور كبير من الأوتاد. ولا أعرف ماذا يوجد في داخله عدا صخرة سوداء سقطت من السماء. وعلى الشباب الصغار أن ينظروا إلى هذه الصخرة أثناء ختانهم. إذا ما تمكنا من دخول هذا المكان يا ديك، أعتقد أننا قد نسخر من أصدقائك لبعض الوقت … وقت كافٍ لوصول الضابط آركول إلى هنا. ثمة أمرٌ آخر. إذا ما كان المجرمون أقوياء بما يكفي وتمكنوا من اقتحام المكان، فأعتقد أن رجال مافودي سيستشيطون غضبًا. إنهم لا يملكون بنادقَ حقيقة، ولكن الرجال الغاضبين يستطيعون أن يفعلوا الكثير باستخدام العصي الغليظة والفئوس.»

عارضته قائلًا: «ولكنهم لن يسمحوا لنا بالدخول أبدًا.»

«ربما يفعلون. دعني أحاول. لطالما ربطتني علاقة صداقة قوية بقبيلة مافودي.» ومن دون أن ينبس بكلمة أخرى، تركنا وسار في اتجاه القرية.

كنت أشك في نجاح خطته، فقد كنت أدرك جيدًا مدى غيرة المحليين على أماكنهم المقدسة التي طالما سيطر عليها كهنتُهم، خاصة قبيلة الماشونا. ولكني كنت أعلم أن بيتر يحظى بتقديرٍ خاصٍّ من القبائل؛ فهو لم يكن ينعت أيًّا منهم بأنهم زنوج. وانتشر بين الناس أنه كان الرجل الأبيض الوحيد على الإطلاق الذي حضر رقصة التطهير العظيمة لقبيلة أماتولا. كان انتظار عودته عصيبًا؛ فقد تأخر كثيرًا. جعلتُ هارالدسن يجمع حاجياته القيمة، وأعددنا محفة من أجل مالان، الذي وصل إلى تلك المرحلة من الحُمَّى عندما لا يكون المرء مدركًا لما يحدث من حوله. ولم أرفع ناظِريَّ عن ذلك الركن من الرأس الصخري الذي من المتوقع أن يظهر من ورائه تروث وعصابته في أية لحظة.

ولكنهم لم يأتوا، وكان بيتر هو من أتى أخيرًا. نجح بيتر في إقناع شيوخ القبيلة بأن يسمحوا لنا بدخول الساحة المُسوَّرة المقدسة. لم يخبرني بالحجج التي استخدمها في إقناعهم، فلم يكن هذا أسلوبه، فكان يقدِّم النتائج للناس ويدعهم يخمنون الطرق التي اتبعها في تحقيقها. حزمنا أشياءنا في سرعة خارقة، فلم يكن ثمة وقت لنضيعه، ووضعنا مالان في محفته، وأخبرنا غلمان هارالدسن بأن يأخذوا الخيول إلى أعلى الجبل وأن يتواروا عن الأعين حتى نرسل في طلبهم. وفي القرية، في المساحة المفتوحة التي تقع في مركزها، استقبلنا أغلب قبيلة مافودي، وكانوا جميعًا صامتين كالموتى، وهو أمر غير معتاد بين السود. وصُب الماء فوق رءوسنا — الطقس الذي دعته الكتب بطقس التطهير — ووُضعت لطخات صغيرة من الدهان الأخضر على جباهنا. ولم يُسمَح لغلام بيتر من قبيلة البتشوانا بأن يصحب مجموعتنا، فقط الرجال البيض هم من سُمِح لهم بالدخول. ثم قادونا صامتين عبر طريق ضيق تحده الشجيرات من الجانبين ويؤدي إلى أعلى تل الفهد الأزرق، وعندما وصلنا إلى قمته سمعنا المحليين يقولون «أوتش» في صوتٍ واحد، وسمعناهم يصدرون صوتًا كما لو كانوا يتنهدون. كانت ثمة بوابة تشبه بوابات الماشية في السور المحيط بالمكان المقدس، وفتحها الكاهن بهدوء وتؤدة كما لو كان يؤدي طقسًا دينيًّا، وعبرها أربعتنا ومالان على محفته إلى داخل المكان المقدس.

بدا لنا المكان للوهلة الأولى وكأننا عثرنا على ملاذ. كان التل بعلو مائة قدم تقريبًا، وكان أغلبه مغطًّى بشجيرات كثيفة ما عدا قمته المخروطية العارية التي تستقر عليها

الصخرة المقدسة. وكانت الشجيرات في أغلبها شوكية يصعب اختراقها، ولكنها كانت تحتوي على عشرات المسارات الصغيرة المختلطة والمتشابكة التي أصبحت أسطحها ملساء مثل الحصى بفعل عصور من الطقوس. فكان من بين خطوات طقس الختان ممارسة لعبة غميضة مثيرة للجنون في هذه المتاهة. وحول قاعدة التل، كما قلت سابقًا، كان ثمة سياج نباتي سميك قد يحتاج إلى كتيبة لفتح ثغرة به. كانت نقطة الضعف الوحيدة هي البوابة، وفكرت أنه في حالة تعرضها للهجوم، يمكن لاثنين منَّا أن يحمياها، فستكون مهمة الرجال الذين سيحاولون اختراقها صعبة في مواجهة البنادق المخفية. وفكرت أنه يمكننا أن نحميها — على أي حال — حتى يصل آركول. وفي الواقع، كنت آمل أن تروث وعصابته قد لا يتمكنون من اكتشاف مكاننا من الأساس. فقد يعثرون على معسكر هارالدسن خاليًا ويستنتجون أنه قد انتقل إلى مكان آخر.

وكانت جميع توقعاتي خاطئة. فبادئ ذي بدء، وصل أعداؤنا إلى حافة الوادي في الوقت المناسب ليروا تحركات قبيلة مافودي أثناء تحركهم نحو التل الصغير، وإذا لم يخمنوا ما حدث حينئذٍ، فقد أدركوا الأمر برمته عندما وصلوا إلى معسكر هارالدسن. فلم ينتشر غلمان هارالدسن في الغابات بالسرعة الكافية. فأمسكوا بأحدهم، وبما أنهم كانوا يتوقون لتحقيق غايتهم ولم يتبعوا أساليب مراعية في استجوابه، فسرعان ما أخبرهم المسكين بما عرفه أو خمنه. وكانت النتيجة أنه بعد نصف ساعة من عبورنا السور، كان الآخرون يحوِّلون قرية مافودي جحيمًا. عثرت على مخبأ أعلى التل مكنني من استطلاع الأراضي المحيطة، ورأيت أن عصابة تروث أكبر مما توقعت. وتمكنت من تحديد تروث وألبينوس، فلم تكن ملابسهما الأنيقة مناسبة لهذا الموقف على الإطلاق، وكذلك لجسم دوراندو النحيل، وساقي جيم سترينجر الطويلتين. كانوا قد تركوا أتباعهم المحليين خلفهم، ولكن كان معهم أربعة رجال بيض آخرين لم يعجبني مظهرهم. كانوا ثمانية وكنا أربعة، أي إن الاحتمالات تصب في صالحهم بنسبة اثنين إلى واحد. دعوت بيتر ليصعد إلى جواري، وفحصت عيناه — الحادتان مثل عينَي العُقاب — التعزيزات. وتمكن من تمييز الرجل الأسترالي ورجل آخر قال إنه من ليدنبرج ثم بصق بعدما ذكر اسمه. ثم قال بهدوء: «أعتقد أنه يجب علينا أن نقاتل يا ديك. إن جشع هؤلاء الرجال قويٌّ لدرجة أنه سيجعلهم شجعانًا. كما أني أعلم أن دوراندو وسترينجر سيئَين، ولكنهما ليسَا جبانَين.»

كنت أعتقد مثلما يعتقد بيتر، فبدأت على الفور في استعداداتي للمعركة، فقد تعلمت القليل عن الجندية خلال الحرب الماضية. أخفيت هارالدسن بعيدًا عن الأعين، فقد كانت حياته هي الأغلى ضمن مجموعتنا، كما أني كنت أريد أن نتظاهر بأننا لا نعرف شيئًا عنه.

ووضعت بيتر، الذي كان أبرعنا في الرماية، خلف صخرة حيث يحظى برؤية جيدة للطرق المؤدية إلينا. وأخبرته بألا يطلق النار إلا إذا حاولوا اقتحام البوابة، وأن يحاول تعجيزهم قدر إمكانه لا قتلهم، فلم أكن أريد إراقة الدماء، والدخول في استجوابات رسمية، وأن تُكتَب عنا مقالات في الصحف، فسيضرنا هذا كثيرًا أنا وهارالدسن. تمركزت ولومبارد في موقعينا بالقرب من البوابة، وكانت عبارة عن جذعَي شجرة ضخمَين بينهما أغصان قوية شُدت أفقيًّا وربطت فيما بينها بنسيج نباتي متين. كان كل منَّا يحمل بندقيةً ومسدسًا دوارًا، ولكني كنت أفضِّل لو معي بندقية صيد. وجدت لومبارد يرطن من الانفعال، ولكنه حافَظ على ثبات قسمات وجهه الذي كان شديد الشحوب رغم ذلك.

مر الوقت بطيئًا في البداية. ولم يظهر دوراندو وسترينجر على الطريق القادم من القرية إلا بعد منتصف النهار. وكانا قد ربطَا منديلًا على ماسورة بندقية كما لو كان رايةً بيضاء. أمرتهما بالتوقف عندما أصبحا على بعد ست ياردات من البوابة، وسألتهما عما يريدان.

ولكنهما لم يتحدَّثا إلا كذبًا. فقالا إنهما أتَيَا لمقابلة السيد هارالدسن، صديقهما، وأنهما يريدان لقاءه بغرض العمل. وعلِمَا أنه موجود على قمة التل. فهل سيخرج ويصحبهما لتناول الغداء؟ وكانا كريمَين بما يكفي لتشملني دعوتهما.

قلت لهما إنني لا أعرف شيئًا عن السيد هارالدسن، ولكني أعرف الكثير عنهما. واقترحت عليهما خطة أخرى: أن يتركا أسلحتهما حيث يقفان وأن يعبرا السور إلى الداخل ويتناولا الغداء معنا. فشكراني وقالا إنهما يقبلان العرض، وتوجها نحو البوابة، ولكنهما لم يلقيا أسلحتهما، ورأيت انبعاج جيبيهما المحشوين بالمسدسات الدوارة. فصحت: «توقفا. إما أن تلقيا أسلحتكما أو تبقيا حيث أنتما»، وأظهرت ولومبارد مسدسينا وصوبناهما نحوهما.

قال دوراندو بينما تعلو وجهه نظرة بغيضة: «هل هذه طريقة مناسبة للتحدث إلى رجلين نبيلَين؟»

فقلت: «إنها طريقة مناسبة للتحدث إليكما يا صديقيَّ. لقد عرفتكما لفترة طويلة. ألقيا أسلحتكما وادخلا. وإن لم تفعلا، فإني أمهلكما دقيقةً واحدةً لتنصرفا من هنا.»

بدا الحنق على وجه دوراندو، إلا أن سترينجر ابتسم في لامبالاة. كان سترينجر أخطر الرجلين، فقد كان سريعًا في سحب مسدسه ولا يخطئ إصابة هدفه. كان وجهه طويلًا، ولا يحوي فمه الكثير من الأسنان، ما جعل شفتيه مزمومتين. لم أرفع ناظريَّ عنه،

وهمست للومبارد ألا يرفع ناظريه عن دوراندو. ولكنهما لم يحاولا اقتحام البوابة، فكل ما فعلاه هو أنْ قالا بضع كلمات فيما بينهما واستدارا وعادا من حيث أتَيَا. وكانت هذه نهاية المواجهة الأولى.

لم يحدث أي شيء آخر طوال فترة العصر. كان الحر خانقًا، ولم يكن ثمة أي ماء على قمة التل، ولم يكن معنا أي سوائل سوى قارورة براندي، فعانينا بشدة من العطش. كان مالان يهذي من الحُمَّى، ونام هارالدسن الذي كان جالسًا في الظل بجواره. لقد مر هارالدسن العجوز بالكثير من المواقف العصيبة في حياته، فلم يَعُد شيء يرهبه. خرجت بعض السحالي الخضراء الصغيرة من جحورها إلى الطرقات لتستمتع بالشمس، وراحت طيور الأرملة تتنقل بين الأشجار، وشق نسرٌ قبيح ضخم السماءَ الزرقاء وحطَّ بالقرب منَّا وظل ينظر نحونا. كانت الأرض بكاملها شديدة السخونة والهدوء، وكانت القرية أسفل التل ساكنة لا يصدر عنها أدنى صوت. لم يكن ثمة أحد ظاهرًا في الساحة بين الأكواخ، لا طفل ولا حتى دجاجة شاردة، وكأننا ننظر إلى مقبرة.

وفجأة صدرت صرخةٌ من داخل أحد الأكواخ، كما لو أن أحدًا يعاني من آلام مبرحة. بدت الصرخة مخيفة جدًّا في ظل هذا الصمت المطبق، فقد بدت وكأنها صرخة طفل، رغم أني أعلم أن أفراد هذه القبيلة يصرخون مثل الأطفال عندما يشعرون بالألم أو الخوف. ورأيت وجه لومبارد يشحب.

وقال بصوتٍ كالنعيق؛ إذ كان فمُه متيبِّسًا من فرط العطش: «ألا يجدر بنا أن نفعل شيئًا؟»

فقلت له: «لا يمكننا فعل شيء. لا أعرف ماذا يفعل هؤلاء الخنازير، ولكن سَيَجِين دورنا قريبًا. أملنا الوحيد هو ألا نتحرك من مكاننا.»

عندما بدأ الغسق، هبط بيتر من موقعه أعلى التل. فمن هذا الموقع العالي كانت لديه رؤية أفضل مما لدينا لما يحدث، وعاد لنا حاملًا أخبارًا.

قال لنا: «الوضع في القرية هادئ. لقد أوى جميع أفراد قبيلة مافودي إلى أكواخهم، فقد قيل لهم إنه سيُطلق عليهم الرصاص إذا ما ظهرت وجوههم. أما الآخرون، فثمة اثنان يحرسان ولم ينم أيٌّ من الباقين. إنهم يهدمون أحد الأكواخ ليحصلوا على القش القديم من سطحه، وأغاروا على حظائر الأبقار حيث يُخزَّن التبن. وبمجرد أن يخيم الظلام، سيصبحون منشغلين جدًّا.»

«يا إلهي!» صِحت بعدما أدركت ما يعنيه ذلك. ثم قلت: «يعني هذا أنهم سيشعلون النار في المكان لإخراجنا منه.»

قال: «نعم. إنهم أذكياء. لن يظهر القمر قبل تمام التاسعة. وسرعان ما سيخيم ليل معتم، ولن يمكننا أن نطلق النار في الظلام. وثمة ثمانية منهم، ونحن أربعة فقط. وفي هذا الوقت من السنة، لا توجد عصارة في الشجيرات الشوكية، ولسوف تحترق مثل مادة سريعة الاشتعال. ولن تعود البوابة مهمة. فسيمكنهم أن يحرقوا السياج من ست نقاط، ولن يمكننا أن نراقبها جميعها. إننا في وضع سيئ يا ديك.»

لم يكن ثمة شك في ذلك. فيما يتعلق بالتجهيز للمعارك، كان هؤلاء المجرمون أبرع منا بكثير، بغض النظر عن تروث وألبينوس اللذين لا أعرف عنهما شيئًا. وإذا كان بيتر محقًّا، فلسوف يتحول ملاذنا الآمن إلى فخ في القريب العاجل. دعوت هارالدسن وعقد أربعتنا اجتماعًا جادًّا. لن يمكننا أن نحتمي بالمكان إذا ما أُحرق، ولن يمكننا الهرب؛ لأنهم سيترصدون بالفجوات التي سيصنعها الحريق في السور، وكذلك بالبوابة.

سألت بيتر: «هل لديك خطة؟»

هز بيتر رأسه نفيًا، فحتى هو قد نفدت حِيَله.

ثم قال في بساطة وظهرت الجدية على قسمات وجهه الهادئ: «لا خيار آخر لدينا إلا أن نثق في الرب. وربما يصل جيم آركول في الوقت المناسب.»

لم يقل هارالدسن أي شيء. ولم يكن يحمل سلاحًا، فمددت له يدي حاملة بندقيتي. ولكنه فضَّل أن يأخذ فأسًا أصرَّ بيتر على إحضارها من المعسكر، ولوح بها في الهواء، فكان أشبه بمقاتل فايكنج عجوز. اعتذرت للومبارد على إقحامه في هذا الموقف العصيب، ولكنه طمأنني وقال لي ألا أقلق. فقد محت تلك الصرخة التي صدرت من القرية أي عصبية أو خوف من نفسه. وتحول تفكيره بالكامل إلى الطريقة التي سيقضي بها على هؤلاء الأشقياء الثمانية القابعين عند قاعدة التل.

اختفى الغسق البنفسجي، الذي لم يستمر طويلًا، من السماء، وخيم الليل على العالم كوشاح أسود سميك. أرسلت لومبارد وبيتر إلى قمة التل حيث يمكنهما أن يحصلا على معلومات مبكرة عما يحدث، فقد كنت أدرك أن ثمة محاولة ستحدث لإحراق السياج في عدة أماكن في الوقت نفسه. بقيت عند البوابة، وأصر هارالدسن على البقاء بجواري لسبب لا يعلمه أحد إلا هو. نقلنا مالان المريض إلى مساحة خالية من الشجيرات، فقد خشيت أن إحراق السياج قد يتسبب في انتشار النيران إلى جميع الشجيرات على التل.

لم يكن الانتظار مريحًا في تلك الساعة العصيبة. لم أرَ أن لدينا أي فرصة للنجاة، إلا إذا حدثت معجزة، وأقصى ما يمكننا أن نأمل فيه هو معركة جيدة وميتة سريعة. قد

تسأل عن سبب عدم تفاوضنا مع أعدائنا لكسب بعض الوقت. سأجيبك بأننا كنا على قناعة بأنهم ينوون قتلنا دون رحمة إذا ما سنحت لهم أدنى فرصة ليفعلوا، كانوا ينوون فعل ذلك بهارالدسن على أقل تقدير، ولم نكن لنسمح بذلك. كان هارالدسن نفسه يريد أن ندعه يخرج ويهبط التل ويواجههم بمفرده، ولكني وبيتر أخبرناه بألا يكون أحمق.

حلت الكارثة حين لم أكن أتوقعها، كعادة مثل هذه الأحداث. رأيت فجأة وهجًا أحمرَ يشق عتمةَ الليل، بدا وكأنه على الجانب الآخر من التل. ثم انتشر هذا الوهج، ما كان يعني أن ثمة حرائق أخرى قد أُشعلت. وسمعت صوت طلقة بندقية افترضت أن بيتر من أطلقها، ثم وجدت لومبارد يهبط من على قمة التل متعثرًا حاملًا خبر أن السياج يحترق في أربعة أماكن. تبع ذلك مباشرة اشتعال حريق كبير على بعد خمس ياردات مني تقريبًا، وظهر في اللحظة نفسها أناس عند البوابة. أطلقت النار على أحدهم، فردوا عليَّ بوابل من الطلقات، وشعرت بألم حادٍّ في كتفي اليسرى. ثم رأيت النار تندلع في البوابة بعدما أُشعلت النيران في السياج.

بعد ذلك حدثت فوضى عارمة. رأيت وجهًا قبيحًا بالقرب مني، فأطلقت النار عليه، ورأيت الدماء تتدفق من عينيه. كان هذا هو الرجل من ليدنبرج، فقد عثرنا على جثته لاحقًا. رأيت آخرين يعبرون البوابة، ثم رأيت مشهدًا أسطوريًّا. بدا هارالدسن عملاقًا في ذلك الوهج الأحمر وهو يقفز نحو الأمام ويلوح بفأسه يمينًا ويسارًا صارخًا مثل المجانين. ولا بد أن هذا المشهد أربك المهاجمين، فبدءوا يطلقون النار بغزارة. مرت طلقة عبر أحد جيوب سراويله، ومرت أخرى عبر شعره، ولكن لم تستقر أي طلقة في جسده. ورأيته يقفز عابرًا حطام البوابة المحترقة ويهبط بفأسه على رأس أحدهم. ثم عبر من بينهم واختفى تحت ستار الظلام.

كنت ذاهلًا وثائرًا، واعتقدت أن الأمر لا بد وأنه قد انتهى الآن، ولكن الموقف أخذ فجأة منعطفًا جديدًا. تعالى فوق أصوات الطلقات وأجيج النيران صوت آخر لم أسمعه منذ تمرد ماتابل، صياح السود الأجش العميق في طريقهم إلى الحرب. تصاعَد صياحُهم إلى عنان السماء مثل ريح عظيمة؛ ومن ثَم استعدت رشدي وأدركت ما حدث. لقد نهض رجال مافودي. كانوا مثل الماشية المستأنسة طوال اليوم، إلا أن هذا الاعتداء الوحشي على مكانهم المقدس أيقظ المروءة في نفوسهم. كانوا يشتهرون في الماضي بأنهم قبيلة مقاتلة، وها هي ضراوتهم قد بُعِثت من جديد. كانوا يتجمعون حول السياج مثل النحل ويتعاملون بسرعة مع مهاجمينا. إن السود يرون في الظلام أفضل من البيض، والعِصِيُّ

والفئوس سلاحٌ أفضل من البنادق في المعارك التي تدور في الظلام. كما أن أعدادهم كانت غفيرة، حوالي مائة من الهمج الثائرين الذين أعماهم غضبهم من جراء انتهاك مكانهم المقدس.

لم يكن ثمة شيء يمكنني فعله عدا الانضمام إلى بيتر ولومبارد على قمة التل. ولكني لم أجد أيًّا منهما هناك، فقد اتجه كل منهما إلى واحدة من الفجوات المحترقة ليفعل كل ما بإمكانه ليحمي الحصن. في واقع الأمر، لم تتمكَّن النار من حرق السياج بما يكفي لإحداث فتحة به؛ ومن ثَم لم يتمكن أيٌّ من المهاجمين من عبور السياج. فكان الهرج والمرج يحدث بالكامل حول السياج، فقد كان بعض رجال مافودي يحاصرون عصابة تروث وبقيتهم يحاولون إخماد النيران. ولم تكن تلك المهمة الأخيرة بالمهمة السهلة، وبزغ القمر منيرًا المكانَ قبل أن ينتهوا منها. جلست في مكانِي على القمة الجرداء بجوار الصخرة المقدسة أنتظر انتهاء المعركة. فلم يكن ثمة شيء لأفعله. كان بيتر ولومبارد في مكان ما على التل، ولكن كان من المستحيل العثور عليهما في تلك المتاهة المعتمة. سرعان ما خفتت صيحات الرجال المحليين، فأدركت أنهم انتهوا من مهمتهم. فقد أُخمِدت جميع الحرائق عدا واحدة ظلت تستعر. ومن وراء الأفق، بزغ القمر، وعاد النور يغمر العالم من جديد. كنت قد بدأت البحث عن الآخرين عندما سمعت جلجلة سُرُج ووَقْع حوافرَ أنبآني بوصول الشرطي آركول ورجاله أخيرًا.

ألقى آركول القبض على عصبة من الأوغاد؛ خمسة على وجه التحديد، أمسك بهم رجال مافودي. ومات ثلاثة من أفراد العصابة؛ الرجل من ليدنبرج الذي أطلقت عليه النار، وأحد الرجال الجدد والذي شق هارالدسن جمجمته بفأسه، وتروث نفسه، كما لو أنه خَطَا بقدميه نحو مصيره المحتوم. كان بيتر هو من قنص تروث منذ بداية المعركة عندما ظهر أمامه لثانية واحدة في وهج الحريق الأول. وها هو ذا يرقد بملابسه اللندنية الأنيقة التي اخترقتها طلقة بيتر، كلب منزلي بين بنات آوى، ولكنه الأسوأ بين القطيع.

قال ساندي: «قصة شيقة. لقد حكا لي هارالدسن العجوز الكثير عن مغامراته، ولكنه لم يقص عليَّ هذه أبدًا. إن نهايتها سعيدة.»

قلت: «ولكن هذه ليست النهاية. خرج هارالدسن من الحصن إلى كنف رجال مافودي الذين يعرفونه جيدًا، فتعرَّفوا عليه وأبعدوه عن الخطر. ولكن، بمجرد وصول آركول وإمساكه بزمام الأمور، كان لدى الرجل العجوز أمرٌ لينجزه. كان شديدَ الاهتياج عند البوابة، ولكنه بدا الآن «مجنونًا». وقال إن ثمة أمرًا لم يُنجَز بعد، وأصر أن أصحبه وبيتر

ولومبارد إلى قمة تل الفهد الأزرق. وهناك، ألقى على مسامعنا خطابًا، وبدا أشبه برجل إسكندنافي عجوز أكثر من أي وقت مضى. قال في خطابه إننا إخوته بالدم وإننا كنا على استعداد للدفاع عنه حتى النهاية. ولكن النهاية لم تحِن بعد، رغم موت تروث ودخول عصابته للسجن عما قريب. فثمة ميراث من الضغائن سيتبعه حتى آخر يوم في حياته، ميراث سيتركه تروث لخلفائه. لذا، كان يريد من ثلاثتنا أن نتعهد بأن نهب لمساعدته حينما يطلب المساعدة أيًّا كان المكان الذي نوجد فيه في هذا العالم. علاوة على ذلك، علينا أن نكون مستعدين لمساعدة ابنه، فقد كان يرى أن هذا الثأر لن ينتهي بوفاته، وأن علينا أن نورث هذا التعهد إلى أبنائنا. وبما أنه لم يكن أحدٌ منَّا متزوجًا، فلم يساورنا الكثير من القلق حيال ذلك.

كان الأمر يبدو كأنه مشهدٌ من إحدى قصصه الملحمية. فهناك كنا نقف فوق الشجيرات التي يغمرها ضوء القمر الفضي القوي على صخور بدت في ذلك الضوء وكأنها ركام ثلجي. تناوَبنا على إمساك يده اليمنى ووضعها على جباهنا، ثم رفعنا أذرعنا اليمنى ورددنا كلمات مجنونة عن الندى والنار والمياه الجارية ... يا إلهي، كم أتذكر ذلك كأنه البارحة؛ ذلك العالم الأبيض، ورائحة الشجيرات المحترقة، والألم في كتفي، ولومبارد، الذي تحمل ما لا يطيق، يئن ككلب مذعور!»

قال ساندي: «حسنًا، لقد مات الآن، وتحررت من عهدك معه، فمن غير المرجح أن يزعجك ابنه. يا للأسف! لقد ولَّت أيام الجموح. فقد مات بيتر منذ وقت طويل. وماذا عن ثالثكما؛ لومبارد، أعتقد أن هذا اسمه؟»

قلت: «الغريب في الأمر أني التقيته الخريف الماضي. إنه لم يعد يفكر في أي تعهد بطولي في الوقت الحالي. لقد أصبح رجل أعمال ذا شأن وصار بدينًا أصلع الرأس.»

الفصل الخامس

ابن هارالدسن

غادرت عائلة كلانرويدن لقضاء أسبوعين في ليفرلو، وذهب ساندي لصيد الأسماك من الجداول الحدودية بين إنجلترا واسكتلندا، وذهبت باربارا للاهتمام بحديقتها، أما أنا فعدت للاهتمام بزراعتي عندما وصلني خطاب من لومبارد. لم تصلني أيٌّ من أخباره منذ لقائنا في القطار الخريف الماضي. فهو لم يدعُني لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في منزله مثلما اقترح، الأمر الذي أراحني، فكنت سأُضطَر لاختراع بعض المبررات لأرفض دعوته، كما أنه لم يكرر عرضه بتناول الغداء معًا في لندن.

بدأ لومبارد خطابه بالاعتذار على تقصيره تجاهي، فقد كان منشغلًا جدًّا طوال فصل الشتاء، واضطُر إلى السفر إلى خارج البلاد مرتين. ولكنه يريد لقائي على الفور؛ بل كان في أمس الحاجة إلى لقائي. هل ثمة أي فرصة لأن أذهب إلى المدينة الأسبوع القادم، وإذا ما تحقق ذلك، هل يمكننا أن نلتقي؟ يمكنه أن يلتزم بأي موعد يناسبني، ولكنه اقترح أن نتناول الغداء معًا ثم نذهب إلى مكتبه لنتحدث. لم أتمكن من تخمين ما قد يقوله لي، وراودني شك غير مريح بأنه يريد لقائي من أجل إحدى مغامراته المالية، ولكني لم أتمكن من الرفض؛ إذ كنت سأذهب إلى لندن على أية حال من أجل أمر آخر. فأرسلت إليه برقية أطلب منه أن نتناول الغداء معًا في ناديَّ، وهو مكان هادئ يحتوي على غرفة للتدخين في الطابق الأعلى يمكننا أن نتحدث فيها دون أن يقاطعنا أحد.

بدا لومبارد قلقًا، كما كان مصابًا ببرد شديد. كان وجهُه المتورد شاحبًا، وعيناه دامعتَين، وصوته مشروخًا. قال لي إن ملابسه ابتلَّت أثناء لعب الجولف، وتولت الرياح الشرقية الباقي. إلا أن مرض جسده لم يكن أكثر ما يؤرقه، وراودني إحساس بأن جسده البدين المربع كان يرتجف بشدة. أثناء الغداء، دعوته لشرب الويسكي مع الماء الساخن، ولكنه لم يمس سوى الطعام، ولم يقل الكثير أيضًا. كان ثمة ما يشغل باله، وكنت سعيدًا

عندما تمكنت من الصعود به إلى غرفة التدخين في الطابق الأعلى، وأجلسته في مقعد وثير، وطلبت منه أن يخبرني بما عنده.

جاء سؤاله الأول مباغتًا.

سألني قائلًا: «هل تذكر رجلًا يُدعى هارالدسن؟ منذ ثلاثين عامًا مضت في روديسيا، هل تذكر؟ عندما ذهبت في رحلة معك بينما كنت في طريق عودتي إلى الوطن؟»

قلت: «نعم، أذكر ذلك. الغريب في الأمر أني كنت أتحدث عنه في الأسبوع الماضي.»

«لقد قابلته.»

فرددت عليه قائلًا: «لا بد أنك قد قابلت شبحًا إذن، فقد مات هارالدسن.»

ففتح لومبارد عينَيه الدامعتَين.

وقال: «لا أعني أني التقيت الرجل العجوز؛ أعني أني التقيت ابنه. ولكن، كيف عرفت أن هارالدسن قد مات؟ إن ابنه لا يعرف ذلك.»

قلت: «لا عليك. إنها قصة طويلة جدًّا لن يتسع الوقت لأن أقصها عليك الآن، ولكنها الحقيقة. ماذا عن هارالدسن الابن؟ أعلم أن ثمة ابنًا لهارالدسن، ولكني لم أسمع أي شيء عنه. كم عمره؟»

«تخطَّى ثلاثين عامًا. ربما كان أقرب إلى الأربعين من عمره. لقد أرسل إليَّ خطابًا يطلب مني أن ألتقيه — وعثر على اسمي في دليل الهاتف — ولكنه لم يذكر ما يريد. اعتقدت أنه ربما كان مهتمًّا بعرض لب الورق السويدي، وكنت قد بدأت العمل في هذا المجال مؤخرًا، فوافقت على لقائه رغم مشاغلي. كنت قد نسيت اسمه تمامًا، كما أنه لم يكن يمتُّ بصلة إلى روديسيا.»

صمت لومبارد قليلًا، ثم انفجر بغتة صارخًا في غضب. «ولمَ أتذكره بحق السماء؟ لقد مر ما يزيد على ثلاثين عامًا، ودفنت ذلك الصبي الغر الذي جاب أنحاء أفريقيا في مقبرة ذكرياتي. اللعنة، لقد صنعت مكانة لنفسي. وهدفي أن أصبح مدير بنك إنجلترا العام القادم. لقد اكتسبت سمعةً جيدةً عليَّ أن أراعيها. أنت تفهم ما أقول، أليس كذلك؟»

لم أكن أعلم ما يرمي إليه، ولكن بدا جليًّا أن لومبارد لم يعُد يتحدث بلسان ساكن الضواحي المهذب. لا بد أن أمرًا ما جعله يخرج عن شعوره.

قلت له: «ولكن، لا شيء فيما فعلناه مع هارالدسن في الماضي قد يضر بسمعتك. فعلى ما أذكر، لقد تصرفت جيدًا. ولا يوجد ما تخجل منه لتخفيه.»

فرد عليَّ في كآبة قائلًا: «انتظر حتى تسمع ما أريد إخبارك به. لقد أتى هذا الرجل إلى مكتبي وقص عليَّ قصة سخيفة وغير مترابطة. أوه، كانت قصة الصراع من أجل البقاء

المعتادة عن الفوضى العامة التي عاشها، وعن المحتالين الكثر الذين يلاحقونه. لم أتابع ما قاله الرجل بوضوح تام، فقد كان متوترًا لدرجة يُرثَى لها، ومن وقت لآخر كان ينسى كيفية التحدث باللغة الإنجليزية بشكل تام. ولكن ما استخلصته من حديثه هو أنه كان عرضة للخطر، وأن أعداءَه سينالون منه إذا لم يتمكن من العثور على النوع المناسب من الأصدقاء. لا أعلم مدى صدق روايته، ولكني رأيت أنه مقتنع بها تمام الاقتناع. لا بد أن ثمة بعض الحقيقة فيها، فهو لم يبدُ أحمق، وأكاد أقسم أنه صادق.»

صمت لومبارد، وانتظرت أن يواصل حديثه، فقد خمنت ما سيقوله لاحقًا.

واصل لومبارد حديثه قائلًا: «طلب مني أن أساعده، والله وحده يعلم ما يعتقدُ أني قادر على مساعدته به. فلستُ وزيرًا أو رئيس الشرطة. هل سمعت من قبل أمرًا منافيًا للعقل أكثر من ذلك؟»

قلت بصدق: «أبدًا»، ثم انتظرته ليواصل حديثه.

«ثمة مَن غرس في عقله فكرة أن له حقًّا عندي. وقال إني ساعدت والده ذات مرة في موقف عصيب، وأن والده ألزمني بأن أهب لمساعدته إذا ما طلب مني ذلك، وكذلك ابنه. ويبدو أن العجوز كتب كل هذا، وأن هارالدسن الابن لديه هذه الوثيقة.»

قلت في ارتياح: «هذا ليس من نوعية الأمور التي يمكنك أن تقاضي أحدًا بسببها.»

«أعلم ذلك ... ولكن، هل تتذكر هذه الحادثة يا هاناي؟»

«أتذكرها جيدًا. لقد وقفنا على قمة أحد التلال تحت ضوء القمر، وجعلنا الرجل العجوز نتعهد أمامه ونتلو قسمًا من أقسام الفايكينج. نعم، إني أتذكر ذلك جيدًا.»

قال لومبارد في تعاسة: «وأنا كذلك. ماذا سنفعل حيال ذلك إذن؟»

قلت بنبرة حاسمة: «لا شيء.» كنت قد تفحصت لومبارد جيدًا، وأدركت أن توقُّع مشاركة هذا الكهل المعتاد على الراحة في عملٍ متهور يُعد ضربًا من الجنون. كان إعجابي السابق به قد عاد، ولم أرغب في أن أورِّق ضميره. ولكن ما حيرني هو سبب ذهاب هارالدسن الابن إليه. قلت: «كنا ثلاثة. أنا وأنت وبيتر بينار. لقد انتقل بيتر إلى الرفيق الأعلى، ولكني لا أزال على قيد الحياة. فلماذا لم يأتِ إليَّ أنا؟ لقد كانت علاقتي بوالده أوثق بكثير من علاقتك به.»

«ربما لم يرَ أنك رجل مهم. وربما سمع اسمي يتردد في عالم المال والأعمال. على أي حال، هذه هي الحكاية، وهي حكاية لعينة مقلقة جدًّا.»

قلت: «صديقي العزيز، لا حاجة بك لأن تقلق. كنا جميعًا حمقى أثناء شبابنا، وليس من المتوقع أن نظل في حماقتنا بقية حياتنا. إذا كنت قد عاهدتُ شخصًا عندما كنتُ في

الحادية والعشرين من عمري أن أتسلق قمة جبل إفرست، وجاء اليوم ليلزمني بهذا العهد، كنت سأخبره بأن يذهب إلى الجحيم. ولكني أود أن أسمع المزيد من قصة هارالدسن الابن.»

فرد لومبارد: «لم أفهمها جيدًا، فقد كان الرجل مضطربًا جدًّا. كما أني لم أحاول أن أفهم، فلم يشغل فكري حينئذٍ سوى ذلك الموقف السخيف في روديسيا. ولكني دونت بعض الأسماء التي ذكرها، أسماء الأشخاص الذين يخشاهم.» قالها وأخرج من جيبه ورقة ملاحظات. وقرأ ما فيها قائلًا: «تروث، لانسلوت تروث. واسم ربما كان ألبيوس أو ألبيون، لم أسأله عن تهجئته. أوه، وبارالتي، هل تعرف مؤسس الشركات الذي ظهر في مجال الذهب في لبشا.»

اتسعت عيناي عندما سمعت هذه الأسماء. وقلت: «فليرحمنا الرب، ولكن تروث مات. أنت تعلم ذلك أيضًا، فقد رأيت بنفسك بيتر بينار الراحل وهو يقتله. وربما كان الاسم الثاني على لائحتك هو ألبينوس — ولا بد أنك تتذكره هو أيضًا. وإذا كان لا يزال على قيد الحياة، فلا يمكنني أن أتخيل ما يضمره لنا هذا الشيطان. أما بارالتي، فلا أعرف عنه شيئًا. أتعلم يا لومبارد، يبدو كل ذلك محض هلوسات. لقد قرأ هارالدسن الابن هذه الأسماء في أوراق والده القديمة وترك أشباح الماضي تغزو فكره. والأرجح أن الرجل مجنون.»

هز لومبارد رأسه نفيًا. وقال: «لم آخذ عنه هذا الانطباع. ربما كان خائفًا بالفعل، ولكنه عاقل تمامًا. على أية حال، بمَ تنصحني أن أفعل في هذا الأمر؟ لقد رجاني أن أساعده — وكان على وشك البكاء — وكنت مضطرًّا إلى أن أعده بالرد عليه. ومن المفترض أن أرد عليه غدًا.»

قلت: «أعتقد أنه من الأفضل أن تترك الأمر برمته لي. لقد وصلتني مؤخرًا بعض الأخبار عن هارالدسن الأب، وأود أن ألتقي ابنه. هل لديك عنوانه؟»

«أعرف كيفية الوصول إليه. إنه يتحرك بحذر شديد، ولكنه أعطاني رقم هاتف يمكنني الاتصال به وترك رسالة إلى رجل يُدعى السيد بوزورث.»

«حسنًا إذن، أرسل الرسالة. لا بد أن أعود لبيتي غدًا، ولكني متفرغ الليلة. وأَخبره بأن يتناول العشاء معي هنا الليلة في تمام الثامنة. أَعطِه اسمي، وأَخبره بأني كنت متورطًا فيما حدث في الماضي أكثر منك. وإذا كان ما يتعرض له حقيقيًّا، فلا بد من أنه يعرفني. أما إذا كان محض أوهام، فلن يأتي.»

سألني قائلًا: «ماذا ستفعل معه؟»

«سأستجوبه وأكشف غموض الأمر. إني أعرف عن هارالدسن الأب ما يكفي لأن أخرج بنتيجة من استجوابه. أعتقد أن الأمر برمته مجرد أوهام عقل مجنون؛ فالجنون منتشر بين شعوب الشمال. وإذا كان هذا هو الحال، سيمكننا أنا وأنت أن ننام ملء جفوننا.»

سألني وقد بدا على وجهه عدم الاقتناع بما قلت: «ولكن، ماذا لو كان الأمر جديًّا؟»

«أوه، إذا كان التهديد حقيقيًّا، أعتقد أني ملزم بالمساعدة. ففي نهاية المطاف، كنت صديقًا مقربًا لوالده، أما أنت فلم تكن كذلك. لا تقلق بشأن تلك الكلمات التي رددناها تحت ضوء القمر، فأنا لا أقيم لها اعتبارًا. فهي لم تنبع إلا من حب هارالدسن الأب للدراما. اعتبر نفسك مُعفًى من الأمر برمته مثل بيتر بينار تمامًا. لقد ظللت مواطنًا مسئولًا طوال ثلاثين عامًا، ولديك شركة كبيرة لتديرها وحياة مستقرة وأمور من هذا القبيل. ولا يمكن لرجل عاقل أن يتوقع منك أن تتورط في أمر كهذا. علاوة على ذلك، لن تكون بارعًا بأي حال من الأحوال في مثل هذه الأمور. أنا أعيش حياة مستقرة أيضًا، ولكن حياتي الماضية مختلفة عنك، وأعرف عن حياة الجريمة أكثر منك. لقد خضت العديد من المغامرات في عالم الجريمة، وأنا مُلمٌّ به.»

رأيت تغيُّرًا في تعبيرات وجهه التي لم تكن تعبر إلا عن القلق حتى هذه اللحظة. وأكاد أقسم أنه بدأ يغضب.

وقال بنبرة صوت خالية من أية مشاعر: «هل كنت ستأخذ بهذه النصيحة لو كنت في مكاني؟»

فرددت عليه قائلًا: «بالطبع كنت سأفعل.»

فقال: «أنت رجل صالح يا هاناي، ولا تُضمِر إلا خيرًا. ولكنك كاذب لعين. إذا كنتَ في مكاني، لم تكن لتفعل أيًّا مما قلت، وكنت ستسفك دم مَن ينصحك بفعل ذلك. إني أدرك الانطباع الذي كوَّنته عني، لقد رأيته باديًا في عينيك عندما التقينا في القطار. إنك تعتقد أني عجل سمين حقق النجاح في عالم المال والأعمال، ولا يفكر إلا في حسابه المصرفي، ومنزله الدافئ، وممارسة الجولف كل سبت. وتعتقد أني جبان رعديد يخشى الرد على أي إهانة توجه إليه، أو يهرع إلى محاميه ليأخذ له حقه في أفضل الأحوال. أنت مخطئ تمامًا. ربما عشتُ حياةً أقل قسوةً من حياتك، ولكنها لم تكن منعَّمَة بالكامل. فقد كان عليَّ أن أُقدم على الكثير من المخاطر، وبعضها كانت مخاطر جسيمة جدًّا. لم أكن أرغب

في رؤيتك مرةً أخرى بعدما ألتقينا في القطار الخريف الماضي، فقد رأيتُ في عينيك مدى احتقارك لي، ولم أكن أعرف كيف يمكنني أن أغير رأيك بي. إنك محق إلى حدٍّ ما. أنا مترهلٌ قليلًا، ولستُ لائقًا جسدًا وذهنًا. ولكنك مخطئ في أهم نقطة. أنا لم أحنث يومًا بقَسَم أو أتخاذل عن واجب. ولا أنوي أن أبدأ بفعل ذلك الآن. إذا كانت قصة هارالدسن حقيقية، فأنا ملتزم بتعهدي، ومتورط في الأمر حتى أذنيَّ، مثلك تمامًا. وإذا لم تتفق معي على ذلك، فتنحَّ جانبًا وسأضطلع بالأمر وحدي.»

شعرت بالدم يندفع إلى وجنتيَّ. نهض لومبارد من مقعده، وفعلت المثل، ووقفنا نحدق أحدنا في الآخر عبر سجادة المدفأة. ورأيت في ملامحه ما لم أره على الإطلاق خلال لقائنا السابق، الإصرار العنيد والصدق البرَّاق. وبغض النظر عن صلعِه، وبدانته، وعينيه الدامعتين، وصوت أنفاسه الثقيلة، بدا أصغر مما هو عليه بعشرين عامًا. ورأيت فيه ذلك الشاب الذي عرفته في المنطقة الاستوائية، وشعرت كما لو أني قد استعدت صديقًا قديمًا فجأة.

قلت: «فلتنسَ ما كنت أعتقد. إذا ما كنت أعتقد فيك مثلما تقول، فقد ارتكبت خطأً شنيعًا، ولن أتمكن أبدًا من أن أوفيك حقك من الاعتذار. سنستأنف صداقتنا من حيث توقفت في قرية مافودي، وسنخوض هذا الأمر معًا حتى نهايته.»

اختفى كل الغضب من ملامح لومبارد.

وردد: «مافودي. نعم، هذا هو الاسم. لم أستطع النوم ليلة أمس محاولًا تذكره.»

كان ثمة أمران عليَّ التفكير بهما ذلك المساء. أولهما اكتشاف أن لومبارد الذي أعرفه لا يزال موجودًا. منحني هذا الاكتشاف سعادة غامرة، فقد بدد الشك الذي ظل يراودني طوال الشتاء بأني قد أصبحت مُسنًّا وأن شبابي بأكمله قد ذهب دون رجعة. إذا كان ذلك الرجل البدين الثري لا يزال مُفعمًا بالحيوية، فلا يمكن أن تكون قد خمدت بالكامل في داخلي. كان هارالدسن ثاني الأمرين، ولا أنكر أني شعرت بالكآبة عندما تذكرت أن ساندي كلانرويدن قد أحضر لي الأسبوع الماضي أخبارًا عنه من أقصى الشرق، أخبارًا لم تصلني إلا مصادفة. وراودني شعور غريب بأن كل ما حدث كان من تصاريف القدر.

اتصل بي لومبارد ليخبرني بأن ذلك «السيد بوزورث» سيحضر إلى ناديَّ في تمام الثامنة. جلست في غرفة التدخين بمفردي أنتظر وصول ضيفي، وتذكرت محاولتي تخيُّل الرجل الذي سألتقيه، ومحاولتي إعادة تجسيد نسخة أصغر من هارالدسن العجوز.

تلقيت واحدةً من أقوى الصدمات في حياتي عندما ظهر. فقد كان هو نفسه سميث الذي التقيته وبيتر جون في نزل «روز آند كراون» في هانام.

لم يكن وقع المفاجأة عليه أقل من وقعها عليَّ.

فصاح قائلًا: «أنت! حمدًا لله، لقد عثرت عليك. لم أتخيل أبدًا أنك أنت من أبحث عنه ...»

قلت: «لقد سمعت اسمي في هانام.»

«نعم، ولكني كنت أبحث عن مهندس جنوب أفريقي يُدعَى ديك هاناي. ولكني لم أرَ فيك سوى نبيل أو جنرال إنجليزي. لقد أُعجبت بك كثيرًا حينئذٍ، لا أذكر متى أُعجبت برجل لهذه الدرجة من قبل، فقد رأيت أنك تملك الكثير من الحكمة والعطف. ولكني لم أتخيل أنك ديك هاناي الذي أبحث عنه.»

قلت: «إنه أنا. لقد التقيت لومبارد، وعليه، فإن اثنين من أصدقاء والدك أصبحا معك. أما الثالث، الأفضل بيننا، فقد مات.»

تلعثم الرجل قائلًا: «هل ستكونان في ظهري؟»

قلت: «بالتأكيد. يمكنك أن تعتمد علينا. أخبرني لومبارد بذلك عصر اليوم.»

كان من الرائع رؤية تأثير هذه الكلمات عليه. كما قلت سابقًا، كان رجلًا ضخم الجثة، ولكن كانت كتفاه منحنيتين كما لو أنه يخشى حجمه، وكان أسلوبه خجولًا ومرتبكًا، وكأنه شيء ضخم يحاول الاختباء خلف شيء صغير جدًّا. كان لافتًا للنظر في هانام، أما في لندن فكان عنصرًا شاذًّا لا يتفق مع الصورة العامة. كان انطباعِي الأول عنه عندما دخل إلى الغرفة أنه كائن غير مناسب لبيئته المحيطة، أو بمعنًى أصح، غير واضح المعالم، صمم بمقياس خاطئ. ولكن، مع استعادته لثقته، أصبح طبيعيًّا في نظري، ورأيت أن انطباعي السابق عنه بأنه ريفي كان خطأً. فقد بدا في بدلة السهرة عتيقة الطراز التي يرتديها أكثر شبهًا بدارس وليس بمزارع كما ظننته من قبل. كان حاجباه عريضين ومرتفعين، وعيناه تبدوان كما لو كانتا قد قضتا وقتًا طويلًا في القراءة.

أخبرني هارالدسن الابن قصته أثناء العشاء. لم يرَ الرجل والده منذ ثماني سنوات، وانقطعت عنه أخباره منذ ثلاث سنوات، ولكن بدا جليًّا أن والده هو صاحب التأثير الأكبر في حياته. كان قد نشأ منذ نعومة أظفاره وفقًا لخطة. فبينما كان هارالدسن الأب يجوب العالم شرقه وغربه، بقي الابن في أوروبا يعد نفسه للمهمة التي كان الأول يجمع ثروته من أجلها. كان يُجهز ليقود شعوب الشمال إلى مستقبل جديد، وخضع منذ سن صغيرة

لتدريبات قاسية. كان عليه أولًا أن يحفظ جميع تعاليم شعوب الشمال عن ظهر قلب، وأن يتشرب روحانياتهم. ثم كان عليه أن يحفظ كل ركن في الشمال وأن يتعرف على جميع شعوبه. بعد ذلك، كان عليه أن يتلقى تدريبًا رفيع المستوى على إدارة الأعمال وأن يتعلم كيفية التعامل مع الشئون الضخمة. وبدا أن الرجل العجوز كان يطمح في أن يكون ابنه مزيجًا من سير والتر سكوت وبسمارك وسيسيل رودز.

لا شك في أن خطته لم تنجح؛ فهذا النوع من الخطط لا ينجح أبدًا. فقد تعثَّر الصبي فالديمار (اسمه الأول كان فالديمار) في ذلك المنهج الهائل، فقد كان مثل عجينة سهلة التشكيل بين يدي والده، ولم تكن نتيجة هذه التنشئة أن يصبح مثل أدميرابل كريشتون مثلما تمنَّى والده. كان أن تلقَّى دراسته الجامعية في جامعات الدنمارك وألمانيا، وعمل لعامين في أحد مصارف كوبنهاجن، وجاب أراضي الشمال من جرينلاند غربًا إلى البحر الأبيض شرقًا، حتى إنه سافر إلى سبيتسبرجن بعدها، ولم تتبقَّ الكثير من الأماكن في إسكندنافيا وجزرها لم تقع عليها عيناه الضعيفتا الملاحظة. ولكنه فعل كل ذلك من منطلق الواجب، فلم يكن يملك حماسة والده. لا شك في أنه أصبح مثقفًا، ومحبًّا للطبيعة، ولكن لا شيء غير ذلك. كان يريد أن يعيش حياة هادئة، ولم يكن مستقبل شعوب الشمال يمثل له أكثر من مجرد قصة خيالية على وشك السقوط في غياهب النسيان.

كان فالديمار هارالدسن في السادسة والعشرين من عمره، شاب قوي البنيان، يملك قدرًا كبيرًا من المعارف النادرة، ولكن دون طموح يفوق طموح حيوان الخلد. استنبطت أن الأب قد أصابه الإحباط، ولكنه استغل الوضع أفضل استغلال. كان ابنه لا يزال حديث السن؛ لذا ما زال يحدوه الأمل، فلا بد أن تطرح هذه النبتة العجفاء أيَّ ثمار. أدركت أن والدته تعود أصولها إلى جزر نورلاند، ابنة سلالة قديمة يطلقون عليها هناك اسم حاشية الملك. ورثت الوالدة جزيرة عن عائلتها بنى عليها هارالدسن الأب بيتًا خلال إحدى فترات إقامته الطويلة في أوروبا. بدا وكأن هذا المنزل قد أصبح إحدى هواياته الفرعية، فقد أنفق الكثير من المال عليه وملأه بأثاث وتحف على الطراز الشمالي. ووافق على أن يقيم فيه فالديمار، بعدما تزوج الصبي بموافقته، فلا شك في أنه كان يعتقد بأن الروح المسيطر على المكان سوف يخبره بشيء ما. ولكن آلت الزيجة إلى نهاية مأساوية، فقد ماتت الزوجة الشابة وهي تلد طفلتهما الأولى.

سألتُه عن الطفلة.

فقال: «إنها على قيد الحياة وبخير. لقد بلغت الثالثة عشرة من عمرها. وهي تدرس في إحدى المدارس في إنجلترا.»

ظل فالديمار مقيمًا في جزيرته المنعزلة، واستنبطت من حديثه أنه أصبح منغلقًا على نفسه، ونادرًا ما اتجه جنوبًا، وشغل وقته بهواياته التي كانت في الأساس التاريخ الطبيعي والبحث في التأثير المتبادل بين الشمال القديم والشعوب السلتية.

قال بصوته الرخيم: «ولكني كنت سعيدًا. لا شك في أني كنت قلقًا على والدي، فلم يكن يأتي لزيارتي، ولم يكن ليسمح لي بزيارته. ولكن، كانت ابنتي آنا رفيقتي حتى وصلَت إلى سن المدرسة، ثم أصبح منزلي وكتبي ومملكتي الصغيرة رفاقي. وكنت أتمتع بصحة جيدة وبال مرتاح.»

سألته: «هل أنت ميسور الحال؟»

ظهرت نظرة معذَّبة في عينيه، كما لو أن ذهنه كان يفكر في أمور مبهجة ثم استحضر الآن أمرًا مريعًا.

ثم قال بهدوء: «أعتقد أني ثري جدًّا. لا أعلم مدى ثرائي، فلم يكن المال ضمن اهتماماتي أبدًا. ثمة مصرفيون في كوبنهاجن يهتمون بهذه الأمور من أجلي، ويقولون لي إني لست بحاجة إلى أن أقتر على نفسي.»

فكرت في حظ هارالدسن الأب العَسِر الذي ظل يجمع ثروة من أجل ابن لم يرغب أبدًا في أن يعرف حجمها.

قلت: «حسنًا، أعتقد أن الصورة وصلتني. لقد كنت راقدًا في جزيرتك بهدوء بينما كان والدك يبحث عن الثروة في أقاصي الأرض. ماذا حدث الآن؟ ما المشكلة؟»

قال ببطءٍ والألم يملأ عينيه مجددًا: «المشكلة هي أني فقدت راحة بالي.»

ثم قص عليَّ القصة الآتية التي تخللتها فترات صمت طويلة بدا خلالها وكأنه يبحث عن الكلمات المناسبة ليقولها.

قبل عامَين، وصل إليه خطاب من شركة محاماة في لندن مفاده أنهم يراسلونه نيابةً عن أحد عملائهم رفع دعوى على والده، وسألوه عن عنوان والده. فرد عليهم قائلًا إنه لا يعرف مكان والده، ولم يعِر الأمر المزيد من الاهتمام. ثم وصل إليه خطاب آخر يسأله عما إذا كان والده حيًّا أم لا، ورد عليهم هارالدسن دون تأخير قائلًا إنه لا يعرف إذا كان والده حيًّا أم ميتًا، ولكنه يأمل في أن يكون حيًّا. بعد ذلك، أُبلغت بأن ثمة دعوى قضائية ستُرفع، وإذا لم يظهر والده، فستكون ثمة محاولة لاعتباره ميتًا، ومن ثم تتحول المطالبة إلى تركته. لم أفهم تفاصيل الدعوى القضائية، ولم يكن فالديمار يفهمها بوضوح أيضًا. كان الأسلوب في جميع المراسلات بين الطرفين متحضرًا تمامًا، إلا أن الخطاب الأخير سبَّب له صدمة قوية، فقد أفصح فيه المحامون عن أن عميلهم هو السيد لانسلوت تروث.

كان لدى فالديمار الكثير من أوراق كتبها والده، والتي كان يلاقي الأَمَرَّين في قراءتها وتنظيمها، وضمن هذه الأوراق، كان ثمة توثيق للأيام التي قضاها في أفريقيا، وخاصةً أيام عمله الأولى في مقاطعة راند. وظهر اسم تروث في بعضها. كان تروث شريكًا لهارالدسن الأب في فترة من الفترات وحاول الاحتيال عليه. وكانت ثمة مواجهة قوية بينهما انهزم تروث خلالها، ولكن كان هارالدسن واثقًا من أنه سيعود ويسبب الكثير من الضرر. فاهتم بتدوين كامل تفاصيل الحادثة، وقال فالديمار إن ما كتبه والده خلَّف لديه انطباعًا بأنه على الرغم من خسة تروث، فربما كان لديه بعض الحق، ولهذا السبب كان ضمير والده يؤنبه إلى حدٍّ ما.

وكان ضمن هذه الأوراق أيضًا رواية كاملة عما حدث عند تل الفهد الأزرق، وكيف أنه جعل ثلاثة رجال، لومبارد، وبيتر بينار، وأنا، نتعهد بالوقوف إلى جانبه هو وابنه إذا ما وقعت أي متاعب أخرى لنفس السبب. الغريب في الأمر هو أنه لم يذكر أن تروث قُتِل خلال المعركة. وبدا أنه يعتنق الفكرة الملحمية عن أن الانتقام يورث من جيل إلى الذي يليه، وأن ابن تروث، إذا كان لديه ابن، قد يعود ليقتصَّ من ابنه. كما ذكر ألبينوس أيضًا، الذي كان شخصية ثانوية خلال المواجهة الأولى في مقاطعة راند، ولكنه أصبح شخصية محورية خلال المواجهة في مافودي.

لذا، عندما رأى فالديمار اسم تروث في خطاب شركة المحاماة، بدأ يشعر بالقلق. أدركتُ أن والده كان يشعر بقلق شديد من هذه الحادثة، وفعل كل ما بوسعه ليحذر ابنه. وبذل فالديمار قصارى جهده ليبعد الأمر عن تفكيره، ولكنه لم ينجح في ذلك. ثم وصل إليه خطاب مُوقَّع من لانسلوت تروث أرعبه كثيرًا. لم تكن الخطابات التي أرسلها المحامون سوى طلقات اختبارية، والآن، بدأت الأسلحة تطلق نيرانها لتصيب.

قال لانسلوت تروث في خطابه إن والده تعرض لإجحاف شديد من هارالدسن الأب، وأنه يطالب بالتعويض. فإذا ما مات الأب، أو فُقِد في مكان ما من العالم، فعلى الابن التعويض، فقد تأكد من أنه فاحش الثراء. وإذا ما عومل لانسلوت بإنصاف، فلن يلاقي هارالدسن الابن ما يكره؛ إذ إنه كان مقتنعًا بأن أي رجل عاقل سيرى أن طلبه مشروع. واقترح أنه يجدر بهما أن يلتقيا في كوبنهاجن أو لندن، وأن يحضر فالديمار مستشارًا من طرفه، بينما سيحضر تروث شريكه، السيد إيريك ألبينوس، الذي كان شريكًا في مطلبه. ولم يتطرق في خطابه إلى أي إجراءات قانونية. بل كان طلبًا شخصيًّا مباشرًا عليه أن ينقاد له وينفذه.

شعر فالديمار بكآبة شديدة، ولأنه لم يكن يملك خبرةً كبيرة في الحياة، كان من المرجح أن يرتكب حماقة؛ أن يلتقي تروث، ويوافق على شروطه؛ ومن ثَم يضع نفسه تحت رحمته لما تبقَّى من حياته. ولكن، من حسن حظه أن التقى رجلًا إنجليزيًّا ذهب إلى نورلاندز هذا الصيف من أجل الصيد، وتطرق الحوار بينهما إلى بعض الأسئلة الغامضة ذكر خلالها اسم تروث. وكان الرجل الإنجليزي محاميًا معروفًا وكان أغلب مرافعاته أمام محكمة أولد بايلي، وأخبره بالكثير عن تروث، ولكنه لم يسمع أبدًا عن ألبينوس. خلَف تروث والده محاميًا، واكتسب سمعةً مريبةً جدًّا. وصفه الصياد بأنه رجل لا يتورع عن فعل أي شيء، ولكنه كان ماهرًا بما يكفي لتبدو جميع أعماله قانونية. وكان الرجل يعتقد أنه أصبح على مشارف الإفلاس، فقد شارك بارالتي في تأسيس شركة حيد لبشا، ولكن بدأت الأمور تنحو منحًى سيئًا. قال الرجل الإنجليزي: «أنا أكره هذا الرجل، ولكني لا أجرؤ على العبث معه. فهو يملك عينَي قناص، وفك ملاكم.»

فتح هذا الحديث عينَي فالديمار على الخطر المحدق به. وكان حصيفًا بما يكفي ليدرك أن ما يحدث معه عملية ابتزاز كبيرة، وستؤدي أي أموال يدفعها إلى المزيد من عمليات الابتزاز حتى يفلس تمامًا. لم يعد يستطيع النوم، وأصبح قلقًا لدرجة المرض، فلم يكن قادرًا على تقرير الخطوة التالية التي يجب أن يُقدم عليها.

وبينما كان لا يزال يفكر في الأمر، وصل إليه خطاب آخر من تروث. قال في الخطاب إن السيد هارالدسن لم يعد بحاجة إلى التوجه جنوبًا، فمُرسل الخطاب بصدد التوجه إلى نورلاندز في يخت صديقه السيد بارالتي. وعرض أن يلتقيا في يالمارزهافن بعد ثلاثة أسابيع.

دفع هذا فالديمار لأن يتصرف بسرعة. فلأنه يعيش بمفرده على جزيرته، أصبح تحت رحمة أي عصابة من المجرمين تقرر أن تُغير عليه. وجعله جهلُه بكيفية سير العالم من حوله يتخيل أمورًا مريعة. كان يتوقُ إلى مجتمع إنساني، جماعة من الناس يمكنه أن يختفي وسطها. فخبأ أوراقه وبعضًا من ممتلكاته الثمينة، وأغلق منزله، وترك الجزيرة في عُهدَة مدير منزله، وفرَّ من نورلاندز ومعه ابنته. وترك عنوانًا في كوبنهاجن ليتم توجيه الخطابات إليه، ولكنه لم يكن ينوي التوجه إلى هذا العنوان، فهو معروف في الدنمارك ومن السهل تحديد هويته. وشد الرحال إلى لندن حيث سيكون مجهولًا تمامًا.

وصل تروث وصديقه إلى نورلاندز في الوقت الذي حدداه. وزارا جزيرة الخراف — هذا هو اسم جزيرة فالديمار — وعندما وجداها خالية، فتشا محتويات المنزل، مثلما قد

يفعل أي قرصان قادم من البحر. ولكنهما لم يسببا أي أذى، فقد كانا يمارسان لعبة أهم. وصلت أخبار ما حدث إلى فالديمار من خادمه الذي أرسل الخطاب أولًا إلى مصرفه في كوبنهاجن، ومنه إلى صديق في السويد، ثم أُرسل في نهاية المطاف إلى عنوانه في إنجلترا. أدخل فالديمار ابنته مدرسة إنجليزية، وظل يجوب أنحاء البلاد مُطلِقًا على نفسه اسم سميث من بين أسماء أخرى، ولم يبقَ في مكان واحد لفترة طويلة. سمع عن انهيار شركة حيد لبشا والصعوبات المالية التي يمر بها بارالتي، وأدرك أن هذه الظروف الجديدة ستجعل العصابة أكثر جدًّا في اقتفاء أثره. وصلته خطابات من تروث — ثلاثة على ما أعتقد — وكان الخطاب الأخير هو ما أفزعه. قال تروث في الخطاب: «من الواضح أنك ترفض لقائي، كما أنك لذت بالفرار، ولكن لا تتخيل أنك تستطيع الهروب مني. سألاحقك حتى أمسك بك، وإن كان ذلك يتطلب مني التخلي عن حياتي، وسيتضاعف الثمن الذي عليك دفعه في كل شهر أنتظره.» أصبح الأمر سرقة الآن، سرقة علنية.

لم أصدق هذه القصة برمتها، ولكن كان ثمة أمر واحد لم أتمكن من التشكيك فيه؛ أن فالديمار كان يصدقها، وكان يتصبب عرقًا من الرعب. ذلك الرجل الضخم الجثة، الذي يجدر به أن يسير في الحياة مختالًا، تبدو عيناه كعينَي غزال مُطارَد.

قلت: «إنك تعيش في جحيم يا رجل! لا يمكنك العودة إلى منزلك بسبب تهديد أولئك المجرمين! حسنًا، أنت آمن تمامًا هنا، ويمكنك أن تريح بالك حتى نفكر في خطة ما.»

قال مكتئبًا: «لست آمنًا هنا. كنت أعتقد في البداية ألا أحد يعرفني في إنجلترا. ولكني كنت مخطئًا. إن لديهم أوصافي — صور — من نورلاندز ومن كوبنهاجن. وعثروا على أشخاص يمكنهم التعرف عليَّ ... رأيت في الشارع ذات يوم حلاقًا من الدنمارك اعتاد أن يحلق لي لحيتي، وتعرف عليَّ وحاول أن يتبعني. إنه رجل فقير، ولم يكن ليحضر إلى هنا من تلقاء نفسه. ثمة مَن أحضره إلى لندن. إن الخناق يضيق عليَّ، وأعلمُ — من الكثير من التفاصيل الصغيرة — أنهم أصبحوا قريبين مني جدًّا. إني أغير مسكني طوال الوقت، ولكني أشعر بأني لن أتمكن من الهرب منهم أكثر من ذلك. أنا يائس جدًّا؛ لذا بدأت البحث عن أصدقاء والدي.»

كان يجلس مكوَّمًا على نفسه في مقعده، مسندًا ذقنه إلى صدره، كان تجسيدًا حيًّا للعجز واليأس. وأدركت أني ولومبارد سنلاقي الأَمَرَّين معه. وبينما كنت أنظر إليه، راودني شك مقلق بأن قصته ربما كانت محض هراء، هلوسات شخص وحيد مضطرب، وتمنيت لو أني لم أسمع به. إن الوفاء بوعدٍ شيءٌ، ولكن رعاية مجنون شيء مختلف تمامًا.

قال بصوتٍ كئيب: «أنا لا أخاف على نفسي فقط. بل أخاف على ابنتي الصغيرة. إني لا أجرؤ على زيارتها خشية أن يتبعوني إليها. قد يختطفونها، وحينئذٍ لا شك في أني سأُصاب بالجنون.»

لم أجد ردًّا على ما قال، فذكر الاختطاف عادةً ما يجعلني أجفل. فقد رأيت الكثير منه خلال مواجهتي مع مدينا، التي كتبت عنها بالفعل.[1]

واصل فالديمار حديثه قائلًا: «وكذلك أبي. قد يذهب في أي لحظة إلى نورلاندز أو يأتي إلى إنجلترا، ولن يمكنني تحذيره.»

قلت بلطف: «لستَ بحاجة إلى أن تقلق حيال ذلك. فقد تُوُفِّي والدك منذ عامين في مكان يُدعى جوتوك يقع في التبت الصينية.» وقصصت عليه باختصار ما أخبرني به ساندي كلانرويدن.

من المستحيل أن ترى تغيُّرًا يطرأ على رجل يشبه التغير الذي طرأ على فالديمار. فقد بدا وكأن الخبر جعله يتمالك نفسه وأشرقت عيناه. فبالنسبة إليه لم يكن هذا الخبر حزينًا، بل مريحًا.

ثم ردد قائلًا باللاتينية: «لقد عثرت على الكنز.» ثم استدرك: «لقد نجح إذن، ومات سعيدًا. لا يمكنني أن أحزن عليه، فقد أنهى حياته العظيمة بطريقة عظيمة.»

أسند فالديمار ذقنه على يده مفكِّرًا، وفي تلك اللحظة، تملكتني واحدة من تلك القناعات الغريبة المنافية للعقل التي اعتدت على تقبلها، فلم أكن أراها خطأً أبدًا. إن فالديمار هارالدسن عاقل مثلي تمامًا، ولكنه في خطر محدق. صدقتُ ضمنيًّا كل كلمة من قصته، وكان التزامي بمساعدته واضحًا كالشمس. كان همي الأول هو أن أخفيه في مكان ما دون أن يراه أحد.

فسألته أين يسكن، وما إذا كان واثقًا من أن أحدًا لم يتبعه إلى هنا. فقال إنه لم ينتقل إلى مسكنه الجديد إلا منذ يومين فقط، وإنه واثق من أنه آمن في الوقت الحالي. ثم أضاف في حزن: «ولكن، ليس لوقت طويل.»

فقلت: «عليك أن تتركه إذن. ستجمع أغراضك غدًا. وستأتي لتقيم معي لبعض الوقت. سأستقل قطارًا مبكرًا حتى لا يرانا أحد معًا. ارتدِ أقدم ملابس لديك، واستقل

[1] في رواية «الرهائن الثلاث».

عربة الدرجة الثالثة، سأرسل إليك حاجبي ليستقبلك، وسيحضرك إليَّ في السيارة الفورد القديمة. وسيظل اسمك بوزورث.»

حددت موعد القطار الذي سنركبه، وقدمت له مشروب الويسكي والصودا، ولكنه رفضه، وراقبته وهو يمشي متثاقلًا في اتجاه مسكنه الذي يقع في حي بيزووتر. كان أشبه بمُزارع استعار من والده بزته القديمة، وكان هذا تحديدًا هو الدور الذي أردت منه أن يؤديه. اتصلت بعد ذلك بماكجيلفري في منزله في شارع ماونت ستريت، ووجدته هناك بالفعل، فذهبت للقائه.

الفصل السادس

أحداث عدة في فوسي

وجدت ماكجليفري يقرأ كتابًا يونانيًّا واضعًا قدمَيه على رف المدفأة التي انطفأت النيران في داخلها. كان رجلًا مثقفًا يواظب على قراءة الكلاسيكيات. ومن بين جميع أصدقائي، كان أقل من ظهرت عليه آثار الزمن. فكان رأسه الصغير ذو الشعر الأسود، ووجهه الطفولي الرقيق لا يزالان على حالهما كأنْ لم يمر عشرون عامًا. لم أكن قد رأيته منذ شهور، فرحب بي بحرارة، ورن الجرس لخدمه ليحضروا لي البيرة التي يعلم جيدًا أني أحبها كثيرًا، وأجلسني في أفضل مقعد وثير لديه.

سألني: «لمَ شرفتني بزيارتك؟ هل من أجل الصداقة أم العمل؟ هل تُقت فجأة لصحبتي، أم أنك في مأزق وتريد مني أن أساعدك؟»

قلت: «كلاهما. ولكني جئت من أجل العمل في المقام الأول.»

«هل هو عمل لصالح شرطة سكوتلاند يارد؟»

«لا، ليس بعد على أية حال. أنا بحاجة إلى بعض المعلومات. أنا على وشك التورط في أمر قبيح.»

فأطلق صافرة. وقال: «إنك لا تتورط إلا في أكثر الأمور قبحًا. ما الأمر؟»

قلت: «ابتزاز.»

«هل ثمة مَن يبتزك أنت؟ لا بد أنه مبتز جريء ليفكر في ابتزازك.»

«لا، بل يبتز صديقًا لي. صديق لا حول له ولا قوة سيُجن جنونه إذا لم يجد دعمًا.»

«حسنًا إذن، أخبرني بقصته.»

قلت: «ليس الآن. إنها مسألة خاصة أفضل أن احتفظ بها لنفسي لبعض الوقت حتى أرى كيف ستتكشف الأمور. كل ما أريده منك هو الإجابة عن بعض الأسئلة.»

فضحك. وقال: «لطالما كان هذا أسلوبك يا ديك. إنك دائمًا ما تتبع الحكمة القائلة «اكتم سرك تملك أمرك.» إنك لا تبلغ شرطة سكوتلاند يارد إلا بعدما تنتهي الأحداث الجنونية.»

قلت: «لقد ساعدتك كثيرًا فيما مضى.»

«هذا صحيح. ويمكنك أن تعتمد علينا دائمًا لنبذل أقصى ما في وسعنا.»

ثم علت الجدية وجهه فجأة.

وقال: «سأخاطبك كما لو كنت جِدًّا يا ديك. أنت لا تشيخ كما ينبغي.»

قلت: «أنا أشيخ بسرعة كبيرة جدًّا.»

«لا، هذا ليس صحيحًا. جميعنا نشيخ دون شك، ولكنك لا تكتسب مزايا التقدم في العمر. فلا تزال ثمة حماقة متأصلة فيك. لقد كنت مختفيًا مؤخرًا، وكنت آمل أنك قد استقررت إلى الأبد. فكر في الأمر. أنت متزوج ولديك ابن صغير. لقد صنعت لنفسك ما يمكنني أن أسميه حياةً سعيدة. ولا أريدك أن تدمرها لمجرد أنك لا تشعر بالراحة. وإذا كانت مشاركتك في هذا الأمر بسبب توقك للمغامرة، فنصيحتي لك كصديق هي ألا تفعل.»

التقط ماكجيلفري الكتاب الذي كان يقرؤه.

وقال: «اسمع هذه الكلمات. كتبها هيرودوت. وهي النصيحة التي جعل أحمس يسديها لصديقه بوليكراتس. سأترجمها لك. «اعلم أن الآلهة تغار، فأنا لم أسمع أبدًا عن رجل ناجح طوال الوقت، إلا وكان مصيره الهلاك في نهاية الأمر.» هذه نصيحة تستحق التفكير. لقد كنتَ محظوظًا جدًّا، ولكن لا تحاول اختبار حظك بهذه الطريقة المبالغ فيها. وتذكر أن الآلهة تغار.»

أجبته قائلًا: «أنا لن أشارك في هذا الأمر من أجل المتعة. فثمة التزام شرفٍ لا يمكنني التملُّص منه.»

«في هذه الحالة لا يمكنني جدالك. اطرح أسئلتك.»

«هل تعرف شيئًا عن شخص يُدعَى ألبينوس، إيريك ألبينوس؟ إنه رجل في مثل عمري تقريبًا، دنماركي المولد عاش في أمريكا، وأعتقد أنه عاش في أماكن أخرى من العالم؟ كما أنه يشارك في أعمال مشبوهة.» وأعطيته أفضل وصف ممكن للهيئة التي كان عليها ألبينوس منذ ثلاثين عامًا، وكيف من المفترض أن يبدو حاليًّا.

هز ماكجيلفري رأسه نفيًا. وقال: «لا أعرفه. سأكلف مَن يبحث عنه في سجلاتنا، ولكن على حد علمي، لا أعرف أحدًا بهذه الأوصاف. كما أني لا أتذكر هذا الاسم بكل تأكيد.»

«حسنًا إذن، ماذا عن رجل يُدعَى لانسلوت تروث؟»

فقال: «ها قد وصلنا إلى منطقة مألوفة بالنسبة إليَّ. أنا أعرف الكثير عن تروث. أعتقد أنك تعني المحامي، أليس كذلك؟ إنه ينتمي إلى شركة استمرت لأجيال عدة ولكنها لم تكتسب أبدًا سمعة محترمة. كان والده محتالًا مات منذ سنوات في مكان ما من أفريقيا. كان هذا قبل أن أتولى مهام منصبي، ولكن كان علينا خلال السنوات العشر الأخيرة أن نراقب أنشطة الابن. إنه يعمل على حدود صفقات تمويل مشبوهة، ولكنه لم يتخطَّ هذه الحدود حتى الآن، رغم أنه يحتاج في بعض الأحيان إلى من يُعيده إلى الطريق القويم. عمله الرئيس هو تأسيس الشركات، وهو ماهر جدًّا في استغلال جميع ثغرات قانون إنشاء الشركات الفوضوي. اعتقدت أننا قد نلنا منه ذات يوم بسبب شركة لبشا، ولكن قيل لنا إنه سيُبرَّأ من التهم. كما أنه يعمل في العديد من المجالات الجانبية؛ فهو يؤدي الكثير من الأعمال لصالح مهراجات هنود تحوم حولهم الشبهات من وقتٍ لآخر، وجمع ثروة كبيرة من سباقات الكلاب السلوقية في بداية حياته، كما أنه مقامر قدير وناجح إلى حدٍّ ما، كما يُقال. ثري! ليس فاحش الثراء. إنه يكون موسرًا أحيانًا ومعسرًا في أحيانٍ أخرى، إنه يعيش من أجل المتعة، وهذا أصبح مكلفًا في عصرنا الحالي.»

سألت ماكجيلفري عن شكلِه فوصفه لي. إنه رجل في بداية الأربعينيات من عمره، قوي البنية، ذو وجه مربع حليق كحالِ من يعملون في مهنته. كان شيئًا وسطًا بين محامٍ بالمحكمة العليا ومدرب خيول سباق.

أضاف ماكجيلفري قائلًا: «إنه لا يترك لديك انطباعًا سيئًا عندما تلتقيه للمرة الأولى. فهو ينظر إليك مباشرةً وترى أن عينيه جميلتان. خلال المرات التي التقيته فيها، أُعجبت به كثيرًا. إنه رجل صلب دون شك، ولكنه جيد التنشئة. يمكنني أن أتخيله يناصر أصدقاءه بكل ما أوتي من قوة، وسمعت بالفعل أنه يفعل أمورًا تنم عن كرم أخلاقه. كما أنه يمارس رياضة الصيد؛ فهو يملك زورقًا وزنه ٦ أطنان، وعادةً يُرَى في أمسيات الجمعة خارجًا من مكتبه في المدينة مرتديًا ملابس قديمة واضعًا عدة الصيد في حقيبة قماشية. إذا كانت مشكلتك تتعلق بالابتزاز يا ديك، وكان تروث متورطًا في الأمر، فلن تكون مشكلة عادية. ربما كان الرجل لصًّا، ولكنه ليس من نوعية اللصوص المتسللين.»

سألت ماكجيلفري بعد ذلك عن اسم بارالتي، وعندما سمع الاسم ظهر الاهتمام جليًّا على وجهه. ثم أطلق صافرةً، وبدا على وجهه ذلك التعبير الذاهل الذي يعني دائمًا أن عقله أو ذاكرته تعمل بأقصى طاقتها.

ثم ردد: «بارالتي. أتدري يا ديك، إنك بارع بطريقة غير عادية في اجتذاب الأشخاص المثيرين للاهتمام؟ فلطالما تعلقت استشاراتك لي بأناس يثيرون فضولي أنا أيضًا. بارالتي؛ جوزيف باناتين بارالتي! سيتطلب وصف هذا الرجل الغامض شخصًا أكثر فصاحةً مني. هل التقيته من قبل؟»

قلت إني لم أفعل؛ ولم أسمع اسمه قبل ذلك اليوم.

«كيف يمكنني أن أصفه؟ إنه يشبه، إلى حدٍّ ما، عقيدًا متقاعدًا في الجيش ويسكن في ضواحي شلتنهام. طويلُ القامة إلى حدٍّ ما، نحيل، ذو أنف كبير، وعظمتَي وجنتين بارزتين، يرتدي دائمًا ملابس فاخرة من القطن الناعم أو الصوف، ويبلغ من العمر حوالي خمسين عامًا. كما أن له شاربًا شابت أطرافه يعطيه مظهرًا بريئًا. هذه هيئة واحدة من هيئاته؛ هيئة النبيل الإنجليزي الريفي. ثمة هيئة أخرى له، وهي هيئة دون كيشوت؛ نفس تلك الملامح غير الواضحة، ونفس هاتين العينين الحزينتين، ونفس مظهر الضياع العام الذي يقترن دائمًا بالدون. يبدو جذابًا، أليس كذلك؟ نصف مغامر ونصف محامٍ؟ ولكن، ثمة هيئة ثالثة؛ لقد رأيته في هيئة شديدة القبح. في هذه الهيئة، أصبحت عيناه الشاحبتان قاسيتَين وباردتين، ولم تعد ملامحه تشبه البشر، وبدا شاربه المرقط بأطرافه البيضاء أشبه بأنياب خنزير قذر ... أعتقد أنك أدركت أني لا أطيق السيد بارالتي.

ثم واصل حديثه قائلًا: «ولكني لا أفهمه. بادئ ذي بدء، دعني أوضح لك أننا لا نملك دليلًا ضده. لقد شارك في شركة لبشا، ولكن لم يكن ثمة أي تلميح ينال من شخصيته. إنه يتصرف بطريقة سليمة، وربما سيرد لجميع دائنيه أموالهم كاملة، فلا بد أن يعود ليعتلي القمة مرة أخرى. لقد مر بأوقات نجاح وفشل، ومثلما هو حال جميع العاملين في عالم المال والأعمال، كان عليه التعامل مع شخصيات مثيرة للشبهات، ولكن سمعته هو لا تشوبها شائبة. لا يبدو عليه أنه يهتم بالمال مثلما يهتم بالعمل نفسه. ولكن، لا أحد يطيقه، وأشك في أن كثيرين يثقون به، ولكن لم يختلف أحد على قدراته. وإذا ما وجدت رجلًا لا يحبه الناس دون سبب وجيه، فيمكنك أن تفترض أن ثمة شيئًا فاسدًا يتعلق به دون أن يلومك أحد. لديَّ الفرضية نفسها في حالة بارالتي، ولكني لا أستطيع تحديد ذلك الشيء الفاسد فيه، أو أجد مبررًا لهذه الفرضية عدا أني أرى من وقت لآخر أنه يشبه الشيطان.»

سألته عن مهنته.

«إنه سمسار أسهم، وأسس شركته التي يعمل فيها بمفرده. واهتماماته؟ ليست مالية على الإطلاق؛ فقد صرَّح علانية أنه يحتقر أعمال تدوير الأموال. وقال إنه يعمل

فقط من أجل الحصول على المال لإنفاقه على الأشياء التي تهمه. وما هي هذه الأمور؟ حسنًا، كان من بينها الإبحار باليخوت. عندما كان في أوج قوته، كان يمتلك يخت تيلما؛ يختٌ فريد من نوعه بوزن ستمائة طن، وربما كان هو السبب في التعارف الأول بينه وبين تروث. كما أنه رجل مثقف من طراز رفيع، لا يكل ولا يمل من معرفة المزيد. وهو شيوعي نبيل. مفكر لا ينسى حلاقة لحيته. كما أنه راعٍ لجميع الصيحات الجديدة في الرسم والنحت والكتابة. إنه يترفع عما يعجب الأشخاص العاديين مثلي ومثلك، ولكنه يتحمس كثيرًا لأشياء قبيحة، شريطة أن تكون غير مسبوقة أو مستقاة من ثقافة أخرى. وأعتقد أن هذا ذوقه الخاص، فهو يمتلك عقلية تناصر كل ما هو غريب وبلا جذور. كما أنه يدعم أفكاره. فقد ظل طوال سنوات محافظًا على استمرارية جريدة (ذكر ماكجيلفري واحدة من الصحف الأسبوعية شديدة العجرفة)، كما أنه يستضيف على نفقته الخاصة كل مَن ابتكر صيحة جديدة. كان دائمًا ما يقول إنه يحتقر الرأسمالية، كما يحتقر جميع النظم المعروفة، ولكن طالما ظل هذا النظام القبيح قائمًا، فسيحاول أن يستفيد منه؛ ومن ثَم ينفق أرباحه على التسريع بإنهائه. رؤية منطقية تمامًا. ولا ألومه على شيء إلا ذوقه.»

سألته. «أليس محبوبًا وسط أمثاله من التقدميين؟»

هز ماكجيلفري رأسه نفيًا. وقال: «إني أشك في ذلك. إنهم يتملقونه عند الحاجة، ويعيشون عالةً عليه، ولكني على يقين تام من أنهم لا يحبونه.»

سألته عما إذا كان كل هذا التظاهر بأن بارالتي من أهل الفكر ليس إلا حيلةً لخدمة مصالحه المالية. فقد جعله ممولًا من نوعٍ جديد، والبسطاء يميلون إلى وضع ثقتهم في رجلٍ يقول علانية إن هدفه الوحيد من جمع المال هو منع أي أحد، بما في ذلك نفسه، من تكديسه في المستقبل.

رأى ماكجيلفري أن ثمة منطقًا فيما قلت.

وقال: «إنه رجل حذر. ولطالما ذُكر اسمه في الصحف مرتبطًا بالاحتجاجات، ولكنه لا يتمادى في أي شيء كثيرًا. فالتطرف ليس هدفه، بل النقد الراقي لحماقات البشر. وهو لا يفعل شيئًا من شأنه أن يخيف المستثمرين ... حسنًا سأراقبه وأرى إذا كان بمقدوري اكتشاف المزيد عن علاقته بتروث. وكذلك الرجل الآخر، ما اسمه، إيريك ألبينوس؟ لقد منحتني ثلاثيًّا غريبًا.»

وبينما كنت أهم بالمغادرة، قال ماكجيلفري أمرًا أخيرًا، لم أرَ أنه مهم حينئذٍ، ولكني تذكرته لاحقًا.

قال: «سأساندك في مواجهة هذه العصابة يا ديك. إنهم ليسوا مجرمين بطبيعتهم وقد يتزعزع عزمهم. يكمن الخطر فيما إذا وقعوا فريسة لشخص مختلف عنهم؛ رجل يائس تمامًا، مثلك أنت.»

ذهبتُ إلى فوسي في صباح اليوم التالي مستقلًّا أول قطار صباحي، ولحقني هارالدسن في منتصف النهار كما اتفقنا. وأقام مع حاجبي جاك جدستو الذي يملك كوخًا رحبًا كنت أستأجر فيه بضع غرف من أجل ضيوفي من الصيادين العُزَّاب عندما تكون فوسي مزدحمة خلال موسم الصيد. ثم التقيته بعد تناول الشاي، وذهبنا في جولة وسط التلال.

وتأكد انطباعي من اليوم السابق. كان هارالدسن عاقلًا مثلي تمامًا. وأيًّا كانت مشكلاته، فهي مشكلات حقيقية تمامًا، وليست أوهامًا. ولكنه كان في حالة عصبية مريعة. فكان يتحدث إلى نفسه هامسًا ... كنت ترى شفتيه تتحركان، كما أنه كان يزمجر بطريقة غريبة. وأثناء جلوسنا معًا، كان يواصل فرك يديه معًا وهز ساقيه، وكان يشرد فجأة. وأقر لي أنه لم يكن ينال ما يكفيه من النوم. كانت حالته تحزنني، فقد ساءت حالته أكثر بكثير مما كانت عليه عندما كنا في هانام في شهر يناير. واكتشفت أن ثمة أمرين يرعبانه؛ أولهما هو أنه ربما يحدث أمرٌ سيئ جدًّا له أو لابنته في أي لحظة؛ خاصة لابنته. وثانيهما هو أن هذا الوضع المزري قد يستمر دون حل، وأنه قد يظل منفيًّا إلى الأبد بعيدًا عن وطنه الحبيب في الشمال.

بذلت أقصى ما في وسعي لتهدئة أعصابه المضطربة. وأخبرته أنه آمن تمامًا معي، وأني لن أسمح بأن يستمر هذا الوضع دون حل — وأني ولومبارد سنقدم على خطوات من شأنها إنهاؤه. وشجعته على الحديث عن جزيرة الخراف، فسيفيده كثيرًا أن يفكر في شيء مبهج، ووصف لي ببهجة بالغة مدى روعة خضرتها وهدوئها، وأيام الصيف عندما لا تغيب الشمس أبدًا، والبحر المنعش المتقلب، والربيع المتأخر البهيج، والخريف الصاخب العاصف، والشتاء الطويل الهادئ الذي لا يبدد برده إلا نيران المدافئ.

أكدت على هارالدسن مدى أهمية أن يظل خفيًّا عن الأنظار في الوقت الحالي. سيكون مسموحًا له أن يتنقل بحرية بين المنزل والمكتبة، وسنلتقيه أنا وماري كثيرًا، ولكن أمام القرية لا بد أن يظل صديقًا مريضًا لأحد أصدقائي جاء إلى فوسي طلبًا للهدوء ولا يجب أن يزعجه أحد. وسيصحبه جاك جدستو لصيد السمك ويعرفه على تضاريس المنطقة. واستنتجت من حديثه أن ثمة بعضًا من مقتنياته متناثرة في أنحاء لندن وأنه يود لو أصبحت في متناول يده، فقلت له إني سأرتب مع لومبارد طريقة لجمعها في هدوء

وإرسالها إليه. ولكني ظللت أؤكد له في الأساس على أن هذه الملاحقة ستنتهي، فقد رأيت أن هذا الأمل وحده هو ما سيطمئنه.

كنت أتحدث إليه بثقة، ولكني لم أكن أملك أدنى فكرة عن كيفية تحقيق ذلك. كانت سلامة هارالدسن تعتمد على مدى نجاحنا في إخفائه، كنت مقتنعًا بذلك؛ لذا لم نتمكن من استفزاز أعدائه لنحدد أماكنهم. ولم أكن أعرف أي شيء عن هؤلاء الأعداء. إن دنماركيًّا متأمركًا، ومحاميًا مشبوهًا يهوى سباقات الخيل، ومموِّلًا مثقفًا يشبه دون كيشوت هوى إلى الحضيض مؤخرًا، لا يشكلون مزيجًا لطيفًا. لم ألتقِ منهم إلا واحدًا، ألبينوس، ولا أعرف عنه إلا ما حدث في قرية مافودي، بينما ماكجيلفري معجبٌ بتروث، أما بارالتي فيبدو كريهًا ولكن دون تأثير. ولكنَّ ثلاثتهم متورطون في شيء جعل مواطنًا محترمًا جدًّا يخشى على حياته، وهو أمر يجب التحقيق فيه وإيقافه. ولم يكن ثمة ما يمكن فعله إلا انتظار ما ستئول إليه الأمور. كتبت في تلك الليلة خطابًا طويلًا إلى لومبارد أخبره فيه بنتيجة حديثي مع ماكجيلفري، وأطلب منه أن ينتبه جيدًا لأية أخبار قد ترتبط بهذه الأسماء الثلاثة، وأنبهه إلى أني قد أطلب حضوره في أية لحظة. عندما أوينا إلى فراشنا، أخبرت ماري بأني سأكون متفرغًا خلال الأسابيع القليلة الآتية، وأني سأكرس هذه الفترة لإعادة هارالدسن إلى حياته الطبيعية.

ولكن وصلتني صباح اليوم التالي أخبار أفسدت جميع خططي. أصيب بيتر جون وهو في المدرسة بالتهاب الزائدة الدودية ويجب أن يخضع لجراحة في اليوم نفسه. فهرعت وماري على الفور واستأجرنا شقة قريبة من المستشفى. سارت الجراحة على خير ما يرام، وبعد يومين كانا عذابًا بالنسبة إليَّ وجحيمًا بالنسبة إلى ماري، قيل لنا إنه تخطَّى مرحلة الخطر. تعافى بيتر جون بسرعة وبشكل رائع، وعادت صحته كما كانت، ولكن لم يُسمَح له بالنهوض من فراشه قبل أسبوعين، ولم يُسمَح له بمغادرة المستشفى قبل ثلاثة أسابيع. ولأن الطقس كان حارًّا، أخذناه إلى منطقة ساحلية تقع على الساحل الشرقي للبلاد وقضينا بها أسبوعين، ومن ثم، لم نعد إلى فوسي حتى بداية شهر يونيو.

لم أعرف أي شيء عن هارالدسن طوال تلك الفترة. فقد التزم كلٌّ من لومبارد وماكجيلفري الصمت، وكان يراسلني جاك جدستو مرةً كل أسبوع ويخبرني بأن الرجل على خير ما يُرام ويتطلع إلى موسم ذبابة مايو لصيد الأسماك. عندما عدت إلى فوسي، توقعت أن تظهر عليه أمارات الدعة والراحة وأن يزيد وزنه قليلًا، فطوال هذه الأسابيع كان مستمتعًا بهدوء الريف ولا بد أنه شعر بالأمان.

ولكني وجدته على النقيض من ذلك تمامًا. فقد بدا هارالدسن في حالٍ أسوأ من تلك التي كان عليها عندما تركته، فقد كان أشد نحافة وشحوبًا، وأطلت نظرة الخوف من عينيه بوضوح أكبر من ذي قبل. لم يكن لديه ما يقوله سوى تكرار شكره لي على عطفي. لا، لم يكن ثمة ما أزعجه، ولم يحدث شيء جعله يشعر بالخطر، بل كان بخير ما يُرام وبدأ يستعيد شيئًا من شهيته، طبقًا لاعتقاده، وكان ينام بشكل أفضل. ولكن كانت عيناه ترفان كما لو كان يتوقع أن يرى شيئًا كريهًا في أية لحظة، وكان يجفل من أقل صوت. كان مثالًا حيًّا على الانهيار العصبي.

تحدثت مع جاك جدستو عنه مطولًا. لن أحاول تقليد لهجة جاك، فلا توجد كلمات يمكنها أن تحاكي غرابة لكنة الكوتسوولديين البطيئة الممطوطة، والتعبيرات الاصطلاحية البذيئة في كل جملة. جاء ملخص تقريره أن السيد هارالدسن صعب المراس، فلم يكن هو نفسه يعرف ما يريد. فكان يخطط لأن يصطاد السمك مع المد المسائي، ثم يغير الخطة ويبدأ الصيد عند منتصف الليل عندما ينحسر المد. كما أنه يكره النهار كما لو كان بومة، ولا يحب الناس الأغراب، ويرتعب إذا رأى وجهًا لا يعرفه. قال جاك إنه كان دائم السؤال عمَّا إذا كان ثمة أشخاص جدد وصلوا إلى الحي، ولكن، باركك الرب، لا يأتي أحد جديد إلى هذا الحي ما عدا بعض المتنزهين العرضيين والأيدي العاملة الإضافية التي تعمل في جني القش، وسائقي العربات على طريق فوسي. لم يكن على الرجل أن يُقلق نفسه، وأخبره بذلك بالفعل، ولكن الكلام معه لا يجدي. وضحت لجاك أن صديقي مريض، وجزء من مرضه يتعلق بالخوف من الوجوه التي لا يعرفها. فهم جاك ما قلت وابتسم. وقال: «مثل ذلك «المرض العصيب الذي ألمَّ بالسيد بيتر جون».»

جعلني ذِكر بيتر جون أفكر. لن يعود الصبي إلى المدرسة هذا الفصل الدراسي، وكان ينوي قضاء صيف هادئ في فوسي قبل أن يذهب إلى ساندي كلانرويدن شمالًا في ليفرلو. ولديه ستة طيور عوسق صغيرة تجلس على المرج طوال اليوم، وموراج تجلس على ساريتها في غابة كرو وود، وحيوان غرير صغير يُدعى بروكلي يهوى التقليب في قش الإسطبل والذي كاد يتسبب في توقف قلبه هلعًا في الليل عندما يدخل إلى الصوبات الزجاجية ويعبث بها. كان لا يزال يخضع لروتين علاجي بسيط وصفه له الطبيب، ولكنه كان يستجمع قوته بسرعة كبيرة. كان إعجاب قد نما بينه وبين هارالدسن في هانام، واعتقدتُ أن صحبته ستكون أمرًا عظيمًا بالنسبة إلى هارالدسن. فطلبتُ منه أن يتولى مهمة الاهتمام بضيفي، فكل ما يتعلق ببيتر جون يوحي بهدوء الأعصاب والمنطق السليم. كانت ثمة فكرة أخرى تدور بخلدي.

قلت: «السيد هارالدسن مريض، ولا بد أن يحظى بالهدوء. وقد مر بتجربة سيئة جدًّا سأحكي لك عنها ذات يوم. ومن المحتمل أن تلك التجربة لم تنتهِ بعد، وقد يظهر شخص أو عدة أشخاص هنا لا يُضمرون له خيرًا. وأريد منك أن تظل يقظًا وأن تخبرني على الفور إذا ما رأيت أو سمعت أي أمر مثير للشك. وأعني بمثير للشك أي شيء خارج على المألوف مهما بدا لك تافهًا. لا يجب أن نتهاون على الإطلاق في سلامة السيد هارالدسن.»

أومأ بيتر جون برأسه في رضًا وأشرق وجهه. ولم يطرح أي أسئلة، ولكني أدركت أن ثمة أفكارًا تدور في خلده.

لم يحدث أي شيء طوال أسبوع كامل. وأفادت صحبة الفتى هارالدسن فائدة عظيمة، ولاحظتُ وماري ذلك، وأقر جاك جدستو بذلك. فكان يصحبه لصيد السمك في الصباح الباكر في جدول سمك السلمون الصغير القريب منا وفي برك ديكوي. وكان يصحبه في فترة العصر إلى التلال ليسمحا لموراج بالطيران. وكان يصحبه إلى الغابة بعد العشاء لمشاهدة صغار الثعالب على الطبيعة، ومحاولة اعتراض طريق ابن عمومة بروكلي أثناء عودته من جحره. بدأت الحُمرة تغزو وجه هارالدسن، وأقر بأنه أصبح ينام بشكل أفضل. لا أعلم ما كانا يتحدثان عنه، ولكن لا بد أنهما عثرا على موضوعات تهمهما كليهما، فقد كنت أسمعهما يتحدثان دون كلل؛ بيتر جون بكلماته البطيئة وصوته العميق، وهارالدسن بكلماته الأكثر سرعة وحديثه غير المترابط. وإن لم نكن نحرز أي تقدم فيما يتعلق بالخطر المحدق بهارالدسن، فكنَّا على الأقل نحسِّن صحته.

بعد ذلك جاءني بيتر جون ذات مساء حاملًا أخبارًا.

كانا في الخارج يدربان موراج على الصيد على تلال شارواي، وأثناء عودتهما، التقيا شابًّا يمتطي حصانًا. اعتقد بيتر جون في البداية أنه أحد مدربي الخيول في إسطبلات كليبرستون لخيول السباق يدرب أحد الخيول، ولكن عندما مرَّا به رأى أنه لا يرتدي ملابس مدربي الخيول. فقد كان يرتدي سراويل ركوب خيل كتانية بيضاء اللون، ومعطفًا صوفيًّا فاخرًا، وربطة عنق ملائمة. ألقى نظرة متفحصة على الصقَّارَين، ورأى بيتر جون أنه شاب أنيق ذو شارب أسود صغير وأسنان علوية بارزة قليلًا. ما أثار دهشتهما أنهما التقياه مرة أخرى، وكان يبدو متعجلًا هذه المرة، فقد كان يهرول مسرعًا، وتفحَّصهما بدقة أيضًا هذه المرة. قال ابني إن هذا يعني أنه دار دورة كاملة حول الطريق المؤدي إلى مزرعة شارواي لودج، وانحرف إلى الطريق الذي يخترق غابة شارواي الكبيرة؛ طريق ليس بالسهل، ولا يمكن لأحد أن يعرفه إلا إذا كان يعرف دروب المنطقة جيدًا. من هذا

الشاب؟ هل أعرف شخصًا بأوصافه، فهو لم يره من قبل؟ لمَ كان مهتمًّا بهما لهذه الدرجة؟

قلت إنه ربما كان زائرًا أثارت رؤية الصقر فضوله، وأراد أن يلقي نظرة أخرى عليه.

فأجابني بيتر جون: «ولكنه لم ينظر نحو موراج. كان السيد هارالدسن هو مَن أثار فضوله في المرتين. كنت ستعتقد أنه يعرفه وأنه أراد أن يتوقف ويتحدث إليه.»

«هل تعرَّف عليه السيد هارالدسن؟» طرحت عليه هذا السؤال، وأجابني بلا. لم يبدُ عليه أنه يعرفه، ولم يرغب بيتر جون في إثارة قلقه، فتظاهر بأنه أحد العاملين في إسطبل خيول السباق.

بعد يومين، اضطررت إلى الذهاب إلى جلوستر لحضور المعرض الزراعي. وبينما كنت أرتدي ثيابي لتناول العشاء في المساء، كانت ماري منشغلة مع الضيوف الذين جاءوا لتناول الشاي عصر ذلك اليوم.

قالت: «عائلة مارثو، يا للمفاجأة! لا أعرف ماذا أحضرهم إلى هنا، إن كايثورب تبعد عنا ثلاثين ميلًا، ولا تربطني علاقة قوية بهم. كانت كلير مارثو الابنة الروحية لواحدة من عماتي القاطنات في ويموندام، التقيتها مرات عدة هنا في الماضي عندما كانت تُدعَى كلير سيروكولد، وكانت فتاة سخيفة ومتصنِّعة جدًّا. ولكنها لم تتحسن كثيرًا، فلا تزال تصبغ وجهها مثل الدمى، وعيناها تشبهان أعين الكلاب البكيني، وصوتها سخيف لدرجة أنه يجعل الدم يغلي في رأسك. لا يمكن وصفها بأنها ذكية على الإطلاق، ولكنها لا تتوقف عن الحديث عن العظماء من البشر. ولكنها كانت ودودة جدًّا معي، ولا يمكنني أن أفسر هذا التوق المفاجئ لصُحبتي. لقد أحضرت جماعتها بالكامل معها — في عدة سيارات — قافلة لم يرَ أحد مثلها من قبل. وأغلب جماعتها من النساء اللاتي يجب عليك أن تأخذهن في جولة في المنزل والحديقة، أتمنى لو أني أكثر براعة في العرض يا ديك، فقد كدت أصاب بالشلل مللًا عندما كان عليَّ أن أعرض لهن ممتلكاتنا. كان من بينهم فتاة بارعة الجمال، الآنسة لادلو — ممثلة أفلام، على ما أعتقد، لم تكن تفعل شيئًا سوى أن تبتسم وتبدو جميلة. وكان ثمة شابان أيضًا، ولكنهما لم يتحدثا كثيرًا. طلبت من بيتر جون أن يضيفهم، وأعتقد انه اصطحبهم لرؤية الطيور الصيادة في المرج، وموراج، وبروكلي. بالمناسبة، أنا لم أره منذ ذلك الحين. وإني لأتساءل عما يدبره؟»

تأخر بيتر جون كثيرًا عن موعد العشاء. كان من المفترض، من الناحية النظرية، أن يأوي إلى الفراش بحلول التاسعة مساءً، ولكن لم تكن ثمة فائدة من فرض قواعد على

شخص أغلب عاداته ليلية، خلال الصيف على الأقل. ظهر بيتر جون بجواري في تمام العاشرة مساءً بينما كنت أكتب خطابات في غرفة المكتب.

وسألني: «هل أخبرتك أمي عن الأشخاص الذين حضروا لاحتساء الشاي؟ كان ثمة عدد كبير منهم، وأحدهم كان الرجل الذي التقيته والسيد هارالدسن يوم الثلاثاء؛ الشاب الذي كان يمتطي صهوة الحصان والذي أراد أن يلقي نظرة أخرى علينا.»

سألته: «هل عرفت اسمه؟»

«كانوا جميعهم يدعونه باسم فرانكي.» تعتقد أمي أن اسم عائلته يشبه وارندر، ولكنه ليس وارندر. اصطحبته لرؤية الخيل، وطرح عليَّ الكثير من الأسئلة.»

سألته. «هل كان ثمة رجلٌ آخر؟»

«نعم، ولكنه لا يهم. إنه فنان أو متخصص في التحف، ولم يستطع مفارقة حظيرة العُشور. ذلك الشاب فرانكي هو مَن يهم. لقد جعلني آخذه في جولة شملت المنزل بأكمله، وطرح أسئلة كثيرة عمَّن يعيش هنا، وماذا يعملون، ومَن يكونون أصدقاءنا، وما إذا كان ثمة الكثير من الناس يأتون ليقيموا معنا. كان أي شخص آخر ليطرح كل هذه الأسئلة بطريقة وقحة، ولكنه جعل الأمر يبدو لطيفًا، كما لو أن المنزل يعجبه جدًّا ويود أن يعرف كل شيء عنه. ولكنك أخبرتني بأن أنتبه لحدوث أي شيء مثير للشك، ورأيت أنه مثير للشك إلى حدٍّ ما.»

ثم واصل حديثه قائلًا: «ولم ينتهِ الأمر عند هذا الحد. لم يصحب فرانكي بقية المجموعة. لقد انطلق معهم بالفعل في سيارة رياضية صغيرة استقلها وحده، ولكنه سار في عكس اتجاههم بعد عبوره بوابة المنزل وأخفى سيارته على الطريق المؤدي إلى المحجر القديم. كنت أتبعه ورأيته يسير بمحاذاة المرج المائي، وألقى نظرة على ظهر كوخ تريمبل. ثم توجه نحو كوخ جاك، ثم قبع وسط أشجار البندق التي تقع خلفه، حيث يمكنه أن يحصل على رؤية جيدة للكوخ. تسللت إلى الكوخ عبر الباب الجانبي، ولحسن الحظ التقيت بالسيد هارالدسن الذي كان على وشك الخروج من الكوخ، وأخبرته بأن يظل في الداخل. ظل فرانكي قابعًا لوقت طويل وسط أشجار البندق لدرجة أن أصابني الملل، وقررت أن أجعله يرحل، فدُرتُ حول الأشجار ثم دخلت وسطها حتى فاجأته بالوقوف بجانبه متظاهرًا بأني أبحث عن بروكلي. ولكنه تعامل معي بهدوء شديد، وقال إنه عالم نبات، وإنه بقي ليبحث عن بعض النباتات التي سمع أنها تنمو هنا. ولكنه لم يرغب في البقاء أكثر من ذلك، فرافقته حتى سيارته، وأعطاني نصفَي كراون، ثم عدت إلى السيد هارالدسن لأخبره بأن «الخطر قد زال».»

قلت لبيتر جون إنه أبلى بلاءً حسنًا، وإنه من الأفضل أن يذهب لينام. أقلقتني قصة بيتر جون، فقد بدا جليًّا أن هذا الشاب فرانكي يقتفي أثر هارالدسن، وبدا أنه قد عثر على مخبئه. ولم يكن تحديد مخبئه بالأمر الصعب، فإن كان أحد في فوسي لا يقيم في المنزل، فلا يوجد سوى كوخ جاك الذي تسمح مساحته الكبيرة باستضافة ضيوف. سألت ماري عن فرانكي، ولكنها لم تكن تعرف الكثير عنه. فقد بدا لها شابًّا عاديًّا جدًّا، دمث الأخلاق وجهه خالٍ من التعبيرات؛ ... وتذكرت أسنانه البارزة. ولكنها تذكرت اسم عائلته، لم يكن وارندر، بل فاريندر. وقالت: «ربما كان ابن المليونير الأيرلندي المتغطرس العجوز — كلونجيلت؟ أو ربما كلونجيلي؟ الذي اشتهر بكونه مرابيًا في شارع كورك ستريت.»

بعد ثلاثة أيام، أو هكذا اعتقدت، جاء ساندي كلانرويدن لزيارتنا. وأبرق لي قائلًا إنه يحتاج إلى التريض، واقترح أن ألتقيه عند محطة قطار بعيدة، وأرسل أمتعته إلى المنزل مع السيارة، وأسير معه مسافة خمسة عشر ميلًا حتى فوسي. كانت نزهة رائعة سيرًا على الأقدام في طقس يونيو الصحو، فقد شربنا الجعة الجيدة في الحانات الصغيرة، وهبطنا من على التل في مقابل بوابات المنزل تقريبًا، حيث شكل حقل بري من الأشجار الشوكية الصغيرة منحدر التل. انكشف أمامنا جزءٌ من الطريق السريع حيث رأينا رجلين يدلفان إلى سيارة رياضية صغيرة.

رقد ساندي على الأرض كما لو أنه أصيب بطلق ناري. «ارقد يا ديك»، قالها آمرًا، وبعد التحديق في السيارة لفترة طويلة، وضع على عينه تلك العدسة الصغيرة التي يستخدمها في مراقبة الطيور. لم أرَ إلا شابَّين بدا عليهما أنهما في عجلة من أمرهما. كان أحدهما عاري الرأس بينما كان الآخر واضعًا قبعته على رأسه بحيث تخفي قسمًا من وجهه. لم تساعدني تلك المسافة الكبيرة على التيقن، ولكن انتابني شعور بأنهما يتظاهران بعكس حقيقتَيهما، فلم تكن حلتاهما الصوفيتان مناسبتين لهما.

بعدما اختفيا عن ناظرَينا، وضع ساندي عدسته في جيبه وأطلق زمجرةً. ولم ينبس ببنت شفة حتى وصلنا إلى المنزل وحيَّتنا ماري. وبدلًا من أن يجيب عن أسئلتها عن باربارا، سألها، كما لو كان محقِّقًا، عمَّا إذا كانت قد استقبلت ضيوفًا في فوسي عصر اليوم.

فقالت: «نعم. لقد عاد ذلك الشاب فاريندر الذي جاء لزيارتنا مع عائلة مارثو. لقد أخبرتك عنه يا ديك. إنه أحد علماء النبات العظام، ويوجد نبات نادر ينمو هنا وكان يريد أن يري صديقه إياه. وقد قال بالفعل خلال زيارته الأخيرة إنه عثر على نبات أوركيد قزم.»

فأطلق ساندي صافرة. وقال: «إنه ليس بارعًا جدًّا. من المستحيل أن تنمو زهور الأوركيد في هذه التربة. من كان صديقه؟»

«رجل فرنسي، السيد بلان. وكان السيد فاريندر يدعوه باسم بيير.»

«صِفِيه لي.»

قطبت ماري ما بين حاجبيها. وقالت: «إنه رجل في حوالي الخامسة والثلاثين أو الأربعين من عمره، على ما أعتقد. نحيل جدًّا ولطيف وأنيق. له رأس غريب الشكل ينتهي بقمة، مثل الرجل الماعز، حليق الوجه، ولون بشرته يشبه لون بشرة مَن يعيشون في المناطق الحارة. ولون ذقنه أفتح من بقية وجهه؛ لذا أعتقد أنه كان يطلق لحيته فيما مضى. لم يوافقا على البقاء لاحتساء الشاي — كانا يريدان فقط أن أمنحهما الإذن باستكشاف الغابة المحيطة بالمنزل.»

سألتها. «هل رآهما بيتر جون؟»

قالت: «لا أعرف. لقد قضى اليوم بأكمله خارج المنزل، ولكنه عاد منذ قليل، فقد سمعت صوت مياه في حمام غرفته.»

بينما كنت أوصل ساندي إلى غرفته، قال بجدية: «يجب أن نتحدث مطولًا بعد العشاء يا ديك.»

قلت: «يجب أن نفعل. فلدي الكثير مما أريد إخبارك به.»

فرد عليَّ قائلًا: «وأنا لديَّ أمر مدهش أريد إخبارك به.»

دعوت بيتر جون لحضور اجتماعنا تلك الليلة، فقد رأيت أنه من الأفضل أن يعرف كل شيء. بدأت حديثي بعرض موقف هارالدسن كاملًا، وهو الموقف الذي لا يعرف ساندي عنه شيئًا. أخبرته بحديثي مع لومبارد، وأحاديثي مع هارالدسن نفسه، وقناعتي بأن الرجل لا يتخيل الأمر، بل إنه عرضة للخطر حقيقةً. وأخبرته بما قاله لي ماكجيلفري عن تروث وبارالتي. ووضحت له اعتقادي بأنه كان من الأفضل إحضار هارالدسن إلى فوسي، فقد بدت لي مكانًا آمنًا للاختباء. ثم أعدت رواية ما حدث منذ حضوره إلى هنا، قلقه وبؤسه المتزايدان، اللذان تماثلا للشفاء بفضل بيتر جون، وأخيرًا ما حدث من الشاب فاريندر. قلت إني لم أرتح لأمر هذا الشاب، فقد بدا مهتمًّا بهارالدسن لدرجة الهوس، وأخبرته باختبائه خلف كوخ جاك، وأضفت إلى ما سبق عدم راحتي لحضوره إلى هنا اليوم وقصة زهور الأوركيد الوهمية. ثم سألت: «هل تعرف أي شيء عنه؟»

قالساندي: «ليس الكثير. لقد سمعت عنه. إنه يشتهر بأنه شاب مسرف، ويقامر بمبالغ كبيرة في كازينو ديلون، وأمور من هذا القبيل. ولكن يمكنني أن أخبرك بالكثير عن صديقه السيد ... بيير ... بلان.» ردد ساندي الاسم ببطء كما لو أن كل مقطع من مقاطعه له نكهة خاصة.

ثم قال: «اسمع يا ديك، وأنت كذلك يا بيتر جون، رغم أنك ستحتاج إلى أن يفسِّر لك والدك الكثير مما سأقول لاحقًا. لقد أخبرتك بكل ما حدث تقريبًا في أوليفا منذ عامين.[١] أعتقد أنك تتذكر أن جران سيكو كانت ملاذًا للضائعين والبائسين الذين دمروا حيواتهم فلجئوا إلى الانضمام لصفوف كاستور. كانوا يشبهون رجال شيخ الجبل، الحسن الصباح، خلال الحملات الصليبية، الذين كانوا يلجئون إلى المخدرات لتشعرهم بالشجاعة والسعادة. حسنًا، أنت تعرف ما حدث. لقد اجتثت هذه العصابة — الذين كانوا يطلقون على أنفسهم اسم الفاتحون — من جذورها. فبعضهم قُتِل خلال معركتنا الأخيرة، وحُكِم على الباقين بالموت البطيء بعدما حُرِموا من المخدرات. وكان أحدهم، وربما كان أكثرهم جرأة، يُدعى جاك دينجرافيل، وكان في ذلك الوقت مقاتلًا فرنسيًّا شهيرًا. لم يكن يقل شرًّا عن الآخرين، ولكنه كان أكثر صحةً؛ لأن عمله في الهواء الطلق حَمَى جسده من البلادة، رغم أنه كان يتعاطى المخدرات مثل زملائه. لم أعرف أبدًا ما حل به في نهاية المطاف. فلم تصلنا أخبار مؤكدة عن موته في معركة فيرو، ولكن ثمة احتمالية كبيرة أنه تلقَّى رصاصة هناك، وعلى أية حال، أدركت أنه أوشك أن يلقى حتفه منذ أن انقطع إمداد مخدر «الأستورا». تخيلته يزحف إلى جحر ما في أمريكا الجنوبية أو أوروبا ليموت فيه.

استطرد حديثه قائلًا: «ولكني كنت مخطئًا. فمن بين هؤلاء الأشرار لم ينجُ إلا دينجرافيل – هو وحده فقط تقريبًا. ويجدر بي القول إنه قد تعافى من إدمانه المخدرات. لقد بدا في كامل عافيته عندما رأيته هذا المساء.»

صمتنا لبرهة. فأمام عيني، بدأ الأمر برمته يصطبغ فجأة باللون الأسود. لم يفاجئني ظهور دينجرافيل كثيرًا، فلطالما شككت في أن تروث وبارالتي وألبينوس ليسوا كامل العصابة. ما فاجئني هو أنهم تمكنوا من تتبع هارالدسن حتى هنا رغم جميع الاحتياطات التي اتخذناها. واستنتجت أنهم أكثر براعة وقدرةً مما تخيلت، وأن مساندتي لهارالدسن ستكون شديدة الصعوبة. شعرت فجأة بأني ضعيف جدًّا، بل وخائف ومسن.

---

[١] القصة المفصَّلة لما فعله اللورد كلانرويدن في أوليفا موجودة في رواية «مغازلات الصباح».

إلا أن رؤية وجه ساندي أبهجتني، فبدلًا من أن تبدو عليه أمارات القلق، بدت عليه أمارات الحماسة والبهجة.

سألني قائلًا: «من يساندك في هذا الأمر يا ديك؟ لومبارد فقط؟ حسنًا، أعتقد أنه يجدر بي أن أكون ثالثكم. فمن جانب، تورطت مع هارالدسن بشكل عجيب، فقد جعلني القدر وريث والده. فقد وصل لوح اليشم إلى يدي لغرضٍ ما. ومن جانب آخر، بسبب السيد جاك دينجرافيل، المعروف باسم بيير بلان. إنه رجل شديد الخطورة ولا يجب تركه حرًّا. لن تنته مهمتي في أوليفا إلا بعد أن أسوي الأمور معه. وأعتقد أنه حان الوقت لأن أشارك.»

نهض ساندي وأحضر لنفسه شرابًا. رمقته أثناء وقوفه ونصفه مختفٍ في الظل، وضوء المصباح الوحيد في الغرفة ساقط على وجهه — لم يكن يصغرني كثيرًا، ولكن كان قوامه مشدودًا مثل وتر قوس، وكان مفعمًا بالنشاط مثل فهد صياد. وفكرت أن أعداء هارالدسن قد حرروا قوةً ذات زخم كبير. ولا بد أن بيتر جون قد فكر في المثل. فقد جلس يستمع إلى حديثنا وعيناه تكادان تخرجان من محجريهما، وارتسم على وجهه ذلك التعبير المتجهم الذي يظهر على وجهه دائمًا عندما يتأثر بشدة. ولكن، عندما حوَّل بصره إلى ساندي، انقلب تعبير وجهه الجاد المتجهم إلى ابتسامة.

قال ساندي: «سأذهب إلى المدينة غدًا، وسأنخرط بالكامل في ذلك الأمر. إني بحاجة إلى المزيد من المعلومات، ولديَّ أساليب للحصول عليها تفوق أساليب ماكجيلفري. ولكم أتمنى لو عرفنا كم من الوقت تبقى لنا. إن العصابة تقتفي أثر هارالدسن، هذا واضح تمامًا، ولكن السؤال المهم هو: هل حددوا مكانه؟ إن ذلك الشاب فاريندر ليس متأكدًا، وإلا لم يكن ليعود مرتين ... إن كانوا متأكدين من مكانه، لكانوا أنهوا الأمر اليوم دون أدنى شك. وإني لأتساءل كم اقتربوا من تحديد مكانه الليلة؟»

تحدث بيتر جون. وقال: «لم يقتربوا كثيرًا. لم يتمكنوا من ذلك. لقد سقطا كلاهما في بركة الطاحونة.»

أخرج ساندي غليونه من فمه وحدق في وجه الصبي. ثم قال مكرِّرًا: «سقطا كلاهما في بركة الطاحونة؟ ماذا تعني يا بُني.»

قال بيتر جون: «لقد رأيتهما عندما وصلا إلى هنا، وأدركت أنهما لن يبقيا في المنزل لوقت طويل على أية حال، فتسللت إلى الخارج ونبَّهت السيد هارالدسن ليظل مختبئًا في كوخه. وعندما خرجا من المنزل، تبعتهما. توجها إلى غابة هاي وود عبر الحديقة،

ولكني كنت واثقًا من أنهما يقصدان أشجار البندق الواقعة خلف كوخ جاك. ولكي يصلا إلى هناك، عليهما أن يعبرا مصرف الطاحونة عبر الجسر الخشبي الذي يمر فوق البركة مباشرةً. لا تكون الأحجار عند طرف الجسر آمنة إلا بشد الألواح الخشبية وتثبيتها جيدًا على الضفة. ففككتها أكثر، وجذبت الألواح الخشبية بحيث تستقر عليها.»

سألته وساندي في صوتٍ واحد: «وماذا حدث؟»

«سقطا كلاهما في البركة، وهي عميقة جدًّا. فساعدتهما على الخروج، وعرضت عليهما أن يأتيا إلى المنزل لتغيير ملابسهما المبتلة. ولكنهما رفضا، فقد كانا منزعجين جدًّا. ولكن أعطاني السيد فاريندر خمسة شلنات أخرى.»

الفصل السابع

اللورد كلانرويدن يتدخل

رحل ساندي في صباح اليوم التالي، ولم يخبر أحدًا بخططه، كالعادة. أردت منه أن يلتقي هارالدسن، ولكنه قال إنه لا حاجة لذلك، وإنه كلما أسرع بالذهاب إلى لندن، كان ذلك أفضل. طلب مني عنوان لومبارد وخطابًا أقدمه فيه له، وكانت تعليماته الوحيدة لي أن أحافظ على سلامة هارالدسن خلال الأسبوع القادم. واقترح عليَّ أن أجعل بيتر جون يراعيه طوال الوقت.

قبل بيتر جون المهمة بسعادة، فقد كانت محبَّبة إلى قلبه. كان يحب ساندي كثيرًا، وكان متحمسًا جدًّا لأن ساندي كلفه بمهمة. كما أنه عقد مع هارالدسن صداقةً من نوعية الصداقات التي تقوم عادةً بين صبي خجول وانطوائي ورجل خجول. تناول هارالدسن العشاء معنا مرتين خلال الأسبوع التالي لمغادرة ساندي، ولم يكن ثمة شك في أن حاله قد تحسنت. فكان يتحدث عن ابنته التي تركها في المدرسة الداخلية من دون نظرة الخوف التي كانت تطل من عينيه والتي كنت أكتئب بسببها. كان يطرح الكثير من الأسئلة عن طيور الغابة الصغيرة التي لم يكن يعرف شيئًا عنها، والتي كان بيتر جون يُعرِّفه بها. حتى إنه تحدث عن جزيرة الخراف من دون أن يبدو على وجهه تعبير الوحشة.

في صباح يوم عيد منتصف الصيف، صُدِمت أثناء قراءة جريدة «التايمز». فعلى صفحتها الأولى، نُشرت رسالة طويلة من ساندي تحمل عنوان «الراحل إم إي هارالدسن».

حكت الرسالة قصة لوح اليشم وكيفية عثوره عليه في متجر للسلع المستعملة في بكين. وذكر الجملة اللاتينية التي ودَّع بها هارالدسن العالم، ولكنه لم يذكر المكان الذي كُتِبت فيه هذه الكلمات. واختتم الرسالة كالآتي:

> «كان ماريوس هارالدسن معروفًا لدى الكثيرين بأنه أحد أنجح المنقِّبين عن الذهب ومشغِّلي المناجم في الأيام الأولى لحقول الذهب الجنوب أفريقية. ولكن،

يدرك المقربون منه جيدًا أنه أكثر من مجرد منقِّب عادي عن الذهب. فقد كانت لديه أحلام عريضة لشعوب الشمال التي ينتمي إليها، وكرَّس حياته، مثلما فعل سيسيل رودز، لجمع ثروة كبيرة من أجلهم. ولا بد أنه نجح في كسب أموال طائلة، ولكنه لم ينسَ أبدًا حلمه بالعثور على مدينة أوفير خاصة به قبل وفاته، التي ستمكنه من تحقيق خططه العظيمة. التقيته خلال مهمته في الشرق الأوسط، والتقاه آخرون في أماكن أخرى من العالم. لم يكن منقِّبًا عاديًّا، بل كان يتتبع خطى المغامرات السابقة باستخدام وفرة من الوسائل وأفضل الأساليب العلمية.

والآن، يبدو أنه تمكَّن قبل وفاته من أن يُبلي بلاءً حسنًا بوجه عام. يخبرنا لوح اليشم الذي في حوزتي بأنه عثر على كنزه بالفعل. ولا شك في أن الكتابات على الجانب الآخر من اللوح تتضمن التفاصيل، فقد كان ماريوس هارالدسن رجلًا عمليًّا جدًّا، ولم يكن ليترك أية مهمة دون أن يتمها. هذه الكتابات من الصعب تفسيرها، ولكن عندما تُترجم، في القريب كما آمل، سيعرف العالم شيئًا قد يثبت اكتشافًا من شأنه أن يغير مجرى التاريخ.

وحتى يتحقق ذلك، رأيت أن هذا التقرير المؤقت قد يمنحُ الأصدقاءَ الأحياء هذا الرجل العظيم والمغامر المقدام بعضَ الراحة.»

ذُيِّلت هذه الرسالة بتوقيع «كلانرويدن»، ومكان إرسالها هو ليفرلو، ونشرت جريدة التايمز، كموضوع رئيسي رابع في عددها، مقالًا صغيرًا مثيرًا للإعجاب يتحدث عن مدى قدرة الأشياء المادية على البقاء وعن الخطط الخفية للقدر.

تأملت محتوى هذه الرسالة لفترة طويلة. وأول ما لاحظته هو أنها لم تُكتَب بأسلوب ساندي المنمَّق المعتاد. بل كانت مكتوبة بأسلوب صحفي بحت، ولا بد أنها موجهة لِتَروق جمهورًا معينًا.

هداني تفكيري لاحقًا إلى هوية هذا الجمهور. إنه العصابة التي تضطهد ابن هارالدسن. لقد أخبرهم ساندي، باستخدام الكثير من الكلمات، بأن الرجل العجوز قد حقق ضربته الكبرى، وأن ثروة هارالدسن من المحتمل أن تكون أكبر بكثير مما يحلم أيٌّ منهم. إنه يلوح بطُعمٍ مغرٍ جديد لهذه الجماعة.

كان آخر ما فكرت به هو أن ساندي قد جعل نفسه الآن هدفًا للصيد. فمن يقرأ هذه الرسالة لا بد وأن يفترض أنه يعلم كل شيء عن عائلة هارالدسن وشئونها. وصور نفسه

كما لو كان يملك ما يساوي الملايين — فقد أقر بثقته في أنه سيعرف ما تعنيه الكتابات على اللوح وثقته في أنها ستُترجم ... كان غرضه واضحًا. إنه يريد أن يجذب كلاب الصيد إليه.

أبرقت إليه من فوري على ناديه في لندن طالبًا موعدًا للقائه، ولكنه لم يرد عليَّ. ووصلني في عصر ذلك اليوم بدلًا من رده برقية من لومبارد يطلب مني أن أذهب على الفور إلى منزله الريفي. واختتم البرقية كالآتي: «أغلق الباب بعناية من خلفك»، ولم يكن لهذه الجملة إلا معنًى واحد. أحضرت هارالدسن ليقيم في المنزل، وأعطيت تعليماتي لماري وبيتر جون بألا يتركاه يغيب عن ناظرَيهما، وبحلول الخامسة، كنت قد ركبت السيارة متجهًا نحو سري.

وصلت إلى منزل لومبارد في حوالي السابعة والنصف. كان المنزل يقع على مشارف قرية عتيقة الطراز تكاد تضاهي ضواحي لندن عبر بناء حلقة من الفيلات الكبيرة من حولها. كان المنزل جميلًا، فكان عبارة عن صرح مَشِيد على طراز يشبه الطراز الجورجي بالطوب الأحمر ذي الواجهات الحجرية، وزُرِعت في الأرض المحيطة به التي تبلغ مساحتها حوالي ٦ أفدنة حديقةٌ رائعة. كان بها كل شيء؛ منتزه صغير، وبِركة تعج بزهور الزنبق، وحديقة مائية، وتعريشات، وتكعيبات، وساحات مرصوفة ببلاط رائع الجمال، ولا بد من أنه يعمل لديه عددٌ كبيرٌ من البستانيِّين، فقد كانت الحديقة عامرة بالزهور ومشذَّبة بإتقان تام. كان منزل فوسي بمثابة بيت مزرعة قديم متهالك مقارنة بهذا المنزل الرائع. ولم يختلف داخله عن خارجه. فكان كل شيء إما مطليًّا باللون الأبيض العاجي اللامع، وإما مكسوًّا بالخشب الملمع والنحاس البراق. بدت لي بعض اللوحات المعلقة على الجدران جيدة، ولكن كان بعضها مبالغ في تلميعه بالورنيش ومحاطة بإطارات مبهرجة. كان اللمعان في جميع أنحاء المكان مبالغًا فيه، ويوجد الكثير من زهور الزينة، وكان الطلاء حديثًا، ولم تكن ثمة خلفية هادئة تمنح العين بعض الراحة.

وجدتُ عائلة لومبارد مجتمعين في غرفة الضيوف، وأدركتُ من أين استُوحِي كلُّ هذا التألق. فقد بدت زوجة لومبارد، التي كنت قد التقيتها سريعًا في محطة القطار في الخريف الماضي، أفخم ممتلكات لومبارد. كانت، على ما أتذكر، ترتدي ثوبًا من اللونين الأبيض والأرجواني، نُقِش على صدره باقة رائعة الجمال من زهور الأوركيد. لا بد أنها كانت فاتنة عندما كانت أصغر سنًّا، ولكنها ما زالت تحتفظ بجمالها؛ فهي امرأة ذات قوام ممتلئ وتضع مساحيق التجميل. من منطلق اعتيادي على رؤية النساء النحيفات

مثل ماري وباربارا كلانرويدن وجانيت رادن، رأيت أنها «جذابة» جدًّا، بالمعنى المهذب للكلمة. عرفت فيما بعد أنها كانت نموذجًا للجمال الجامح، كما كانت وريثة عائلة ثرية، فقد ساعدت لومبارد منذ زواجهما في بدء مسيرته المهنية.

قالت موجِّهةً حديثها إليَّ: «إننا لن ننتظر أكثر من ذلك. فالشخص الرابع في تجمعنا الصغير سيتأخر. كما أننا لن نستخدم أسماءً على طاولة الطعام، من فضلك. بارتون «مدير المنزل» موثوق منه، ولكن من غير المحبَّذ على الإطلاق أن يعرف أحدٌ غيرنا الأشخاص الذين ندعوهم في هذا المنزل. لذا، سيكون اسمك ديك، إذا سمحت، والشخص الرابع سيكون ساندي. تلك هي تعليمات اللورد كلانرويدن.»

أُعلن أن العشاء جاهز، ولم تكد تمر خمس دقائق كاملة من جلوسي إلى طاولة الطعام حتى بدأت أفهم شخصية السيدة لومبارد. كانت امرأة مضيافة، ليست حادة الذكاء، ولكنها تتمتع بذوقٍ خاصٍّ جدًّا، وتملك سيطرة كبيرة على من حولها. كانت تحب لومبارد حبًّا كبيرًا وكان هو أيضًا يحبها جدًّا، ولأنهما لم يُرزقا أطفالًا، تأثر كل منهما بشخصية الآخر إلى حدٍّ كبير. فأصبح لومبارد ميَّالًا إلى الدَّعَة والراحة مثلها تمامًا، واقتبست بدورها لمحة من شخصيته، فأصبحت تمتلك شغفًا غريبًا بالرومانسية لا أعتقد أنها ولدت به. أبهرتني بمجموعتها الكبيرة من القراءات التي لا تتمتع بالكثير من العمق الفكري، فكانت تشعر بالحساسية تجاه موضوعات بعينها، وكانت تقبع في جنتها في ضواحي المدينة منتظرةً حدوث المعجزات. ربما لم يخبرها لومبارد بالكثير عما يحدث حاليًّا، ولكنه أخبرها بما يكفي لإثارة حماستها. لاحظت أنها تنظر إليَّ في بعض الأحيان كما لو كانت طفلة متحمسة، كما لاحظت أنها تترقب وصول ساندي في رهبة. لا شك في أن قلة من الناس يعرفون اسمي، إلا أن نصف العالم يعرف ساندي.

لم يظهر ساندي إلا بعدما أطلت علينا أضواء غسق شهر يونيو من الأبواب الفرنسية الزجاجية الكبيرة التي مر عبرها كما لو كان ضيفًا معتادًا على المنزل بالفعل. كان بارتون وخادم آخر موجودَين في الغرفة عندما وصل، وتعاملت معه السيدة لومبارد كما لو كان صديقًا قديمًا. فقالت: «كم تسعدني رؤيتك أخيرًا يا ساندي. آمل أن رحلتك كانت مبهجة.»

قال: «مبهجة ولكن طويلة جدًّا. إن السفر جوًّا هو الطريق الأفضل في ليالي الصيف. يا له من منزل رائع! لم أشم في حياتي مثل روائح هذه الورود.»

سألتُه عندما أصبحنا بمفردنا: «هل أتيت من ليفرلو؟»

«لا، من لندن. ولكني لم أعتقد أنه من الحكمة أن آتي إلى هنا مباشرةً. لقد درت حول نصف مقاطعات الجنوب، وكانت وسيلة انتقالي الأخيرة دراجة هوائية، ركبتُها من هِستون. أريدك أن تعيدني إلى هناك بسيارتك يا ديك.»

تناول ساندي وجبة ممتازة وبدأ يتفحص السيدة لومبارد. وأدركتُ أنه يطرح على نفسه السؤال الذي طرحته على نفسي، ما الدور الذي تلعبه هذه المرأة في حياة زوجها، وأعتقد أنه توصل إلى الاستنتاج نفسه. أنها لن تشكل عقبة لنا. لم يمر وقت طويل قبل أن يجعلها تندمج في الحديث عن كل اهتماماتها، عن مدى جمال الحي الذي يعيشون فيه، والفترة القصيرة التي قضتها في لندن، وخططها لقضاء العطلة، ستقضيها في جبال البرانس، إلا أن زوجها لن يتمكن من اللحاق بها حتى وقت لاحق من الصيف. نظر إليها ساندي بامتنان ليس لكونها من الوُجهاء المهمين ولكن لكونها إنسانة عطوفة متفهمة، فقد بدت امرأة طيبة ولطيفة، وقد بدأ الحرج يزول من عينيها أثناء تحدثها إليه. كان صوتها عذبًا، وكانت ثرثرتها المهدئ الأقوى على الإطلاق. برر ذلك لي رضا لومبارد التام عن حياته، ولكن تولدت لديَّ قناعة بأن هذه السيدة ليست القوة المحركة لهذه الحياة. فلم تكن تحفزه أو تعوقه.

عندما توجهنا إلى المكتبة بعد العشاء، تعرفت أكثر على شخصية لومبارد، فقد كانت الغرفة عبارة عن متحفٍ يحوي مجموعة كاملة من الكتب التي يفضلها. وشعرت بالضجر من ساندي الذي لا يمكنه مقاومة إغراء تصفح أي مجموعة من الكتب تقع عليها عيناه. كانت الكتب تصطف على الجدران من جهات ثلاث من الأرض حتى السقف، وبدت في الضوء الخافت وكأنها ستائر متدلية من القماش الفاخر. احتفظ لومبارد بكتبه الدراسية من المدرسة والجامعة، وكان ثمة قسم كبير عن الرحلات، وعدد هائل من السير الذاتية. كما امتلك أحدث الكتب عن عالم المال حتى يظل مواكبًا لمهنته. إلا أن الانطباع الرئيسي الذي تركته هذه المكتبة لديَّ هو أنها مكتبة رجل لا يريد أن يغيب أي جزء من حياته عن ذاكرته، أمر مبشر في ظل الأمر الذي نحن بصدد توليه.

قال ساندي: «لقد قطعتُ على نفسي خط الرجعة، كما قرأتَ في جريدة التايمز صباح اليوم. وأكاد أجزمُ أنك خمنتَ السبب. كانوا قريبين جدًّا من العثور على هارالدسن.»

قال لومبارد: «وماذا عنك أنت؟»

أجابه ساندي: «لدي إمكانيات أفضل وقدرة أكبر على المناورة.» ثم ملأ غليونه وجلس بعرض مقعد وثير مُدلِّيًا ساقيه من فوق أحد ذراعي المقعد.

ثم سأل: «ما رأيك في هارالدسن يا ديك؟ بغض النظر عن والده وجميع هذه الأمور، هل يستحق أن نعرض أنفسنا للمتاعب من أجله؟»

قلت بحزم: «نعم. لقد أصبحت معجبًا به جدًّا. إنه رجل شديد الحساسية، ومرَّ بالكثير من الأهوال، ولكن لم ينل ذلك من سلامة عقله، وأنا واثق من أنه لم ينل أيضًا من سلامة شخصيته.»

«بغض النظر عن والده، وعن وعدك له، والعزوف الذي نشعر به جميعنا عن ترك الشر يسود، هل تعتقد أنه يستحق الإنقاذ؟»

«أعتقد ذلك بكل تأكيد.»

قال ساندي: «جيد. لقد طرحت عليك هذين السؤالين لأن هذه القضية غاية في الصعوبة، ولكي أتأكد من جدارة الشخص محور الأحداث ... إنني لم أُضيِّع لحظة واحدة منذ لقائنا الأخير. فقد التقيت ماكجيلفري، الذي لم يكن يعلم الكثير عن الأمر، ولكنه أعطاني بعض المعلومات التي كانت مفيدة أكثر مما تخيل. ولومبارد يُبلِي بلاءً حسنًا في تتبع بارالتي؛ بالمناسبة، كان السبب في تعاملي بكل هذا الحرص فيما يتعلق بحضوري إلى هنا الليلة هو أنه يجب أن نبعد لومبارد عن الشبهات لأطول فترة ممكنة، وإلا سيفقد نصف فائدته. لقد أصبحت غارقًا في الأمر حتى أذنيَّ، وكذلك أنت يا ديك، ولكن لا يزال لومبارد بعيدًا عن شكوكهم. وأؤكد لك أن الأشخاص الذين نواجههم نشطاء جدًّا. فلقد انشغلت بالتواصل مع بعض مصادري القديمة — التي كدت أفقدها — وعرفت أن هارالدسن مُطارَد من عصابة شديدة الخطورة ومستعدة لأن تبذل قصارى جهدها في سبيل الوصول إلى مآربها. وهي عصابة من أخطر الأنواع لأنها مؤلفة من أشخاص غاية في الرقي وآخرين غاية في الإجرام والقذارة. وهم يملكون في جعبتهم جميع أنواع الأسلحة، ومنظمون كفريق كرة قدم أمريكية.»

قلت مندهشًا؛ إذ لم يكن ساندي يستخدم كلمات على غرار «خطورة» أو «إجرام» في الظروف العادية: «مهلًا. ولكني لا أرى هدفًا لما يفعلون. يمكنني أن أفهم محاولةً سوقيةً لابتزاز رجل بسيط من الشمال. ولكن، ألا يبدو ذلك التنظيم الذي تصفه مبالغًا فيه، كما لو أنك تستخدم مطرقة آلية لكسر حبة بندق؟»

أجابني قائلًا: «لا، لأن الغنيمة المرجوَّة كبيرة. بغض النظر عما يساويه لوح اليشم الذي في حوزتي، فإن ثروة هارالدسن الأب كبيرة جدًّا. سيحاول هؤلاء المجرمون الحصول على مئات الآلاف من الجنيهات من ابنه، إن لم تكن ملايين الجنيهات. وقد تكرَّم لومبارد بتأكيد ذلك.»

قال لومبارد: «لم يكن الأمر سهلًا، ولكن لدي معارف مهمون في البنوك الإسكندنافية. يملك هارالدسن أغلبية الأسهم الممتازة في ...» وذكر أسماء بعض الشركات الشهيرة ثم استأنف حديثه: «كما يملك مبالغ مالية ضخمة في حسابات جارية.»

أومأ ساندي موافقًا. وقال: «لا شك إذن في أن الغنيمة كبيرة. وكان من المفترض أن تكون سهلة المنال. فكل ما عليهم فعله هو الإمساك بهارالدسن المنطوي المنعزل عن العالم، وتجريده من ممتلكاته رويدًا رويدًا ... كل ذلك في إطار قانوني لا تشوبه شائبة. والرجل لا يفقه أي شيء في مثل هذه الأمور. يمكنني تخيله جالسًا بين يدَي تروث متنازلًا عن قسم كبير من ممتلكاته الثمينة، بأن يستثمر، بالطبع، في بعضٍ من شركات بارالتي المتداعية. ثم يتركونه في حاله لبعض الوقت، ثم يعودون ليَقتَطِعوا جزءًا آخر من ثروته. ويظل الحال على هذا المنوال بكل سهولة ويسر، طالما لم تعترض طريقهم أية عقبات مثلنا نحن الثلاثة. إنهم بالتأكيد سيكرهوننا.»

سألته. «هل تعرف أي شيء عنهم؟»

قال: «تقريبًا. أنا أعرف الكثير عن تروث، ولكنها ليست جميعها معلومات تدينه. إن له أعداءً وعددًا لا بأس به من النقاد، ولكن له أصدقاء أيضًا. إنه محامٍ ثاقب الفكر، بلا شك، ولكن ثمة ما يتعلق بتعدِّيه على هارالدسن يتخطى الجشع. لم تصلني الحقائق كاملةً بعد، ولكن في الخلفية، ثمة نوع من الثأر ورثه عن والده. كان تروث الأب وهارالدسن الأب شريكَين سابقًا في راند، وأعتقد أنهما كانا شريكين في شركة كبيرة حققت نجاحًا. ثم بدأ تروث يتلاعب، فطرده هارالدسن من الشركة، ويبدو أنه كان يحق له ذلك بموجب عقد الشراكة بينهما. ولكن كان تروث يعتقد أنه عومل بإجحاف وأنه يستحق حصته في الأرباح التي درها نجاح الشركة الكبير، وكان مصرًّا على إجبار هارالدسن على ردها عليه. كان هذا هو سبب المعركة على تلال روديسيا التي قصصت عليَّ قصتها. كان تروث مؤمنًا بأنه يحاول استرداد حقه، وابنه يسير على النهج نفسه. وكذلك ألبينوس، على ما أعتقد.»

سألته: «هل تواصلت مع ألبينوس؟»

«نعم، لم يكن الأمر صعبًا. فهو شخصية بارزة في مجاله. كان يقطن في أحد الفنادق الفخمة في وست إند طوال السنتين الماضيتين، ويستمتع بحياته طوال تلك الفترة. ويبدو أنه على درجة من الثراء، فرغم أنه لا يؤدي الكثير من العمل التجاري، فإنه يقضي أغلب وقته في إمتاع نفسه، يراهن على سباقات الخيول تارةً ويتردد على المسارح تارةً أخرى، إنه ينفق ببذخ على تسلية نفسه. إنه رجل معروف جدًّا. لقد رأيته بعينيَّ في إبسوم، إنه

يكبرك بقليل يا ديك، ويحافظ على لياقته البدنية مثلما تفعل أنت تمامًا، ولكنه أكثر منك أناقةً بمراحل. لقد اشتعل رأسه شيبًا، وتشعر بأنه عقيد متقاعد من سلاح الفرسان. لم أَمِلْ لأن أركز نظري عليه، فأنا لا أحب الوجه الذي يبتسم على الدوام دون أن تتغير نظرات عينيه، ولكن يبدو أن الناس يتقبلونه. إنه عضو في …» وذكر اسم نادٍ مرموق. ثم قال: «يقولون إن أموره المالية ليست على خير ما يرام.»

أومأ لومبارد برأسه موافقًا. وقال: «سمعت من مصدر موثوق أن البنك حمَّله مسئولية سحب مبالغ ضخمة على المكشوف. لقد كان متورِّطًا مع بارالتي.»

«آه! بارالتي!» ارتسم على وجه ساندي ذلك التعبير الذي ينم عن التفكير العميق، ما يعني أن اهتمامه قد أُثير بشدة. وأكمل: «هذا شخصٌ محيِّر. يمكنني أن أصنِّف تروث وألبينوس؛ فهما من نوعَين معروفَين، ولكن بارالتي صنف خاص لم أرَ مثله من قبل. كنت أجمع المعلومات عنه، وما توصلت إليه مثير إلى حدٍّ كبير. سيتطلب منا كشف حقيقة هذا الرجل وقتًا طويلًا. ولكني تمكنت من رؤيته من مسافة بعيدة، ولا يمكنني إنكار انبهاري.»

قالها ساندي ضاحكًا.

«أقنعتُ صديقًا شابًّا بأن يصحبني إلى حفل، يا إلهي، يا له من حفل! تظاهرتُ بأني رسام فرنسي، فارتديتُ سُترة سوداء، وامتنعت عن الاستحمام ليوم أو يومين. رسام سريالي، لا يتحدث الإنجليزية بطلاقة، ولكنه مُلِم بأحدث مصطلحات المراسم الباريسية. وجلستُ في زاويةٍ خاشعًا، بينما كان بارالتي يلقي خطابًا. كان الحضور مكوَّنًا من الحشد المعتاد من المفكرين العديمي الهوية، وكان الحديث الدائر من النوع الذي يمكنك توقعه؛ حديث مليء بالأوهام والخلاعة المتعمدة ينم عن الجهل. أتذكر عبارة كان جدي يقولها عن لغو المعرفة المفرطة الثقة التي كانت سائدة في عصره؛ كان يطلق عليها «ثقافة المعاهد الفنية».» لا أعلم ماذا سيكون المقابل العصري لهذه الثقافة، ربما «ثقافة البي بي سي.» أصبح ادِّعاء العلم في عصرنا مختلفًا؛ فهو لغو لا يُعنَى كثيرًا بالحقائق بل يهتم بوجهات النظر. ولكن لم يكن الشبان والشابات الحاضرون هذا الحفل على هذا القدر من الثقة. لم يسلموا جدلًا بأي شيءٍ عدا ذكاءَهم الخارق، وأن عقولهم ما هي إلا سديم من الذرات. كان بارالتي ملكًا متوجًا بين أولئك الفوضويين السذج. كنت سترى أنه من جنس مختلف عنهم، فقد كان يملك عقلًا، رغم تكريسه هذا العقل للأفكار المنحطة. وكنت سترى أيضًا أنه يحتقر هذا الأمر برمته.»

سألته: «كيف يبدو؟» فلم يصفه أحد لي من قبل وصفًا وافيًا.

«رجل عادي، فيما عدا عينَيه. لا تبدو حدقتاهما في مركز المقلتين، بل أعلى قليلًا، فتظن دائمًا أنه ينظر فوق رأسك. كما أن هاتين الحدقتين تلمعان بشدة. له وجه حاد القسمات، ولكن كلما زاد نفورك منه، زاد تحديقك به. لا أزال في بداية دراستي لشخصية السيد بارالتي، ولكني توصلت إلى استنتاج راسخ. هذا الرجل طموح بشكل مفرط وجنوني. إنه يتوق إلى إثبات جدارته حتى وإن أصبح أعور وسط عميان. ويجدر بي القول إنه أقل دناءةً من نمس، ولكنه يستعيض عن أخلاقه الدنيئة تلك بخبرته في الحياة. فهو رجل حَذِر جدًّا، وحتى هذه اللحظة نجا من الكثير من المواقف الشائكة، أو هذا ما يشتهر به على أقل تقدير. وهو يرغب في الحفاظ على هذه السمعة، ولكن يجب أن يمتلك المال، الكثير من المال، حتى يثبت للعالم أن مفكرًا متأنقًا وساخرًا مثله يمكنه أن يتغلب على الماديين في مجالهم. إنه نوع من «الأسلوب الرفيع» الذي طالما تحدث عنه أسلافنا. هل تفهم ما أقول؟ هل تدرك مدى إغراء ثروة هارالدسن بالنسبة إليه؟ ففيها أمر سري ومختلف تمامًا عن المعتاد، وتَعِد بغنيمة هائلة دون كلام. أعتقد أننا يمكننا أن نثق من أنه العقل المدبر للعملية برمتها وأنه سيحصل على الحصة الكبرى منها. ولهذا، لن يتورع عن فعل أي شيء. أكاد أجزم بأن تروث قد تنتابه بعض المخاوف، ولكن ليس بارالتي.»

كانت نبرة صوت ساندي جادة لدرجة أن الصمت خيم بعدما انتهى من حديثه. ثم شعرت بأني ملزم بتحذيره.

فقلت: «هل تدرك أننا نُقدِم على فعل كل ذلك بناءً على ما قاله هارالدسن؟»

قال: «نعم، أدرك ذلك. ولهذا السبب علينا أن نتحرك بحذر وأن ننتظر ما ستئول إليه الأمور.»

قلت: «وماذا عن الرجلين الآخرين. إننا لا نملك أي شيء يربط الشاب فاريندر وصديقك المنتمي لعصابة الفاتحين بالأمر سوى أنهما يتتبعان أثر هارالدسن.»

أجابني قائلًا: «هذا صحيح. بالنسبة إلى هذين الرجلين، فإننا لا نملك أية أدلة، مجرد شكوك فقط. لذا، علينا أن نتصرف بحيطة. ولكن ليس بحيطة مفرطة وإلا انكشف أمرنا. من القائل إن خلف كل شك تكمن حقيقة فاسدة؟ علينا أن نعتبر كل شك حقيقةً واقعة حتى يثبت عكس ذلك، ففي حالتنا هذه، لا أعتقد أننا نملك رفاهية التفريط في أي شيء. سأشارك في الأمر، فمن جانب، لا أريد أن أدع الشر ينتصر، ومن جانب آخر، أنا على يقين من أن دينجرافيل متورطٌ في الأمر، ولديَّ التزام نحو دينجرافيل ما لم يغادر روحه

جسده. لهذا السبب، سأتبع حدسي وأتعامل مع الأمر بجدية منذ بدايته. مهمتنا الأولى المباشرة هي حماية هارالدسن.»

قلت: «ستساعدنا في ذلك رسالتك المنشورة في جريدة التايمز اليوم.»

فقال ساندي: «إنها خطوة في الاتجاه الصحيح. ولكنها مجرد خطوة واحدة. علينا أن نجعل وصول هؤلاء المجرمين إلى ثروة هارالدسن مهمة مستحيلة. ومن ثَم، وضعت ولومبارد بعض الترتيبات. سيعود لومبارد معك صباح الغد إلى فوسي حاملًا حقيبة بالأوراق التي على هارالدسن توقيعها. وافترض أنه سيوافق على توقيعها، فلا خيار أمامه سوى ذلك. سننشئ وديعة تضم ممتلكاته يشرف عليها عدد من الأمناء المعروف عنهم تحمل المسئولية، وعليه أن يوكل لومبارد ليصبح محاميه. وسيحصل من الوديعة على دخل يغطي احتياجاته الطبيعية، ولكنه لن يتمكن من مس رأس المال حتى تنتهي فترة الوديعة. وهذا يعني أنه لا يمكن إجباره على التخلي عن ثروته من دون الكثير من العقبات ومن دون معرفة عدد كبير من الأشخاص بما يحدث.»

قلت: «تفكير سليم. ولكن هل ستكتشف العصابة التي تلاحقه ذلك؟»

أجابني قائلًا: «سأعمل على أن يصل إليهم الخبر. أريدهم أن يتوقفوا عن ملاحقته ويوجهوا نظرهم نحوي أنا. ورسالتي التي نُشِرت في جريدة التايمز ستجعلهم يلاحقونني أنا. بالمناسبة، أريد أن أعلن في نفس الجريدة المحترمة عن أني أنوي التبرع بلوح يشم الراحل هارالدسن إلى المتحف البريطاني.»

سألته. «ما الهدف من ذلك؟»

فارتسمت تلك الابتسامة الماكرة على شفتَي ساندي. وقال: «طُعم آخر. إنهم لن يصدقوا ذلك الإعلان. وسيعتقدون أني أحاول التملُّص من ملاحقتهم. وسيعتقدون أيضًا أن ثمة ما حدث وأخافني، وهذا تحديدًا ما أريد أن أوصله إليهم. لا أريدهم أن يعتقدوا أني قوي جدًّا. سيتخبطون قليلًا، ثم سيُجرون بعض المحاولات الزائفة، ولكن سرعان ما سأجد العصابة كلها تهاجمني بكامل عتادهم.»

بدا لي أن ساندي قد تمادى قليلًا في خططه الطموحة، وأخبرته بذلك. أضاء وجهه وبدت عليه سيماء الإصرار لدرجة أني اعتقدت أن ما يمر به فورة جديدة من فورات الصبي الخالد في داخله، فذكرته بأنه رجل متزوج. فارتسمت الجدية على وجهه على الفور.

وقال: «أدرك ذلك يا ديك. لقد فكرت في ذلك. ولكن ستكون باربارا أول من يوافق على ما سأفعله. إن الأمر لا يتعلق بإنقاذ هارالدسن المسكين فقط، رغم أن إنقاذه مسألة

ضرورة ورحمة. وإنما يتعلق بكبح جماح دينجرافيل، فإذا تركنا الحبل له على الغارب، فسيفتح أبواب الجحيم على آخرين وليس فقط على هارالدسن. لا تقلق عليَّ، فقد أخبرتك بأنهم سيتخبطون في البداية. لن تكون لديهم أدنى فكرة عما يجب أن يفعلوه معي، ويمكنني أن أقول بكل تواضع إنهم سيكونون قَلِقين قليلًا. في الوقت الحالي، سيحاولون جمع شتات أنفسهم، ولكنهم لن ينجحوا بعد. عليَّ أن أقضي أسبوعًا أو اثنين في لندن. سأقيم في النادي، ولا أعتقد أنهم سيحاولون الهجوم عليه. إنهم لن يلجئوا إلى العنف، في البداية على الأقل. كما ترى، يجب أن أعرف المزيد عن دينجرافيل لكي أتأكد.»

سألته عن كيفية تحقيق ذلك، فقال: «فاريندر. لقد وصلتني معلومات قيمة عن هذا الشاب، وأعتقد أنه يمكنني الاستفادة منه. إنه لا يزال غرًّا في عالم الجريمة، ولم يشتد عضده بعد. وأعتقد أنه يمكن تحويله إلى ما تطلق عليه الشرطة اسم «المرشد»، نصف مجرم ونصف واشٍ. فلنأمل في ذلك. وفي الوقت نفسه يا ديك، سأَكِل إليك مهمة ليست بالسهلة. ستكون المسئول عن هارالدسن.»

نطق الجملة الأخيرة بطريقة قائد يلقي الأوامر على جنوده. واختفت جميع سمات الصبيانية من وجهه.

وقال: «هارالدسن هو مفتاح الأمر برمته. ولا أعلم كيف تمكَّن من الهرب منهم طوال هذه الفترة. ربما بسبب بساطته الخرقاء. فإن كان أكثر دهاءً مما هو عليه، ربما تمكنوا من الإمساك به. حسنًا، لا يمكننا السماح لهم بالإمساك به. فالله وحده يعلم ما قد يحدث إذا ما وقع هذا الرجل الهش الأعصاب بين براثنهم! بعيدًا عن العذاب الذي سيلقاه منهم، ثمة أَرجَحيَّة كبيرة أنهم سينتصرون، فمن الممكن أن يجبروه على إلغاء الوديعة، ويمكنني أن أتخيل هارالدسن المحطم يمنحهم كامل السلطة القانونية التي يريدونها. إنه نقطة ضعفنا، وعلينا أن نحرسه كما لو كان طفلًا. كما أن هناك ابنته، الفتاة الصغيرة في المدرسة الداخلية، لست مطمئنًّا على سلامتها إذا ما تُرِك والدها يتجول كما يحلو له. الغريب في الأمر أن نقطة ضعفنا هي رجل من الفايكينج مضطرب الأعصاب. رغم ذلك، يراودني شعور بأن هارالدسن سيفاجئنا في نهاية المطاف، ستثور ثائرته ويتحول ويمزقهم إربًا. أنا لا أعرفه بشكل شخصي، ولكني أتذكر والده.»

سألته. «هل تعني أن منزل فوسي ليس آمنًا؟»

«هذا ما أعنيه تمامًا. أنا على يقين من أنهم يضعون أعينهم عليه بالفعل، وحتى إن لم يفعلوا بعد، فسيفعلون قريبًا. لن يفيدنا أن نقلل من ذكاء هذه العصابة. إن هذا المنزل يبعد عن لندن مسافة لا تتخطى سبعين ميلًا، ويقع على أرض مرتفعة يمكن الوصول

إليها من جميع الجهات، وثمة طريق رئيسي قريب من بوابات منزلك، ويتجول فيه المتنزهون والسياح طوال فصل الصيف. إنك بلا حول ولا قوة مثل بذور تُركت في العراء لتلفحها الشمس. إن جماعتك أهل للثقة، ولكن حدودك كبيرة جدًّا ولا يمكن مراقبتها بالكامل. يجب أن تذهب إلى ملاذ آمن، وثمة مكان واحد تنطبق عليه هذه المواصفات.»

سألته عن اسم المكان رغم أني كنت قد خمنت الإجابة.

قال: «ليفرلو. أريدك أن تنقل معسكرك إلى هناك على الفور، أنت وماري وبيتر جون وهارالدسن. كل ما ستفعله هو أنك ستقدم موعد زيارتك السنوية لبضعة أسابيع. لا يوجد ما يبقيك في الجنوب، أليس كذلك؟»

قلت: «لا شيء. ولكن هل تعتقد أن هذه الخطوة حكيمة؟ إنهم ليسوا واثقين بعد من وجود هارالدسن في فوسي، ولكن، بعدما أصبحتَ متورطًا الآن، سيكونون واثقين من وجوده في ليفرلو.»

رد عليَّ قائلًا: «هذا ما أريده. إن المعركة آتية ولا ريب، وأريد أن أكون أنا من يختار ساحة القتال. إن فوسي بلا دفاعات؛ أما ليفرلو فمثالي. لا يمكن لأحد أن يظهر في وادينا الطويل المنعزل من دون أن تدرك جماعتي وجوده. ولا يمكن لخروف واحد أن يضل طريقه في تلالي من دون أن يحدد رعاة أغنامي مكانه. ولا يمكن لشيء، مهما بدا تافهًا، أن يحدث دون أن أعلم به على الفور. سيكون هارالدسن آمنًا في ليفرلو حتى نرى ما ستتكشف عنه الأمور. هل تذكر أثناء مواجهتنا مع مدينا عندما نصحتك بأن تذهب مباشرة إلى ماتشراي؟ حسنًا، إن ليفرلو آمن مثل أي غابة غزلان في هايلاند، بل وأفضل، فثمة الكثير من جماعتي هناك. إذن، عليك يا ديك أن تنتقل إلى هناك على الفور — بشكل سري قدر الإمكان، ولكن من دون أي تأخير. لقد أعلمت باربارا بحضوركم، وهي في انتظاركم.»

كنت أدرك أن خطة ساندي منطقية، ولكني لم أكن سعيدًا. فقد تذكرت ما يبدو أنه قد نسيه، عندما ذهبت إلى ماتشراي لكي أبتعد عن طريق مدينا، تمكنت بمشقة أن أنجو بحياتي.

الجزء الثاني

ليفرلو

الفصل الثامن

ملاذ آمن

كانت ماري تقول عادةً إن ليفرلو يُمثِّل لها نهاية العالم. إنه يبعد مسافة ثمانية أميال عن أقرب محطة قطار وعن قرية هانجينجشو الصغيرة، ويوازي الطريق إليه وادٍ ضحل يتوسط مرتفعات مكسوة بالنباتات الخضراء وصولًا إلى حيث تزداد التلال ارتفاعًا، ولن يكشف لك أنك لم تصل إلى أعلى نقطة في الوادي إلا حجم الجدول في الأسفل. ثم يمر الطريق عبر سفحَي تَلَّين شديدَي الانحدار، حيث لا توجد إلا مساحة تكفيه والجدولَ الصغير بمشقة، ثم يلتف الطريق ويمر عبر منطقة دائرية تبلغ مساحتها ميلًا أو ميلين مربعين تحيطها تلال منحدرة مكسوة بمروجٍ خضراء يطل عليها تل لامرلو عاليًا من بعيد. كانت المنطقة الدائرية فناءً لقلعة، وكانت عبارة عن مرج أخضر تتخلله أجزاء من غابة إتريك القديمة وبحيرتين مليئتين بالبوص. يقع المنزل عند تقاطع أربعة طرق محفوفة بأشجار الزان العتيقة، يعود تاريخ إنشاء الحصن إلى القرن الثالث عشر، ويعود تاريخ إنشاء أغلب أجزاء المنزل إلى القرن السادس عشر، ولا شيء أكثر حداثة من ذلك سوى جناح التجديد الذي بناه بروس بارون كينروس. ثمة مروج خضراء وأماكن استمتاع وحديقة مسورة رائعة، ثم تجد نفسك بين المروج مرةً أخرى؛ فالأراضي السبخة تحيط بها مثلما يحيط البحر بالحيد.

كانت الأراضي لمسافة أميال ملكًا لساندي، وظلت متوارثة في عائلته لقرون، وعلى الرغم من امتلاكهم منزلًا آخر: كلينري دين، في فايف، وهو المنزل الذي اشتقوا منه لقب كلانرويدن، بعد تحريف غريب حدث للاسم في القرن الثامن عشر، فإنهم كانوا يتخذون ليفرلو مقرًّا لهم. من جهة قرية هانجينجشو في الجنوب، لا توجد أيُّ منازل سوى بعض مزارع التلال وأكواخ الرعاة. وخلف جدران الوادي التي تضم كل ذلك، توجد مرتفعات خضراء تخفي في داخلها عددًا لا نهائيًّا من الوديان والجداول الصغيرة التي لا يعرف

أسماءها سوى قطعان الحيوانات ورعاتها وخريطة سلاح المدفعية ذات مقياس الرسم الكبير. ينتهي الطريق السريع قبل القلعة بمسافة قصيرة، يليه طريق ترابي موازٍ لنهر ليفر الذي يمتد إلى ما لا نهاية، ثم ينحرف في اتجاه الحدود الإنجليزية عبر ممر يُدعَى راكسد ترابل. والمنزل نفسه رائع الجمال لدرجة أن تنحبس أنفاسك عندما يقع بصرك عليه للمرة الأولى، فهو يمثل نموذجًا مثاليًّا لإمكانات المعيشة والجمال على حدٍّ سواء، ولكنه أيضًا مُفعَم بالحركة مثل أعالي البحار ومنعزلٌ مثل مرج أفريقي.

صحبت هارالدسن وبيتر جون من فوسي بالسيارة، في حين استقلت ماري والخادمة والأمتعة وجاك جدستو القطار الذي يمر عبر لندن. كنت معتادًا على أن أصطحب حاجبي جاك معي إلى ليفرلو خلال زياراتي السنوية، فمن جانب كنت أستعين به كحمال أثناء صيد طيور الطيهوج، ومن جانب آخر لأعطيه عطلة في مكان مختلف من العالم. كما أنه يُعد مرشد صيد ومرافقًا رائعًا لبيتر جون. كان جاك إثباتًا حيًّا لخطأ أسطورة أن القروي الإنجليزي غير قادر على التكيف. كان قرويًّا من كوتسولد قلبًا وقالبًا، ولكنه كان يصنع الصداقات أينما حل، وكان يتمتع بموهبة التأقلم مع أي حياة جديدة يتعرف إليها. كان ثمة شيء في ملامحه ينم عن سلامة النية، وجهه المربع وفوداه القصيران اللذان يغزوهما الشيب، وعيناه البنيتان الثابتتان البشوشتان.

خلال الأيام الأولى من شهر يوليو، كان ثمة تجمُّع لأشخاص مبهجين جدًّا في ليفرلو باربارا كلانرويدن، وابنتها ماري، وهارالدسن، وبيتر جون، وأنا. ولكن لم يكن ساندي معنا. فقد أوصلته إلى المطار ليلة لقائنا في منزل لومبارد، ولم أره منذ ذلك الحين. وأعطاني عنوانًا في لندن، ليس ناديًا بل مصرف، أرسلت إليه خطابًا أبلغه فيه بخبر وصولنا إلى ليفرلو، ولكني لم أتلقَّ أيَّ رد منه طوال أيام. كان من المفترض أن يكون في ليفرلو أمام العامة، فقد أعلنت الصحافة خبر وصوله إلى هناك ونيته قضاء ما تبقى من الصيف هناك. كما نشرت جريدة «سكوتسمان» والجرائد المحلية أخبار حضوره مناسبات محلية، مثل عرض هايلاند، وحفل زفاف ابنة أحد جيرانه، والاحتفالية السياسية المقامة في منزل على الجانب الآخر من المقاطعة. ولكني كنت واثقًا من أنه لم يغادر لندن على الإطلاق، وعندما التقيت مدير أعماله مصادفة وسألته عن أية معلومات، وجدت أن الرجل تنتابه نفس شكوكي. قال الرجل: «إذا ما حضر سُمُوُّه إلى الشمال، كنت سألتقيه، فثمة بعض الأمور المهمة في العمل تحتاج إلى تدخله. إن هذه الصحف معتادة على نشر أخبار خاطئة.»

في ظرف أسبوع، سلب المكانُ لُبَّنا لدرجة أننا نسينا فوسي تقريبًا، وشعرنا كأننا نعيش في كنف هذا الوادي الهادئ منذ مولدنا. كان ساعي البريد يصل في وقت متأخر من فترة ما بعد الظهر حاملًا الصحف، ولكني كنت نادرًا ما أفتح أعداد جريدة التايمز المتأخرة، وكنت أجري مراسلاتي القليلة عبر البطاقات البريدية والبرقيات. كان الطقس لا يزال مشمسًا مع رياح خفيفة آتية من الشرق، وكنا نقضي النهار بأكمله تحت أشعة الشمس الساطعة.

رغم أننا لم نرَ أي غرباء، فقد كان ثمة اهتمام دائم بمستعمرتنا الصغيرة نفسها. كان ثمة حارسان، سيم وأوليفر، رجلان طويلا الساقين من القبائل الحدودية عاش أسلافهما في نفس هذا الوادي منذ عصر كينمونت ويلي، وكانا يستخدمان في حديثهما من وقتٍ لآخر عبارات حيوية ومؤثرة جعلتني أفهم كيفية كتابة الأغاني الشعبية العظيمة. كما كان هناك رئيس الرعاة ستودارت — أوكل إليه ساندي مهمة رعاية إحدى مزارعه — وكان رجلًا خشنًا وصعب المراس كجذر شجرة سنديان، وكان يبدو وكأنه ينتمي لعصر أكثر قِدمًا. كان يتمتع بتلك الخطوات الواسعة والبصر الثاقب الذي يميز بني جنسه، وكان حديثه ممتعًا جدًّا بالنسبة إلينا، فقد كشف لنا بصوته الرخيم المرح خفايا عالم الرعاة المبهم بالنسبة إلينا. وبفضل دروسه، تعلمت الكثير عن الأغنام، وكنت أصحبه عندما كان يخرج من أجل «النظر من فوق قمة التل»، ومن ثم تعرفت على جزء كبير من المنطقة الريفية الشاسعة. وما أسعدني كثيرًا أني التقيت بجوردي هاميلتون، جندي المشاة الاسكتلندي الذي كان جندي المراسلة الخاص بي خلال الحرب. كان قد تعرف إلى ساندي خلال مغامرته في أمريكا الجنوبية، وعُين في ليفرلو في وظيفة أشبه «بأمين سر»، خادم يمكنه الوصول إلى كل شيء، وعمله الرئيسي أن يهتم بشئون سيده في حال عدم وجوده، مثلما كان توم بوردي بالنسبة إلى السير والتر سكوت. لم يتغير جوردي كثيرًا، فقد كان جسده القوي الممتلئ ووجهه الأسمر وعيناه الزرقاوان المتجهمتان كما أتذكر تمامًا، ولكن تخلل الشيب شعره الأسود الأشعث فوق أذنيه.

مرت الأيام سريعًا دون أن نشعر بها. تجولنا على التلال راجلين وعلى ظهور الخيول، وتنزهنا عند المسطحات المائية البعيدة. كانت مياه الجداول قليلة والأسماك شحيحة، ولكن أبلى بيتر جون بلاءً حسنًا في البحيرات، وتمكن من صيد سمكة يبلغ وزنها ثلاثة أرطال ذات ليلة من بحيرة المنتزه باستخدام صنارة الصيد بطعم من الذباب الجاف. كنا قبل الشهر الأخير من العام بشهر واحد؛ لذا لم يكن مسموحًا لأنثى الصقر موراج

بالذهاب إلى المستنقعات، فبدلًا من ذلك، كان بيتر جون يسلي نفسه بجعلها تطارد الحمام وترعب المتطفلين. أعادت الشهور التي قضيناها في ليفرلو باربارا إلى حالتها الطبيعية، فقد كانت وماري، وصحبتهما من حولهما، سعيدتين، حتى إن غياب ساندي عن المنزل لم يؤثر بها كثيرًا، فلم يكن باستطاعة أحد توقع تصرفاته، وقد يظهر أمامك من العدم في أية لحظة. كان الطقس رائعًا في أرض ربما كانت قطعة من الجنة نفسها خالية تمامًا من المشكلات اليومية التافهة. وعندما فكرت في مشكلتي الخاصة، كان هذا من أجل تذكير نفسي بأننا آمنون تمامًا في الوقت الحالي. كان البائع المتجول الذي يأتي من هانجينجشو والذي يقع منزل ليفرلو في منطقة مبيعاته يتم الإعلان عن قدومه قبله بساعات، وكان لعربات الخباز والجزار مواعيد محددة وسائقون لا يتغيرون، وكان أي غريب يدخل إلى الوادي الصغير يتم استجوابه من جميع سكانه، أما بالنسبة إلى التلال المحيطة بالمنزل، فقد كان الرعاة أشبه بضباط استخبارات لا تفوتهم فائتة. على الرغم من كل ذلك، رأيت أنه من الحكمة أن أخبر الحارسَين وستودارت وجوردي هاميلتون بأن ثمة سببًا خاصًّا لرغبتي في أن يتم إخباري في الوقت المناسب بحضور أي شخص غريب، وكنت أعلم أن الخبر سينتشر انتشار النار في الهشيم.

كنا نعيش جميعًا في سلام، ولكن كان أكثر مَن يبدو عليه السلام من بيننا هو هارالدسن. ربما كان السبب في ذلك هو الهواء القوي، فقد كنا على مسافة أربعمائة ميل في أقصى الشمال، أو ربما الشعور بأن المكان آمن، ولكن لم تعد نظراته خائفة، ولم يعد يجفل من أي صوت مفاجئ، وأصبح قادرًا على التحدث دون أن تتحرك عيناه في كل اتجاه في قلق. بدأ هارالدسن يُقبل على الحياة، ويصحب بيتر جون وجاك في رحلات صيد الأسماك، ويصحب الحارسين وستودارت في جولاتهم، وصحبني أكثر من مرة في نزهات السير الطويلة بين التلال.

لم يكن الاطمئنان وحده هو ما يكتسبه هارالدسن. كان إقبال الرجل على الحياة يصحو من سباته الطويل. وعادت جزيرة الخراف التي يملكها — التي كان يُبعدها عن فكره — لتتربع على قمة أفكاره من جديد بينما يستمتع بممتلكات شخص آخر. كان منزل ليفرلو وطنًا بكل ما تحمله الكلمة من معنًى، لدرجة أن هذا الرجل الذي لا وطن له بدأ يشعر بأنه وطنه. رأيت في عينيه توقًا يتخطَّى مجرد التوق للشعور بالأمان. بينما كنا نتنزَّه معًا، كان يتحدث عن نورلاندز، وأدركت حينئذٍ مدى عمق حبه لها. كان عقله المضطرب يهدأ بفضل استيقاظ ولعه القديم مجددًا. وقفنا ذات مرة في وقت متأخر من ظهيرة أحد الأيام على قمة تل لامر لُو لنتناول مشروبًا ونستمتع بالمنظر الطبيعي، وكان

وادي نهر ليفر والمنزل والأراضي المحيطة به يبدون كجواهر رُصِّع بها المشهد بشكل مثالي، وكان الأفق الأزرق الممتد على مرمى البصر نحو الشمال وكل ما يحيط بنا من مناظر عبارة عن عالم من المرتفعات مصبوغة إما بالأخضر الرمادي أو الأرجواني. أخذ هارالدسن نفسًا عميقًا. وقال: «إننا في الفردوس، ولكن ثمة شيء واحد ناقص.» وعندما سألته عما يكون هذا الشيء، أجابني: «البحر.»

ومع ذلك، كان القلق لا يزال يعتريني من آنٍ لآخر. ولم يكن قلَقًا بشأن الوضع الراهن، وإنما بشأن المستقبل. لم أكن أعلم كيف يمكن الهجوم على ملاذنا الآمن، ولكن لم يكن ذلك السلام السحري هو حل المشكلة. فلن يمكننا مواصلة العيش في ليفرلو في هذا الوضع الأشبه بالحصار حتى وإن توفرت كل سبل الراحة. لم أتمكن من تخمين ما يسعى ساندي لتحقيقه فيما عدا أنه يحاول كشف مخططات أعداء هارالدسن، كانت هذه المعلومات ضرورية دون شك، ولكنها لا تعني بالضرورة أننا قد هزمناهم. كل ما كنا نفعله هو تأجيل المواجهة الفعلية. وكانت التعزية الأبرز بالنسبة إليَّ هي أن هارالدسن كان يعود إلى طبيعته بسرعة. فلو كان حاله استمر دون تغيير، كان سيتحول سريعًا من مجرد شخص يسبب لنا الحرج إلى قنبلة موقوتة قد تنفجر في وجوهنا في أي لحظة.

ذات يوم، حدث أمرٌ أيقظ جميع مخاوفي من جديد. كنت قد أخبرت بيتر جون بأن هارالدسن عرضة للخطر، ونبهته لأن يراقب عن كثب وقوع أي حدث مريب أو وجود أي شخص مثير للشك. أصبحت هذه المهمة شغله الشاغل، فقد منحته عملًا أكثر جاذبية بكثير من الساعتَين اللتين من المفترض أن يكرسهما لكتبه كل صباح. كنت أراه يصيخ السمع كلما جاء سيم أو جوردي بخبر جديد. ولكن حتى ذلك اليوم، لم تأتِ مراقبته لهارالدسن بأي نفع.

كان ذلك يوم جز صوف الأغنام في منزل ليفرلو الرئيسي، المزرعة الرئيسية. فأُنزلت قطعان الأغنام من على التلَّين إلى الوادي في الليلة السابقة، وجُمعت في حظائر كبيرة بجوار الجدول. ومن خلفها، كان ثمة زقاق ضيق لا يسمح إلا بمرور اثنين أو ثلاثة من الأغنام في كل مرة إلى حظيرة أصغر حيث اصطفت مقاعد جزازي الصوف. تجمَّع الرجال عند الفجر؛ ستودارت ومساعده راعي الأغنام الشاب الذي يُدعَى نيكسون، ورعاة بقية المزارع في ضيعة ليفرلو الذين قطع الكثير منهم ما يزيد عن عشرة أميال من الأراضي السبخة. كما كان ثمة رعاةٌ من قُرى لانلي بيلد، وكلاترينجشوز، ودرايجرين، وكامهوب الشمالية والجنوبية، ومن تَلَّي لامر، ورجل من أقاصي أراضي ساندي، التل الأخير في قرية كلادن،

والذي كانت تصل إليه الخطابات مرةً كل أسبوعين، ولم يرَ جارًا منذ شهور. وكانت ثمة كلاب من كل سن ولون، بدايةً بكلب ستودارت العجوز الذي يُدعى يارو، والذي كان قائدًا لقطيع الكلاب، وصولًا إلى الكلاب النحيلة الرشيقة الشابة من فصيلة كولي، والتي كانت شديدة العدوانية مع الأغراب كما لو كانت صقورًا، ولكنها كانت ماهرة جدًّا في مهامها ومطيعة جدًّا لأي إيماءة تتلقاها من أصحابها. وفي هذا اليوم تحديدًا، لم يكن مطلوبًا من هذه الكلاب شيء؛ إذ كان اليوم عطلة بالنسبة إليها، فغَفَا كل كلب في ظل صاحبه بعدما قضت صباحًا صاخبًا في تحية أبناء جنسها.

حضرنا جميعًا عملية جز الصوف. كان الطقس شديد الحرارة، وكان الهواء داخل الحظيرة مُعبَّأً برائحة الأغنام ورائحة الدهان المستخدم في رسم حرف L كبير على الحيوانات التي جُزَّت. رأيت عددًا كبيرًا من عمليات جز صوف الأغنام خلال حياتي، ولكني لم أرَ أحدًا يجريها أفضل من هؤلاء الحدوديين الذين كانوا يعملون في صمت تام وبسهولة ويسر. ربما كان رعاة الأغنام الأستراليون قادرين على أداء هذه المهمة بسرعة أكبر، ولكنهم لن يتمكنوا من إتمامها بمثل هذه الكفاءة. فلم يتسببوا في جرحٍ أو علامةٍ بالمقص، ووُضع الصوف المجزوز مُكدَّسًا بجوار المقاعد، وأصبحت الأغنامُ التي لم تعد داكنة أو مكفهرة اللون بل بيضاء ناصعة، مقلمة الصوف بشكل متساوٍ كما لو كانت نساءً راقيات بين يدي مصفف شعر محترف. كانت رائحة المكان سيئة بدرجة لم تحتملها النساء لفترة طويلة، ولكن على مسافة عشرين ياردة، كان ثمة مرج ناضر بدأت زهور الخلنج تصبغه باللون القرمزي، إلى جانب الضفة المكسوة بالحصى ومياه الجدول الصافية. انتهى بنا المطاف بالتخييم على تلة صغيرة حيث تمكنا من النظر إلى المشهد من أعلى، وإلى التلال الغارقة في حرارة الجو من حولنا، وإلى السماء الزرقاء من فوقنا التي ينبعث منها صياح صقرين حوامين.

تناولنا غداءنا هناك عندما توقف العمل خلال راحة منتصف اليوم، وهبطت وهارالدسن إلى أسفل التل لندخن بين الرعاة. أُقيمت مأدبة يوم جز الصوف طبقًا للتقاليد القديمة. فكانت البيرة توزع على الجميع، إلا أن الويسكي يُقدم للشيوخ فقط. كانت ثمة صناديق مليئة بفطائر لحم الضأن التي يشتهر خباز قرية هانجينجشو بإعدادها، وسلال مليئة بالكعك المدهون بالزبد وكعك الشوفان وجبن الحليب المنزوع القشدة. كانت الجماعة تضم رجالًا شديدي النهم، ولاحظت أن ذلك الراعي من التل الأخير في قرية كلادن، الذي يَعُد هذه المناسبة حدثًا لا يُنسَى بالنسبة إليه، قد التهم ست فطائر وكمية من الكعك والجبن تكفيني لمدة أسبوع.

عدنا بعد ذلك إلى المنزل، ولكن تخلَّف بيتر جون عنا، فقد قرر أن يصبح مربي أغنام ما جعل الرعاة يثقون به كثيرًا. وبعد الظهر، اصطحبت هارالدسن لزيارة حصن هاردرايدينج الذي يبعد مسافة عشرة أميال عن المنزل، وهو عبارة عن برج حجري مبني فوق جرف صخري مجاور لأحد الجداول. أتذكر تفكيري في أني لم أرَ معنوياته مرتفعة هكذا من قبل، إذ بدا لي أن الصباح الذي قضاه في مشاهدة جز صوف الأغنام ومخالطة هؤلاء القوم المهذبين الطيبين قد أسعداه أيَّما سعادة.

عندما عدنا إلى المنزل قبل موعد العشاء، وجدت بيتر جون في انتظاري وقد ارتسمت على وجهه نظرة واجمة أكثر من المعتاد.

يبدو أن زوَّارًا حضروا عملية جز الصوف عصر اليوم. وكان أحدهم ليتل، منظم المزادات من ليفركيرك. كان يجب توقع حدوث ذلك، فقد كان «لايتل»، كما ينطق القرويون اسمه، رجلًا شهيرًا في المقاطعة، وكان رجلًا قصيرًا أحمر الوجه يملك روح دعابة لا حدَّ لها، وقد اشتهرت دعاباته في قاعة المزاد عبر السهول. ولكنه كان يملك أيضًا لسانًا لاذعًا، وهذا إلى جانب معرفته العميقة بالأغنام ذات الوجه الأسود؛ ما جعله محترمًا في مجتمعه فضلًا عن كونه محبوبًا. وكان يحضر دائمًا عملية جز صوف الأغنام في ليفرلو، وكان صديقًا مقرَّبًا من ستودارت. ولكنه أحضر معه هذه المرة صديقًا لم يره أحد من قبل. ووصفه لي بيتر جون بدقة. رجل متوسط الطول، صغير السن إلى حدٍّ ما، ذو شارب صغير مهذب بعناية كالجنود. كان يرتدي سراويل لركوب الخيل وغطاءً قماشيًّا للساق، وقبعة أنيقة، وكان يحمل في يده عصا رماية بها مقعد قابل للطي. كان اسكتلنديًّا، وكان يتحدث بطلاقة، ولكن ليس بالطريقة المحلية، واعتقد ستودارت أنه ربما جاء من ناحية دومفريس. كان يُدعَى هاركوس، وقدمه ليتل للجميع على أنه تاجر صاعد لن يمر وقت طويل قبل أن يبزغ نجمه، وأنه جاء في عطلة لمشاهدة أسراب الطيور في نهر ليفر. وبدا أنه يعرف الكثير عن أغنام الشفيوت ذات الوجه الأبيض.

قلت لبيتر جون بعدما سمعت قصته: «حسنًا، إنه لا يبدو خطرًا. من الطبيعي أن تجد تاجرًا في يوم جز الصوف، وإن كان ليتل هو من أحضره، فلا بأس به.»

ولكني استنبطت من وجه الصبي أنه ليس راضيًا.

فقال: «لم أرتح لهذا الرجل. فقد كان حديثه ناعمًا جدًّا، وكان يريد أن يعرف معلومات أكثر من اللازم. وقال جوردي هاميلتون إنه «يحاول إخراج ما في داخل الحلزون.» فقد طرح الكثير من الأسئلة عن القاطنين في المنزل، وعما إذا كان اللورد

كلانرويدن لا يزال هنا أم لا. ونعت اللورد كلانرويدن بأوصاف جميلة رأى السيد ستودارت أنها مداهنة. واعتقد السيد ستودارت أنه يريد شيئًا منه.»

قلت: «لا شيء مريب في ذلك. هذه عادة التجار. ربما كان يريد شراء صوف المزرعة الرئيسية المجزوز قبل إرساله إلى ليفركيرك. هل هذا هو الأمر الوحيد الذي جعلك تشعر بالشك؟»

قال ببطء: «لا. ثمة أمر آخر. لقد تعامل معي بغرابة. كنت جالسًا خلف قدر الدهان أصنع صافرة عندما سمعت حديثه مع السيد ستودارت والسيد نيكسون كاملًا. رأيت أنه لاحظ وجودي حال وصوله. كان يحاول التظاهر بأنه لا يعرف أننا نقيم في هذا المنزل، وبدت عليه الدهشة عندما أخبره السيد ستودارت بأنك تقيم هنا، وسأله عما إذا كان يعني الجنرال هاناي الذي سمع عنه أثناء الحرب؟ ثم قال فجأة: «ابن السير ريتشارد هنا. أود أن أتعرف إليه»، وكان على السيد ستودارت أن يعرف أحدنا على الآخر. كشف لي هذا التصرف أنه يعرف كل شيء عنا بشكل مسبق، وأنه يعرف أني ابنك.»

أقررتُ — منبهرًا بفطنة بيتر جون: «هذا غريب بالفعل.» سألته عن الحديث الذي دار بينهما، وأخبرني أن الحديث تناول أمورًا عادية؛ ما مدرسته، وما رأيه في اسكتلندا، وماذا يريد أن يصبح عندما يكبر، وأنه ضحك عندما سمع مخططه لتربية الأغنام. قدم ستودارت مشروبًا للضيفَين، وبقيا لساعة ثم انصرفا نحو أسفل التل في سيارة ليتل.

قلت له: إني لا أرى سببًا يدعو للقلق. ولكن بيتر جون كان عنيدًا، ثم أخبرني بما أقلقني بشدة.

فقد قال: «فكرت في أنه يجدر بي فعل شيء ما، فطلبت من السيد سبروت — وهو راعٍ شاب في مزرعة نيثر ليفر ويعيش في مكان قريب جدًّا من قرية هانجينجشو — أن يحاول، عندما يعود إلى منزله، اكتشاف إذا ما حضر السيد هاركوس إلى القرية من قبل. هل تعلم بمَ أخبرني؟ أخبرني بأنه كان هناك لمدة ثلاثة أيام، وأنه أقام مع الآنسة نيوبيجينج في مكتب البريد. وقال إنه طاف بالكثير من المزارع، وإنه اشترى ثورًا قصير القرون من مزرعة ويندوايز حصل على المركز الثاني في عرض هايلاند.»

كانت عبارة «مكتب البريد» هي مصدر قلقي. إنه أفضل مكان قد يختار المرء الإقامة به إذا ما كان ينوي إجراء تحقيقات خاصة. لم يكن ثمة نزل في قرية هانجينجشو، وكان مكتب البريد هو المركز الطبيعي للريف مترامي الأطراف. كما أن الآنسة نيوبيجينج، مديرة مكتب البريد، تشتهر بكونها عجوزًا ثرثارة، وأنها تعيش من أجل جمع الأخبار ونشرها.

قال بيتر جون: «فكرت في أنه من الأفضل أن أطلب من جوردي هاميلتون أن يذهب إلى هناك. (كانت هذه هي المرة الأولى من نوعها التي يتخلى فيها بيتر جون عن عادته بأن يطلق على الجميع لقب «سيد»، فقد كان من المستحيل أن يدعو جوردي بشيء عدا اسمه الأول.) فركب دراجته وانطلق بعد موعد احتساء الشاي. اعتقدت أنه الرجل الأنسب لهذه المهمة، فقد كان صديقًا مقربًا للآنسة نيوبيجينج.»

قلت: «أحسنت. أعطيك درجة جيدة في حسن التصرف حتى الآن. وسأتحدث إلى جوردي في الصباح.»

ارتديت ملابسي من أجل تناول العشاء دون أن يفارقني ذلك الشعور الطفيف بالقلق. وزاد شعوري بالقلق عندما جاء من يخبرني، أثناء احتساء القهوة، بأن جوردي هاميلتون يريد لقائي بصورة عاجلة. وجدته ينتظر في غرفة الأسلحة بوجه محمر كما لو أنه قاد دراجته بسرعة من قرية هانجينجشو في هذه الأمسية الحارة.

قال فور رؤيتي: «الأمر يخص ذلك الرجل هاركوس يا سيدي. بموجب تعليمات تلقيتها من السيد بيتر جون، توجهت إلى قرية هانجينجشو وتحدثت إلى الآنسة نيوبيجينج. كان سبروت يقول الحقيقة. لم يعد هاركوس يقيم معها، فقد رحل مع ليتل، منظم المزادات، في سيارته ومعه حقيبة سفره. ولكنه كان يقيم معها طوال الأيام الثلاثة الماضية، حسنًا يا سيدي، أنا لست مرتاحًا. لم يعجبني هذا الرجل، فهو ليس رجلًا نبيلًا وليس من العامة. والله وحده يعلم ما يدبره.»

واصل جوردي إخباري بتقريره بتلك الطريقة غير المترابطة التي طالما استخدمها جنود المشاة الاسكتلنديون. فقد وجد الآنسة نيوبيجينج بمفردها وتناول بعض الشاي معها في جلسة ودية. قال: «من المريع التحدث إلى تلك المرأة. إن لسانها حاد كالسيف.» كانت مديرة مكتب البريد شديدة الإعجاب بساكنها السابق، ووصفته بأنه «رجل أنيق ولطيف وغريب الأطوار.» وأنه نشأ في جالواي، ولكنه عاش لفترة طويلة في شمال إنجلترا، وأغلب عملائه يوجدون في كارلايل. كما أخبرها بأنه يريد التواصل مع المزارعين في هذه الأنحاء، وقال عنهم إنهم صفوة القبائل الحدودية. قالت الآنسة نيوبيجينج: «لطالما وضع نصب عينيه هذه المنطقة الريفية الجميلة والريفيين المهذبين الذين يعيشون فيها.» وكانت سعيدة بالإجابة عن أسئلته لأنه سينعش التجارة في المنطقة. وعندما سُئلت عما إذا كان يشعر بالفضول تجاه ليفرلو، أجابت بأنه كان كذلك بالفعل، مثلما يشعر الجميع بالفضول تجاه المنزل الكبير. بدا أنه يعرف الكثير عن اللورد كلانرويدن، كما أنه يقدره كثيرًا. «أخبرتُه أنه من المفترض أن يكون سُمُوُّه في المنزل، ولكن لم تقع عليه عيناي

طوال أشهر. ولكني قلت له إن هذه هي طبيعته، فسموه يروح ويجيء مثل طيور الواق الأوروبية، رغم أني أفكر في بعض الأحيان أنه يجدر به أن يُولِي اهتمامًا أكبر بزوجته؛ فهي ليست حمولة جدًّا.» ولكن كانت الآنسة نيوبيجينج واثقة من أنها لم تذكر له أسماء القاطنين في منزل ليفرلو حاليًّا. وأضافت قائلةً: «ولكنه ربما قرأ أسماءَهم على الخطابات.»

بالمزيد من التحقيق، اكتشف جوردي أن هاركوس كان ما أطلقت عليه مديرة مكتب البريد «رجل مفيد» في المنزل. فقد كان يساعدها يوميًّا في تصنيف البريد، الوارد والصادر. دائمًا ما كان يلقي النكات على الأول. فكان يقول: «هذه رسالة من المصرف إلى صاندهوب. ربما تتحدث عن الأموال التي سحبها على المكشوف لشراء تلك الحيوانات من كيلسو. وثمة طرد لسُمُوِّها. إنه أكبر من الطرد الذي قد أحصل عليه بعد صفقة مبيعات كبيرة. ولكني أرى اسمَي سيدتَين، الليدي كلانرويدن والليدي هاناي. ثمة الكثير من الألقاب في منطقة نهر ليفر.»

أثارت هذه الكلمات اهتمام جوردي. فسألها عما إذا كان هاركوس مهتمًّا بالخطابات الصادرة. أجابته الآنسة نيوبيجينج: «لقد فعل، تذكرت الآن. كنت أقول له ألا حاجة إلى تصنيف جميع الخطابات الصادرة إلى ليفركيرك. ولكنه كان رجلًا دقيقًا، وكان يملك الكثير من وقت الفراغ، فكان يصنفها في مجموعات كما لو كان يلعب ببطاقات اللعب. وكان يقول: «هذه موجهة إلى إمبرو»، «وهذه إلى غرب البلاد، وهذه الكومة موجهة إلى إنجلترا.» وكان مهتمًّا بشكل خاص بالخطابات الإنجليزية، الواردة مثله من كارلايل.»

وانصرف جوردي، بعدما حصل منها على ما يريد من معلومات، وبعدما بادلها المجاملات. وهو الآن جالس معي قاطبًا حاجبَيه الكَثَّين. وقال: «لقد أخبرتني يا سيدي ألا أفوت شيئًا مهما كان تافهًا، وثمة احتمالية لحدوث أمر مريب هنا. لم يكن هاركوس مهتمًّا بالخطابات التي يرسلها القاطنون في هذا المنزل، بل كان مهتمًّا جدًّا بالأسماء التي يرسل إليها القاطنون هنا الخطابات.»

لقد أصاب كبد الحقيقة، وظننت في البداية أن هذه الملاحظة ليست مهمة. وبعدما انصرف جوردي، تذكرت فجأةً أنه على الرغم من وجودنا في ملاذ آمن، فإن جماعتنا ليست كاملة. كان ثمة شخص واحد متغيب. ليس ساندي؛ فهو قادر على الاعتناء بنفسه جيدًا. بل ابنة هارالدسن، أنَّا.

انطلقت أبحث عن هارالدسن، ولكني اكتشفت أنه خرج مع بيتر جون لصيد أسماك السلمون من بحيرة المنتزه. لم يعودا إلى المنزل حتى قبل السابعة بقليل، وتأملتُ —

أثناء دخولهما الردهة من الخارج حيث كانت السماء مضاءة بذلك اللون الأرجواني الذي يميز الليل في ليفرلو خلال الأيام الأولى من شهر يوليو — التحولَ الإعجازي الذي أحدثته الأسابيع القليلة الماضية في مظهر هارالدسن. فقد أصبح يرفع رأسه وينظر في عينيك مباشرة، ويسير كرجل حر. عندما ذهبت إليه كان يضحك كصبي لا يشغله شيء من مظهر بيتر جون عندما ارتدى سراويل تخويض ساندي القصير. وفكرت أن الخطر المحدق بنا يكمن في هذه الثقة المُستعادة.

لطالما حكى لي عن ابنته أنَّا. كانت تقيم في مدرسة داخلية معروفة للفتيات في نورثامبتونشير تُسمى بروتون آشيز، واسم عائلتها في المدرسة هو سميث، الاسم الذي أعطاه لنفسه عندما لجأ إلى إنجلترا. في البداية، كان يذهب لاصطحابها من المدرسة خلال العطلات، ويأخذها إلى منتجعات ساحلية نائية ذات سمعة حسنة. ولكن، مع تفاقم خوفه من الملاحقة، تخلى عن كل ذلك، ولم يذهب لرؤيتها لما يقارب عام كامل. ورتب مع واحدة من المعلِّمات، تعلقت بها ابنته، أن تصحبها إلى خارج المدرسة خلال العطلات على أن يتحمل هارالدسن تكاليف الرحلات الباهظة لكلتَيهما، وكانت هذه هي الطريقة الوحيدة التي يمكنه اتباعها لتعويض ابنته عن غيابه. لطالما كان شديد الحذر فيما يتعلق بالمراسلات، فلم يرسل إليها خطابًا بشكل مباشر أبدًا، بل كان يراسلها عن طريق مصرفه، ولم يغامر بأن يُظهِر وجهه في نطاق عشرين ميلًا من مدرسة بروتون آشيز.

حوَّلت دفة الحديث نحو الفتاة، مع مراعاة ألا أقلقه، فلم أكن أريد أن أفسد فترة نقاهته. تظاهرت بأن بيتر جون يود أن يرسل إليها خطابًا يخبرها فيه عن ليفرلو، وسألته عن كيفية تحقيق ذلك. أخبرني بأن ثمة ثلاثة مصارف للاختيار من بينها، وجميعها لديها التعليمات نفسها.

قلت: «إنها طريقة ملتفة، ولكن يجدر بي أن أقول لك إنك رجل حكيم. هل تلتزم بهذه التعليمات بحذافيرها؟»

«نعم. هكذا أفضل. لن تعلم أبدًا ما قد يحدث ... ولتحري الصدق، لقد كسرت هذه القاعدة مرةً واحدة، ولا أنوي كسرها مرةً أخرى. كان هذا يوم الاثنين الماضي. كان عيد ميلاد أنَّا الثالث عشر بالأمس، واختلطت عليَّ التواريخ، فقد أصبحت منشغلًا جدًّا هنا لدرجة إهمالها. ولم أتحمل فكرة ألا تصل إليها أي رسالة مني في ذكرى يوم ميلادها، فأرسلت إليها خطابًا مباشرةً على عنوان مدرسة بروتون آشيز.» كان يبتسم محرجًا مما فعل، ونظر نحوي كما لو كان ينتظر توبيخًا. ثم قال: «لا أعتقد أن ضررًا قد حدث. فهذا المكان بعيد عن أي أحد.»

قلت: «لا بأس بذلك. لا تجعل الأمر يؤرقك، ولكني أعتقد أنه من الحكمة أن تلتزم بقاعدتك. فلنخلد إلى النوم الآن. يا إلهي، إنه منتصف الليل تقريبًا.»

ولكني لم أكن أرى أن الأمر لا بأس به على الإطلاق. إنه لحظ عَثِر أن يتخلى هارالدسن عن حرصه أثناء وجود ذلك الرجل الغامض هاركوس في المنطقة. أخبرت نفسي أن الرجل المذكور أعلاه ربما لم يشك في أمر خطاب مُرسل إلى الآنسة أنَّا سميث في عنوان في الريف الإنجليزي. ولكني لم أقع أبدًا في خطأ التقليل من قدر ذكاء مَن أواجههم. على أية حال، لم أكن لأترك شيئًا للصدفة. فأخرجت جوردي هاميلتون من غرفته أعلى الإسطبلات وأخبرته بأن نداء الواجب قد حان. ثم أرسلت خطابًا إلى ساندي في لندن أخبره فيه بكل ما حدث وجميع شكوكي تجاه هاركوس. وتركت له مهمة تقرير ما إذا كنا سنقدم على أيِّ خطوات لحماية الفتاة. أمرت جوردي بأن يتجه من فوره إلى ليفركيرك التي تبعد عن ليفرلو عشرين ميلًا، وأن يرسل الخطاب من هناك، وقد يلحق البريد المتجه إلى لندن — تقع ليفركيرك على الطريق الرئيسي المتجه جنوبًا — ويصل إلى ساندي مساء اليوم التالي.

ولكني لم أشعر بأن الخطاب يكفي. فكتبت برقية أيضًا إلى ساندي بشفرة بسيطة كنا نستخدمها في الماضي — وكانت برقية طويلة، فكان عليَّ أن أشرح الكيفية التي ربما حصل بها العدو على عنوان الفتاة. بعدما يرسل جوردي الخطاب، سيذهب لينام في فندق «ستيشن»، ثم يستيقظ مبكرًا ليرسل البرقية بمجرد أن يفتح مكتب البريد أبوابه. لم أكن أخشى حدوث أي تجسس في ليفركيرك، فقد كانت مدينة تجارية كبيرة ومزدحمة تحتوي على نصف دزينة من مكاتب البريد.

ثم ذهبت لأنام يرافقني قلقٌ لم أتمكن من إنكاره أمام نفسي. لقد تقوَّض السلام السعيد الذي عشته في ليفرلو. وشعرت بما شعر به ذلك الرجل من رواية «جزيرة الكنز» الذي أخبر بالبقعة السوداء.

الفصل التاسع

لوكينفار

في اليوم التالي، كسرت موجةَ الحر أمطارٌ غزيرة، وبحلول منتصف النهار، أصبحت مياه نهر ليفر عَكِرة، وبحلول المساء أصبحت فيضانًا هادرًا. خرجتُ وبيتر جون قبل العشاء، وتمكنَّا من صيد الكثير من الأسماك باستخدام الديدان طُعمًا من البرك التي توجد في الطرف الشمالي من المنتزه. كانت السماء لا تزال تمطر رذاذًا في صباح اليوم التالي، ووُفقنا في صيد وفير من روافد النهر باستخدام طُعم يُعرَف في هذه الأنحاء باسم العنكبوت الأسود. لطالما كنت أهوى الصيد في الجداول، فمن المستحيل أن تتمكن من إلقاء الصنارة بالطريقة نفسها مرتين، كما أني أحب المناظر الطبيعية المختلفة التي تقدمها كل انحناءة في الوديان الصغيرة. ولكن، بعد الغداء، طمحت نفس بيتر جون لما هو أفضل. كانت ثمة بحيرة جبلية تبعد مسافة ستة أميال داخل التلال تُسمَّى بلاك لوك، حفرة تغطيها الطحالب وتنتشر على سطحها زنابق الماء الصفراء ومن الصعب جدًّا الصيد فيها. حاولنا الصيد فيها من قبل في غروب أحد الأيام، ولكن لم يحالفنا الحظ، رغم أننا رأينا بها أسماك سلمون كبيرة. لطالما قال سيم إن أفضل وقت للصيد في هذه البحيرة هو بعد المطر عندما تكون أسماكها الخمولة مضطربة بفعل المياه المتدفقة من التلال. فانطلقنا مع أوليفر وجوردي هاميلتون، وأخبرنا باربارا بأننا قد نتأخر عن موعد العشاء.

لم نعُد إلى المنزل إلا بعد التاسعة والنصف. وأصبح الجو صافيًا، وكانت الأمسية الدافئة أشبه بكرنفال صيد أسماك السلمون من بحيرة بلاك لوك. كانت الأسماك تلتقم أي طعم نلقيه لها، ولكن كانت أربع أسماك من كل خمس إما أن ترهقنا حتى نتركها أو تفلت منا. كنا مضطرين إلى إلقاء خيوط صنانيرنا من فوق حزام كبير من زنابق الماء والأعشاب، ما كان يعني أن خيط الصنارة سيكون طويلًا ومرتخيًا. كان من المستحيل بالنسبة إلينا أن نخوض لمسافة أبعد داخل البحيرة، فلم يكن قاعها مستويًا، وقد خضت

فيها ذات مرة حتى وصل الماء لمستوى خصري. لكي نخرج سمكة من المياه، كان علينا أن نسحبها بقوة مفرطة عبر أعشاب البركة، ولأننا كنا نلقي بخيوطنا الرفيعة لمسافات بعيدة داخل البحيرة، كنا نفشل فشلًا ذريعًا. كان ثمة لسانان من الحصى يتخللان البحيرة، وكانت فرصتنا الوحيدة في الحصول على سمكة كبيرة أن نحاول توجيهها نحو أحدها، وهي مهمة ليست بالسهلة، فلم يكن أيٌّ منا مجهَّزًا بعتلة. وتمكن بيتر جون، الذي كان أفضلنا أداءً، من صيد سمكتين رائعتين، يبلغ وزن كلٍّ منهما رطلين تقريبًا، رغم أنه مُنِي بالكثير من الإخفاقات أيضًا. رغم كل هذه الصعوبات، تمكنَّا إجمالًا من صيد دزينتين وثلاث سمكات، بوزن إجمالي يبلغ سبعة وعشرين رطلًا، وهي أفضل حصيلة صيد خرجت من بحيرة بلاك لوك على ما يتذكر أوليفر.

جعلني اليومان اللذان قضيتهما في الصيد أنسى كل شيء، وهو أمر دائمًا ما يحدث لي خلال الصيد. بينما كنا نجتاز الأراضي المظلمة ذات الرائحة العطرة في اتجاه المنزل، لم أكن أفكر في شيء سوى الاستحمام وتناول العشاء. ولكن مع اقترابنا من المنزل، عدت إلى رشدي فجأةً. فأمام المدخل الأمامي للمنزل، كانت تقف سيارة ضخمة وقذرة جدًّا ترجل منها رجل يرتدي معطف مطر. لم يكن يرتدي قبعة، ورأيت رأسه الأصلع ووجهه المحمر الملطخ بالطين، وكان يبدو عليه الإنهاك والاضطراب. كان الرجل يساعد شخصًا آخر، بدا وكأنه فتاة، على الترجل من السيارة. ثم سمعنا ضوضاء تصدر فجأة من داخل المنزل، وخرج منه هارالدسن وهو يصيح كالمجنون. وحمل الفتاة من داخل السيارة وغمرها بالقبلات والأحضان.

عندما اقتربنا أكثر، أدركت أن الرجل هو لومبارد، ولكنه كان على النقيض تمامًا من ذلك الثري الأنيق من المدينة الذي التقيته منذ أَمَدٍ ليس بالبعيد. فكان يبدو مرهقًا وقذرًا، ولكنه كان سعيدًا، بل وبدا أصغر عمرًا، أصبح أشبه بلومبارد الذي أتذكره عندما كنا في أفريقيا. قال: «لقد وصلنا أخيرًا والحمد لله. كان الطريق قاسيًا ... ما أكثر شيء أريده؟ أولًا الاستحمام، ثم الطعام؛ الكثير من الطعام، فلم نتناول شيئًا سوى البسكويت. لم أُحضر معي أي حقائب، ويجدر بك أن تعيرني بعض الملابس النظيفة.» أما هارالدسن، فظل يتصرف كرجل مجنون، فلم يتوقف عن الربت على كتف الفتاة والتشبث بها كما لو أنه يعتقد أنها ستختفي في أية لحظة. وظل يقول: «لقد اكتملت سعادتي.» ظل الحال على هذا المنوال حتى جاءت باربارا وماري وأخذتا الفتاة معهما.

أعطيت لومبارد حلة ذات قماش ناعم، وتناولنا وجبة عشاء متأخرة ضخمة، على الأقل أربعة منا فعلوا، بينما جلس الثلاثة الآخرون، الذين تناولوا عشاءهم بالفعل،

يتفرجون. كانت أنًّا ترتدي تنورة زرقاء ذات ثنيات وقميصًا أبيضَ اللون، ما افترضت أنه الزي الموحد لمدرستها. كانت فتاة أطول قامة بالنسبة إلى سنها، شقراء الشعر لحدٍّ كبير حتى يقارب أن يكون أبيض. وكانت أجزاءٌ من شعرها الأشقر تبدو بيضاء تحت إضاءات معينة، وكان وجهها شاحبًا، وملامحها تنم عن سن أكبر من سنها الحقيقية، فقد كانت الانحناءة الكاملة لذقنها من سمات النساء لا الفتيات. كانت عديمة اللون فيما عدا عينَيها، وفكرت أن هارالدسن كان يستحق ما هو أفضل من تلك الفتاة الباهتة الشاحبة. همست لماري بهذه الكلمات عندما كنا في الردهة قبل العشاء، فضحكت مما قلت. وقالت: «إنك حمار أعمى يا ديك. فهذه الفتاة ستصبح بارعة الجمال ذات يوم ببشرتها العاجية وعينيها اللتين في زرقة البحر.»

بعدما أكلنا، ذهب هارالدسن مع الفتيات ليضع أنًّا في فراشها ويرى ما تحتاج إليه من ملبس، فلم تكن معها حقائب أيضًا. تناول لومبارد كأسين من نبيذ ساندي الشهير، وعندما انتقلنا للجلوس في غرفة التدخين، اختار لنفسه مقعدًا وثيرًا جلس عليه وقد بدا عليه الرضا البالغ. وقال: «نقطة أُولى أحرزها فريقنا. ولكننا تمكنا من ذلك بمشقة، أؤكد لك ذلك. حتى عشر ساعات مضت، لم أكن لأراهن ببنسَين على فرص نجاحنا. سيكون عليَّ أن أرسل الكثير من البرقيات غدًا، ولكن الليلة، حمدًا لله! يمكنني أن أنام قرير العين.»

أخبرنا لومبارد بقصته، والتي سألقيها عليكم كما قالها.

(قال) وصلت برقيتك إلى كلانرويدن صباح أمس. وأنت تقول إنك أرسلت إليه خطابًا أيضًا، أليس كذلك؟ حسنًا، لم يكن الخطاب قد وصل إليه عندما انصرفت، ولكن يبدو أنك شرحت له ما يحدث بشكل وافٍ في البرقية. فتواصل معي على الفور، لحسن الحظ كنت نائمًا في المدينة التي قدت سيارتي إليها في اليوم السابق. فكانت ثمة بعض الأمور التي يجب أن أنتهي منها قبل أن أحصل على عطلتي، وكنت قد انتهيت منها بالفعل وعلى وشك الرجوع إلى المنزل بعد الغداء.

قال لي كلانرويدن إني يجب أن أتحرك على الفور، فربما حصل خصومنا على عنوان ابنة هارالدسن ومن المؤكد أنهم سيتحركون على الفور. وربما فات الأوان أثناء حديثنا الآن. كان عليَّ أن أذهب إلى المدرسة في نورثامبتونشير وأحضر الفتاة إلى المدينة. ورتب أن تقيم الفتاة مع عمة والدته في ميدان ساسكس حتى يرتب خططًا أخرى. كان سيذهب لإحضارها بنفسه، ولكنه لم يحبِّذ ذلك، فقد كان يعتقد أنه مراقب عن كثب، ولكني لا أزال بعيدًا عن الشكوك، وأنا الوحيد الذي يمكنه إتمام هذه المهمة. وأرسل معي رسالةً

إلى مديرة المدرسة، الآنسة بارلوك، يخبرها فيها بأنه أقرب أصدقاء هارالدسن؛ أي سميث، وأنه مَن يدير شئونه، وأن لديه تفويضًا منه بإحضار ابنته إليه في لندن لتقضي معه بضعة أيام من أجل بعض الشئون العائلية. واعتقدَ أن هذه الرسالة ستكون كافية، فقد كان واثقًا من أن مديرة المدرسة تعرف اسمه، وقال أيضًا إن مظهري جدير بالاحترام والثقة. كان من المفترض أن آخذ الفتاة إلى ميدان ساسكس مباشرةً، حيث سينتظرني. قال إنه سينتظرني حتى الرابعة، ولكن إذا حدثت أي عقبات، فعليَّ أن أرسل إليه برقية على الفور، وسيرسل أحد أعوانه في المصرف الذي دفع مصروفات المدرسة.

أعجبتني مهمة منقذ الفتيات، فقد انتابني شعور بأني لا أشارك بالقدر الكافي في هذا الأمر، فانطلقت بسيارتي ومعنوياتي مرتفعة. ذهبت بسيارتي البنتلي الكبيرة التي أقودها بنفسي دائمًا. ووصلت إلى مدرسة بروتون آشيز في تمام الحادية عشرة، ووجدتها عبارة عن مبنى ضخم من الطوب الأحمر ذي واجهة جرداء يتوسط حديقة جميلة، وأعتقد أنه كان أحد المنازل التي بناها رجل النفط، تومبلين، لنفسه قبل انهيار تجارته. حسنًا، أرسلت بطاقتي إلى الآنسة بارلوك، ولكني، لحسن الحظ، لم أرفق رسالة كلانرويدن معها. قيل لي إن الآنسة بارلوك مشغولة قليلًا، ووُجهت إلى قاعة استقبال مليئة بالمجموعات المدرسية ولوحات ألوان مائية فائزة بجوائز وأوعية ضخمة تحوي زهورًا رائعة الجمال. جعلتني الغرفة أولع بالمكان، فقد أرتني أن القائمين عليه يعرفون كيفية زراعة الزهور، ولن تجد في أي بستانيٍّ حريصٍ الكثيرَ من العيوب.

انتظرت حوالي عشر دقائق، ثم انفتح باب الآنسة بارلوك وعبره ثلاثة أشخاص. أحدهم أنَّا، التي كانت تبدو مضطربة. وكان الشخصان الآخران رجلًا وامرأة؛ شاب يرتدي حلة صوفية وربطة عنق ملائمة لها، كان شابًّا بارز الأسنان أسمر اللون، وامرأة في منتصف العمر ترتدي ثوبًا كتانيًّا بني اللون ونظارة ضخمة. صحبت خادمة الأشخاص الثلاثة إلى الطابق السفلي، وأُخبرت بأن أدخل لمقابلة الآنسة بارلوك.

كانت امرأة نحيلة ذات شعر رمادي وعينين لامعتين، يكتنفها مظهر الكفاءة الصارمة الذي تضفيه النساء الخجولات عادةً على أنفسهن كنوع من الدفاع عن النفس. لم يكن ثمة ما يريب بشأنها، ولكني أدركت حال وقعت عيناي عليها أنها متزمتة وأنها ستكون شديدة التمسك بالقواعد. فنبهني حدسي إلى أنه يجدر بي أن أتعامل بمكر. لحسن الحظ، بدأت حديثي بأن أخبرتها أني أحد أصدقاء والد أنَّا سميث القدامى، وأني حضرت إلى هنا لأقابلها وأعطيها رسالة.

فابتسمت الآنسة بارلوك. وقالت: «المصائب لا تأتي فرادى. ليست العزيزة أنًّا معتادة على استقبال زيارات من أصدقاء. ولم يحضر والدها المسكين لرؤيتها منذ شهور. ولكن هل تعلم أن أبناء عمومة أنًّا حضروا إلى هنا هذا الصباح؟ ولا بد أنهما مَرَّا من أمامك وبصحبتهما أنًّا أثناء دخولك إلى مكتبي. كانا يحملان خطابًا من السيد سميث يطلب فيه أن أسمح لهما باصطحاب أنًّا معهما قبل أن تبدأ العطلة بأسبوع. وأعتقد أنهما قالا إنهما سيأخذانها في رحلة إلى عواصم دول الشمال. وافقت على الفور، فقد كانت الفتاة تذوي في هذا الطقس الحار.»

جعلني ما أخبرتني به أتوقف وأفكر مليًّا. بدا الأمر وكأني قد تأخرت كثيرًا، وأن الفريق الآخر قد سبقني إلى الفتاة. وقررت أنه لن يكون في صالحنا أن أريها رسالة كلانرويدن. يبدو أن الآخرين قد أعدوا خطة مُحكَمة، فقد عرضوا عليها رسالة من هارالدسن نفسه مع تقليد دقيق لخط يده الذي لا شك في أن الآنسة بارلوك قد رأته أثناء أيامه الأولى في إنجلترا. رأيت أنهم كانوا مهرة جدًّا عندما أرسلوا شابًّا غير لافت للنظر وامرأة عادية لا تهتم بالموضة، بدلًا من إرسال امرأة أنيقة دهنت شفاهها باللون القرمزي وذات وجه شرير قد يثير الشكوك في نفس مديرة المدرسة. كان الاثنان نموذجًا لأبناء العمومة الريفيين. لم أستطع أن أبخسهم حقهم، وإذا ما أخبرت الآنسة بارلوك بالحقيقة، فسأبخس حق نفسي. فخطاب كلانرويدن لم يكن ليصمد أمام كلمات هارالدسن، حتى وإن لم تشك مديرة المدرسة في أنه مزور. وجدت نفسي في موقف لا أُحسَد عليه، وكان يجب أن أتصرف بحذر. كان أول ما عليَّ فعله هو أن ألتقي أنًّا نفسها.

حدقت الآنسة بارلوك في البطاقات الموضوعة أمامها على المكتب. وقالت: «قالت الليدي بليتسو وابنها — ذلك البارونيت الشاب — إنهما سيتناولان الغداء مع أنًّا في بروتون آرمز في تمام الواحدة، ثم سيذهبون جميعًا إلى لندن. وأن فترة الصباح ستمضي في حزم أمتعة أنًّا.» لاحظت وجود شجرة العائلات النبيلة على الطاولة، وقد نُقلت من فوق حامل المراجع الخاصة بهذا الموضوع. كانت الآنسة بارلوك امرأة حذرة، وكانت تتقصَّى عن زوارها قبل أن تلتقيهم. تساءلتُ عن عائلة بليتسو الحقيقية. لقد سمعت الاسم من قبل في يوركشاير.

قلت بودٍّ إني سعيد أن أقرباء أنًّا سيصحبونها في رحلة. وتظاهرت بالسذاجة وأنا أقول إن الرحلات مفيدة جدًّا في توسعة مدارك النشء. ولكن، بما أني قطعت كل هذه المسافة حتى هنا، أود أن أتحدث إلى الفتاة، فأنا صديق والدها وأحمل رسالة منه إليها وعدته بأن أوصلها إليها. كنت أود لو تمكنت من اصطحابها لتناول الغداء، ولكن، بما

أنها ستذهب لتناول الغداء مع أبناء عمومتها، فهل يمكنني أن أخرج معها في نزهة قصيرة في المنتزه؟

لم ترَ الآنسة بارلوك مانعًا. فدققت جرسًا وأمرت خادمةً بالبحث عن الآنسة مارجيسون. أخبرتني الآنسة بارلوك بأن الآنسة مارجيسون هي صديقة الفتاة الأقرب من بين المعلمات، وأن والدها قد كلفها بشكل خاص بمراعاة الفتاة، وأنها اصطحبت الفتاة أكثر من مرة خارج المدرسة خلال العطلات. حضرت الآنسة مارجيسون، ومنحتني رؤيتها أول بارقة أمل. فلم يبدُ عليها أيٌّ مِن تزمُّتِ المعلمات العاديات وتحذلُقهن. كانت فتاة طويلة القامة، ذات شفاهٍ تنم عن الطيبة، وعينين تشعان بالذكاء والود. يجب أن أجعلها حليفتِي بأي ثمن.

سألتها مديرتها قائلة: «هل انتهى حزم أمتعة أنَّا سميث يا آنسة مارجيسون؟ هل سينتهي في خلال ساعة؟ رائع. ستأتي سيارة لتقلها إلى بروتون آرمز في الساعة الواحدة إلا الربع، حيث ستلتقي أبناء عمومتها. وحتى يحين ذلك الوقت، هذا أحد أصدقاء والد أنَّا حضر ليراها. هلَّا رتَّبتِ أمر أن يخرج معها في نزهة قصيرة في الحديقة؟ نعم، الآن.» ثم أضافت وهي تلتفت نحوي: «لا يجب أن تكون نزهة طويلة يا سيد لومبارد، فلا شك في أنَّ أنَّا سترغب في توديع معلماتها وصديقاتها.»

صحبتني الآنسة مارجيسون إلى الطابق السفلي وخرجنا من المبنى إلى حديقة غَنَّاء مُسوَّرة تقع خلف المنزل. ثم دخلت المنزل وعادتْ سريعًا ومعها آنَّا. كانت المرة الأولى التي أرى فيها الفتاة عن قرب، وأذهلني ما رأيت. إنها ليست بارعة الجمال، كما رأيت بنفسك، ولكني فكرت أنها تمتلك ملامح تنم عن العقل بشكل غير معتاد لمن هم في مثل سنها الصغير. لا أعرف الكثير عن الأطفال، فلم أُرزَق بأطفال من صلبي، ولكني رأيت أن تَعقُّل هذه الفتاة أمر استثنائي. يبدو أنها لم ترث عن والدها أعصابه المضطربة. كانت رؤيتها هي بارقة أملي الثانية.

لم يكن ثمة وقت لأضيعه، فبدأت أخبرها بقصتي على الفور.

قلت: «آنَّا، عزيزتي، إننا لم نلتقِ من قبل، ولكني تعرفت إلى جدك في شبابي عندما كنا في جنوب أفريقيا، وجعلني ورجلًا آخر، يُدعَى الجنرال هاناي، نتعهد بمساعدة والدك إذا وقع في مشكلة. ثمة خطر كبير محدق بوالدك — وكان محدقًا به منذ فترة طويلة — ولكن الأمور أصبحت أسوأ حالًا. لهذا السبب، لم يأتِ لرؤيتك منذ فترة طويلة. ولهذا السبب يدعوك الجميع باسم الآنسة سميث هنا، بينما اسمك الحقيقي هو الآنسة

هارالدسن. ولهذا السبب تأتيك خطاباته دائمًا عبر المصرف. لقد أصبحت عُرضةً للخطر أنتِ أيضًا. هذان الشخصان من عائلة بليتسو، اللذان أتيا هذا الصباح ويزعمان أنهما من أبناء عمومتك، ليسا سوى محتالَين. والخطاب الذي معهما من والدك مُزوَّر. أعداء والدك هم مَن كتبوا هذا الخطاب، ويريدون أن يضعوا أيديهم عليكِ. واكتشف أصدقاؤك الخطر المحدق بك، وأرسلوني لكي أصحبكِ إلى بر الأمان. ووصلت في الوقت المناسب تمامًا. هل ستثقين بي وتفعلين ما أطلبه منكِ؟»

لم تتغير ملامح تلك الفتاة غير العادية. كانت تستمع إليَّ بنفس الهدوء الذي لا يتزعزع، ولم تفارق عيناها عينَي. ثم التفتت نحو الآنسة مارجيسون وابتسمت. وكان كل ما قالته هو: «يا لها من مغامرة يا مارجي!»

ولكن لم ترَ الآنسة مارجيسون الأمر من المنظور نفسه. فقد بدا عليها الخوف والاضطراب.

وقالت: «يا لها من قصة سخيفة! إنها محض هراء يا أنَّا. إن اسم عائلتك هو سميث.»

أجابتها الفتاة بوضوح وصراحة: «لا، هذا ليس صحيحًا. إنه هارالدسن. آسفة يا عزيزتي مارجي، ولكني لم أتمكن من إخبار أحد بذلك، حتى أنتِ.»

تلعثمت الآنسة مارجيسون مرتبكةً وقالت: «ولكن ... ولكنك ... لا تعرفين شيئًا عن هذا الرجل — إنك لم تلتقيه من قبل. كيف تجزمين أنه يقول الحقيقة؟ يملك أبناء عمومتك خطابًا من والدك، ولم تشك الآنسة بارلوك في كونه مزيَّفًا، وأنت تعلمين كم هي ذكيَّة. إنهما يبدوان محترمين.»

قالت أنَّا: «لم أرتح لهما» فتجدَّد أملي مرة أخرى. واستمرت الفتاة تقول: «كانت المرأة ترمقني بنظرات غير مريحة من خلف نظارتها. كما أني لم أسمع من قبل عن أقرباء إنجليز.»

صاحت الآنسة مارجيسون: «ولكن اسمعيني يا حبيبتي. إنك لم تسمعي عن هذا الرجل أيضًا من قبل. كيف تجزمين أن والدك من أرسله؟ كيف تجزمين أنه يقول الحقيقة؟ إذا كان ثمة أي شكوك تراودك، فلنذهب إلى الآنسة بارلوك ونخبرها بأنك لا تريدين الذهاب في أي رحلة، وأنك تُفضِّلين البقاء هنا حتى نهاية الفصل الدراسي. وفي خلال ذلك، يمكنك أن تتواصلي مع والدك.»

قلت: «هذا رأي سديد، ولكنه لن يعود بنفع. لقد أصبح أعداء والدك يعرفون مكانك الآن. إنهم مهرة جدًّا ومعدومو الضمير. إذا لم تذهبي مع آل بليتسو، فسيعثرون على طرق ووسائل أخرى ليصلوا إليك قبل أن يتمكن والدك من التدخل بوقت طويل.»

قالت الآنسة مارجيسون بوقاحة: «هراء. هل تتوقع مني أن أصدق هذه التمثيلية؟ إنك تبدو صادقًا، ولكنك قد تكون غبيًّا. ما هي مهنتك؟»

قلت: «مهنةٌ لا تصلح لرجل غبي. أنا صاحب شركة مصرفية وتجارية»، وأخبرتها باسم شركتي. ومن حسن الحظ أن أحد أقرباء الآنسة مارجيسون يعمل في شركتي، وتمكنت من أن أخبرها بالكثير عنه. أعتقد أن هذا أقنع الآنسة بحسن نواياي.

فسألتني: «ماذا تنوي أن تفعل مع أنَّا؟»

«سآخذها إلى والدها مباشرةً.» كنت قررت أن هذه هي الخطة الوحيدة. فالفتاة ستكون في خطر محدق في لندن، خاصةً الآن بعدما أصبح بإمكان الأعداء تتبع مسارها.

سألتني: «هل تعرف مكانه؟»

قلت: «نعم، وإذا ما تحركنا على الفور، فقد أتمكن من إيصالها إليه قبل منتصف الليل.»

ثم خطر لي فجأةً أن في جعبتي دليلًا مقنعًا.

فقلت: «أنَّا، يمكنني أن أخبرك بأمر من شأنه أن يقنعك بصدقي. لقد وصلك خطاب من والدك يوم عيد ميلادك منذ ثلاثة أيام، أليس كذلك؟»

أومأت الفتاة برأسها أن نعم.

«ولم يصلك الخطاب من لندن في أحد أظرُف المصرف. لقد وصلك من اسكتلندا.»

قالت الفتاة: «نعم، لقد وصلني من اسكتلندا. إنه لم يكتب عنوانًا عليه، ولكني لاحظت خاتم أحد مكاتب البريد الاسكتلندية. وشعرت بحماسة شديدة لأني لطالما أردت الذهاب إلى اسكتلندا.»

«حسنًا، هذا الخطاب الذي أرسله والدك هو ما دل أعداءه على مكانك. فقد رأى أحدهم العنوان في مكتب بريد اسكتلندي. وشعر صديق والدك، اللورد كلانرويدن، بالقلق عليك، فأرسلني إلى هنا على الفور. ألا يثبت لكِ هذا أني أقول الحقيقة؟» ونظرتُ نحو الآنسة مارجيسون.

ورأيتُ أن تشكُّكها قد بدأ يتزعزع. وصاحت قائلةً: «لقد شَل فكري. لا يمكنني تحمل أي مسئولية عن ...»

فأمسكت تلك الطفلة المذهلة بدفة الحديث ببساطة.

وقالت: «ليس عليك أن تتحملي أي مسئولية يا عزيزتي مارجي. عودي إلى داخل المنزل واستمري في عملك. سأذهب مع السيد لومبارد. فأنا أصدقه. وسأذهب معه إلى اسكتلندا حيث يوجد والدي.»

فقالت الآنسة مارجيسون: «ولكن أمتعتها لم تُحزَم بعد. لا يمكنها أن ترحل هكذا …»

قلت: «أخشى أننا لن نستطيع الانتظار أكثر من ذلك. توشك الساعة على أن تدق الثانية عشرة، وقد يظهر آل بليتسو في أية لحظة ويثيرون المتاعب. يمكننا أن نرسل في طلب أمتعة أنَّا فيما بعد، وسيتم شرح كل شيء إلى الآنسة بارلوك في غضون يومَين. وعليكِ أن تخرجي نفسك من الأمر تمامًا. كانت آخر مرة تراني وأنَّا هي أثناء تنزهنا في الحديقة، ولا تعلمين شيئًا عمَّا فعلناه بعد ذلك. ولكنك ستغمرينني بكرمك لو أرسلت هذه البرقية بعد ظهر اليوم. إنها موجهة إلى اللورد كلانرويدن — هل سمعت اسمه من قبل؟ — إنه داعم والد أنَّا الأكبر. لقد أخبرني بأن أحضر أنَّا إلى لندن، ولكن هذه الخطوة أصبحت شديدة الخطورة الآن. أريد أن أخبره بأننا اتجهنا إلى اسكتلندا.» وكتبت برقية سريعة على ورقة قطعتها من مفكرتي.

كانت الآنسة مارجيسون فتاة طيبة، وبدا أنها تشارك أنَّا اقتناعها. فعانقتْ أنَّا وقبَّلتها. وقالت: «لا تتأخري في الكتابة إليَّ، فسأكون غاية في القلق»، ثم ركضتْ إلى داخل المنزل.

قلت: «فلنتحرك الآن. سيارتي تنتظر أمام المدخل الأمامي. سألتقيكِ في الشارع الرئيسي حتى لا يرانا أحد من المنزل. هل يمكنكِ أن تصلي إلى هناك دون أن يراكِ أحد؟ وأحضري معطفًا معكِ. خذي معطف أي فتاةٍ أخرى إن لم تعثري على معطفك. وكلما كان أثقل، كان أفضل، فسيكون البرد قارسًا في طريقنا إلى ليفرلو.»

ركبت أنَّا معي من الشارع الرئيسي حسب الاتفاق، وخرجنا من بوابات المدرسة في الثانية عشرة والربع تمامًا. ثم رأيت شيئًا لم يعجبني. فأمام البوابات كانت ثمة سيارة مركونة، سيارة قوية جدًّا أجنبية الصنع ذات لونين أصفر وأسود. بدت لي أنها سيارة من نوع استوتز. وكان راكبها الوحيد سائقًا يرتدي زيًّا موحدًا ويقرأ جريدة. حدَّق بي بقوة، وبدا للحظة أنه سينطلق خلفنا. وبعدما مررنا به، نظرتُ خلفي ورأيته يشغل السيارة وينطلق بها في اتجاه القرية. خمنت أنها سيارة آل بليتسو، وأن الرجل انطلق بحثًا عن سيده. لم يبدُ سائقًا عاديًّا.

كانت هذه بداية رحلتنا. كانت خطتي أن أصل إلى طريق جريت نورث رود بأقصى سرعة ممكنة — وكانت ستامفورد تبدو لي أفضل نقطة توصلني به — ثم أترك السيارة البنتلي تنهب أفضل طريق سريع في إنجلترا. لم أرَ أنه من الممكن تتبعنا بصورة جدية حتى وإن رأى ذلك السائق البغيض مغادرتنا. ولكن كان كل ما يهمني هو أن أصل إلى

ليفرلو في تلك الليلة. لم يكن موضوع لوكينفار هذا من الأمور التي اعتدت على فعلها، وكنت أرغب في الانتهاء منه.

وصلنا إلى ستامفورد دون أن يعترضنا شيء، ثم انطلقنا بسرعة تتجاوز ستين ميلًا في الساعة. كان الجو في هذا الصباح حارًّا ومشرقًا، ولكن تغيَّر اتجاه الريح، واعتقدتُ أنَّ الطقس سرعان ما سيسوء. في البداية، كنت أواصل النظر إلى الخلف لأرى إن كان ثمة مَن يتبعنا، ولكني لم أرَ أي سيارة تحمل اللونين الأصفر والأسود، وسرعان ما نسيت أمرها تمامًا. كانت مشكلتنا التالية هي تناول الغداء، ولأن الطريق كان مزدحمًا بالسيارات، خشيت أننا إذا ما توقفنا عند أي فندق محترم لتناول الغداء، فقد نعلق في الزحام. سألت أنًّا عن رأيها، فقالت إنها لا تأبه لما تأكل طالما كانت ثمة كمية كافية من الطعام، فهي تتضوَّر جوعًا. توقفنا عند مكان صغير، نصف حانة ونصف مقهًى، عند قاعدة تلٍّ عالٍ على مشارف نيوآرك. وبينما كان خزان وقود سيارتي يُملأ، تناولت وجبة خفيفة مكونة من البيرة وبعض الشطائر، بينما تناولت أنًّا القهوة والكعك، الذي أكلت منه كمية كبيرة أذهلتني. كما اشتريت رطلين من الشكولاتة وصندوقًا من البسكويت، اكتشفت بعد ذلك أنها كانت خطوة موفقة.

كنا على وشك الانطلاق مرة أخرى عندما تصادف أن رفعتُ نظري نحو أعلى التل من خلفنا. يمكنني الرؤية جيدًا لمسافات بعيدة، ورأيتُ عند قمة التل، على بعد حوالي نصف ميل، سيارة تشبه السيارة الاستوتز التي رأيتها في بروتون. اختفت السيارة من أمام عيني بعد دقيقة واحدة بسبب مرور بعض السيارات أمامها، ولكني رأيتها مجددًا على مسافة تقل عن ربع ميل. لم يراودني أدنى شك في أنها السيارة نفسها التي تحمل ألوان الزنبور، ولم أعتقد أنه من الممكن أن تكون ثمة سيارة أخرى من النوع نفسه وتحمل الألوان نفسها تسير على الطريق في ذلك اليوم.

إذا كان ركاب السيارة يملكون منظارًا، وأنا على يقين من أنهم يملكون واحدًا، فلا شك في أنهم قد حدَّدوا مكاننا. قدتُ سيارتي البنتلي بأقصى سرعة جرُؤْتُ على الوصول إليها، وحاولت العثور على مخرج من هذا الموقف. فلا شك في أنهم أصبحوا يعلمون وجهتنا. ولا شك في أن سرعتهم تتجاوز سرعتنا، فقد سمعت قصصًا رائعةً عن إمكانات السيارة استوتز في هذا المضمار، وربما كانت هذه السيارة تملك إمكانات أكبر من السيارات العادية؛ لذا لم يكن من المرجح أن نتمكن من الهرب منهم. إذا ما توقفنا لقضاء الليلة في أي مدينة فسنقع تحت رحمة أولئك الأشخاص الذين قال عنهم كلانرويدن إنهم

بارعون جدًّا، وسيتغلبون عليَّ بطريقةٍ أو بأخرى. ولم أجرؤ على الإقدام على مثل هذه المخاطرة. كان الطريق الذي سنقطعه والذي يمتد لمائة ميل أو نحوها يمر عبر قرًى مكتظة بالسكان، ولم أعتقد أنهم سيقدِمون على محاولة إيقافنا عليه. فسيكون الأمر محفوفًا بمخاطرة كبيرة في ظل وجود الكثير من السيارات على الطريق، كما أنهم قد لا يريدون أي مشكلات مع الشرطة أو الدخول في تحقيقات عسيرة. ولكني كنت أحفظ طرق اسكتلندا جيدًا، وكنت أعلم أني لكي أصل إلى ليفرلو، سيكون عليَّ اجتياز بعض المناطق الريفية المهجورة. حينئذٍ، ستحين فرصتهم. لم أكن أملك القدرة على مواجهة الشاب البارز الأسنان والسائق ذو المظهر المرعب. ربما سينتهي بي المطاف جثة مكسورة الجمجمة ملقاة في مصرف، وتُخطَف أنَّا.

كان شعوري الرئيسي هو إصرار قوي على الانطلاق بأقصى سرعة لكي أصل إلى ليفرلو. لم أكن قادرًا على التفوق عليهم ذكاءً أو سرعةً، ولكن لا سبيل أمامي سوى الثقة في الحظ. كان كل ميل نقطعه يقربنا أكثر من بر الأمان، وإذا كنا نقترب أكثر من المروج الشمالية، فلا بد أن أنفض هذه الفكرة عن ذهني. بادئ ذي بدء، كنت أخشى أن أُرعِب أنَّا، ولكن عندما رأيت وجهها المحمر بفعل الرياح وعينيها اللامعتين المستمتعتين، فكرت أن شيئًا لن يؤثر فيها.

قلت: «هل تذكرين السيارة التي رأيناها عند بوابات المدرسة؟ تلك السيارة ذات اللونين الأسود والأصفر؟ أعتقد أنها تتبعنا. عليكِ أن تضعي عينك عليها، فأنا أحتاج كلتا عينَي لقيادة هذه السيارة الكبيرة.»

صاحت أنَّا قائلة: «أوه، هل نحن مطارَدون؟ يا للمرح!» بعد ذلك، جلست مديرةً رأسها إلى الخلف وظلت توافيني بآخر المستجدات.

بعدما عبرنا باوتري، غمرنا المطر، المطر الغزير المنهمر الذي يشتهر به ريف الشمال. كما تعثَّرنا في شبكة من إصلاحات الطرق التي اضطررنا فيها عدة مرات إلى انتظار دورنا للمرور عبر أجزاء من الطريق لا تسمح إلا لعبور سيارة واحدة. وفي النهاية كانت السيارة الاستوتز في نفس صف السيارات مع سيارتي وتمكنت من رؤيتها بوضوح. لم يكن ثمة شك في أنها السيارة نفسها. فقد رأيت سائقها مرتديًا معطفه الأنيق الرمادي الفاتح، وهو الشخص نفسه الذي ظل يحدق بنا في بروتون. وبالطبع كان الركاب في مؤخرة السيارة خارج نطاق رؤيتي.

بعدما عبرنا بونتيفراكت، اشتد هطول المطر، وبدا من الطرق الغارقة أن كمية كبيرة من الماء قد هطلت بالفعل. كانت الساعة ما بين الرابعة والخامسة، وكنا نسير ببطء

بسبب التوقفات المتتالية. لم تحاول السيارة الاستوتز الاقتراب منا رغم أنها أسرع منا بكثير، وأعتقد أني خمنت السبب. لقد فكَّر ركابها مثلما فكرت. لم يرغبوا في حدوث أي مواجهة في هذه المنطقة الريفية المزدحمة، وكانوا يعرفون أني في طريقي إلى ليفرلو، وكانوا يعرفون أيضًا أني لكي أصل إلى هناك، لا بد أن أمرَّ عبر مناطق مقفرة منعزلة. وحينئذٍ، ستلوح لهم الفرصة.

في قرية كبيرة بعد بوروبريدج، غيروا من أسلوبهم. قالت لي أنَّا: «السيارة الزنبور تكاد تلحقنا»، وسمعت فجأة صوت بوق من خلفي، كان بوق من تلك النوعية المفزعة التي يركِّبونها في سيارات السباق الفرنسية. كان الطريق واسعًا بما يكفي لأن تتخطاني السيارة. وأدركت ما يخططون له. كانوا يريدون أن يسبقوني ثم ينتظرون وصولي. ففي القريب، ستتشعب عدة طرق عبر الحدود، وكانوا يريدون أن يتأكدوا من أني لن أهرب منهم. زمجرتُ في غضب؛ فالخطة التي كنت أحاول تنفيذها قد انقلبت رأسًا على عقب.

ثم حالفنا الحظ بصورة غير متوقعة. فمن طريق جانبي، خرجت شاحنة تجارية صغيرة يقودها أحد أولئك الشباب الذين لا يرتدون قبعات والذين يتمنى أي سائق لو يراهم مشنوقين ليكونوا عبرة لغيرهم؛ فهم أخطر ما على الطريق. ومن دون تحذير، قطعت الطريق أمام السيارة الاستوتز. سمعت صيحاتٍ وصفيرَ مكابح سيارة، ولكن لم يكن ثمة وقت لأنظر خلفي، وأخبرتني أنَّا بما حدث. انحرفت السيارة الاستوتز يسارًا، وصعدت فوق الرصيف، وتوقفت وقد كادت مقدمتها تصطدم بمدخل أحد المتاجر. أما سائق الشاحنة، فلم يستطع التحكم فيها، فانزلقت شاحنته واصطدمت بعمود إنارة، ثم دارت حول نفسها واصطدمت برفرف السيارة الاستوتز الأمامي. وكان ثمة فوضى عارمة.

صاحت أنَّا: «يا إلهي، لقد شلَّ هذا حركتهم. لقد أحسن سائق شاحنة الجزارة عملًا!»

ولكنها قالت إن السيارة الاستوتز، طبقًا لما رأت، لم تتعرض لضرر بالغ. الشاحنة فقط هي التي فقدت إحدى عجلاتها. ولكنْ تجمَّع حشدٌ من الناس، وبينهم شرطي يحمل دفترًا، وفكرتُ أن الأمر برمته قد يعطلهم حوالي ربع ساعة. انطلقتُ مجددًا، وثبتُّ سرعة السيارة البنتلي على ثمانين ميلًا في الساعة على طريق ممهَّد واسع. كان أكثر ما يؤرقني هو حالة الطقس، فقد كان المطر ينهمر بشدة لدرجة أن الرؤية أصبحت سيئة، فلم أكن أرى إلا لمسافة قصيرة أمامنا، ولم تكن أنَّا ترى إلا لمسافة قصيرة خلفنا.

كان عليَّ أن أقرر أي طريق سأسلك، فقد كنا نقترب من سكوتش كورنر. إذا ما سلكت طريق نورث رود الرئيسي عبر دارلينجتون ودورام، فسأسير طوال المائة ميل

التالية عبر قُرًى مكتظة بالسكان. ولكن سيبعدني هذا الطريق عن ليفرلو، وسيكون عليَّ أن أعبر وادي تويد الطويل قبل أن أصل إلى وجهتي. أما إذا انحرفت يسارًا عبر بروف إلى أبلبي، فسأكون مضطرًّا إلى عبور الأراضي المنعزلة التي ستمنح ركاب السيارة الاستوتز الفرصة التي يحتاجونها لتنفيذ مخططهم. تذكرت طريقًا ثالثًا يمر عبر قرى تعدين يعيش بها الكثير من السكان. كان طريقًا رائعًا رغم ما تقوله الخرائط عن أن القسم الأكبر منه ليس ذا جودة ممتازة. كما أنه من المحتمل أن ركاب السيارة الاستوتز لا يعرفون هذا الطريق، وإذا ما سبقتهم بمسافة كافية، فقد يفترضون أني سلكت طريق دارلينجتون أو طريق بروف. على أية حال، إذا لم يتمكنوا من اللحاق بي سريعًا، فستفشل مهمتهم. وبدا جليًّا أن هذه هي فرصتي الذهبية.

ولكن لم يُتم الحظ، متمثلًا في صورة سائق شاحنة الجزارة، عمله على الوجه الأكمل. فقد توقف المطر، وأصبح الجو صحوًا، واصطبغت السماء فوق تيسدايل بحمرة الغروب الرائعة، وبينما كنت أنحرف نحو الطريق الذي اخترته بذهن مرتاح، أخبرتني أنَّا بأن السيارة الزنبور قد ظهرت خلفنا.

قلب هذا الخبر الطاولة رأسًا على عقب، كما يُقال. لم أكن قد تمكنت من تشتيتهم بعد، وطوال نصف الساعة التالية، انطلقت بسرعة جنونية، فقد كنت أريد الخروج من المنطقة الريفية المقفرة إلى منطقة المناجم. خرقت جميع القواعد المرورية أثناء انطلاقي، ولكني تمكنت من الحفاظ على مسافة ميل أو نحوه أمامهم. كان الطريق الزلق بعد توقف الأمطار يحد من قدرة السيارة الاستوتز على الانطلاق، كما أن سائقها لم يكن يعرف الطريق مثلما أفعل أنا. كان الظلام يزحف، وكنت أعلم جيدًا أن القمر لن يظهر حتى الساعات الأولى من الصباح. وكان أملي الوحيد أن مطارِديَّ قد ينزلقون في مكان ما من وادي تاين. لقد انحرفت عن الطريق هناك مرات كثيرة، عندما كنت مولعًا بسور هادريان، وأعلم جيدًا مدى التواء الطرق عبر التلال.

وصلتُ إلى منطقة المناجم دون عقبات، وبعثَت أنوار القرى وبريق مسابك الحديد البعيد في نفسي شعورًا بالراحة لوجود أناس ومن ثَم وجود حماية. بعدما عبرنا كونسيت، خيَّم الظلام، وظننت في خوفٍ أننا على وشك الدخول إلى منطقة أراضي برية ستستمر حتى نصل إلى مشارف وادي تاين. وانتابني شعور بأن الحدث الماضي لم يكن ليحدث لو أني تمكنت من إلهاء من يطاردوننا. كان باستطاعتي رؤية المصابيح الأمامية الكبيرة للسيارة الاستوتز على بعد ميل من خلفي، ولكني كنت واثقًا من أنهم سيسرعون ويلحقون بنا

عندما تلوح لهم الفرصة. أدركت يائسًا أنه يجب أن أعثر على ملاذ في خلال الدقائق العشر التالية وإلا سينتهي أمرنا.

في تلك اللحظة، وصلنا إلى تل كبير حجب مرآنا عمن خلفنا. رأيت ضوءًا باهرًا أمامي، وخرجت سيارة كبيرة من طريق جانبي ودخلت طريقنا أمامنا بمسافة قصيرة. ولاحت لي فرصة ذهبية. فعلى يساري، كان ثمة طريق صغير بدا وكأنه يؤدي إلى منزل ريفي، وينعطف إلى داخل غابة من أشجار السرو. إذا ما انحرفت إلى هذا الطريق، فسيرى ركاب السيارة الاستوتز، التي وصلت إلى قمة من خلفنا، السيارة الأخرى التي تسير بعيدًا أسفل التل وسيظنون أنها سيارتنا ... لم يكن ثمة وقت لأضيعه، فأطفأت أنوار سيارتي وانحرفت إلى الطريق الريفي وسرنا حتى اختفينا خلف أشجار السرو. كنا قد وصلنا إلى مخبئنا بمشقة عندما رأيت، بطرف عيني، بريق السيارة الاستوتز فوق قمة التل، وأوقفت محرك سيارتي مباشرةً قبل مرورها بسرعة كبيرة على بعد خمسين ياردة منا نحو أسفل التل.

قالت أنَّا: «يا إلهي، يا لها من مغامرة! أين الشوكولاتة يا سيد لومبارد؟ لا شاي معنا، وأنا جائعة جدًّا.»

بينما كانت أنَّا تمضغ الشوكولاتة، أدرت محرك السيارة، وبعدما عبرنا بوابتين مكسورتَي المفصلات، وصلنا إلى مزرعة صغيرة. لم يكن ثمة أحد في المزرعة سوى امرأة مسنة أخبرتني بأننا انحرفنا عن الطريق، وهو أمر كان شديد الوضوح، وأعطتنا كوبين كبيرين من الحليب الذي حُلب من البقرة للتو. أخرجت الخريطة (أحتفظ بالكثير منها في سيارتي، لحسن الحظ) ورأيت أن خطًّا أحمر، ما يعني على الخريطة طريقًا، يستمر إلى ما بعد المزرعة ويبدو أنه يؤدي في النهاية إلى وادي تاين. لا بد أن أغتنم هذه الفرصة، فهي تبدو خطة جيدة. فكَّرت أن ركاب السيارة الاستوتز سيواصلون السير نحو أسفل التل وقد يستمرون في السير لأميال قبل أن يكتشفوا أن السيارة التي يتبعونها ليست سيارتنا. وقد يعودون للبحث عنا ويكتشفون أي طريق جانبي سلكناه، ولكن ثمة العديد من الطرق الجانبية في المنطقة، ولن يمر وقت طويل قبل أن يكتشفوا آثار إطارات سيارتنا على الطريق الريفي. وإذا ما تمكنوا من الوصول إلى المزرعة، فستخبرهم المرأة بوصولنا، وستقول لهم إننا عدنا إلى الطريق الرئيسي. تظاهرت أمامها بأننا متعجلون للعودة إلى الطريق الرئيسي. ولكن، بمجرد أن أغلقت الباب من خلفنا، عبرنا جُرنًا صغيرًا، وعثرنا على امتداد للطريق يمر عبر مرج منحدر، فهبطت المرج المنحدر، مغلقًا من خلفي جميع

البوابات التي عبرتها، حتى وصلت إلى غور حيث كانت الماشية تفر من أمام مصابيحنا الأمامية، وكان علينا أن نتفادى الأغنام الناعسة.

كان الجزء الأول من الطريق سيئًا، ولكنه التحم في نهايته بطريق ريفي آخر، وشكل اندماج الطريقين الريفيين طريقًا جيدًا، مليئًا بالحصى، ولكن ذا قاعدة مضبوطة. كان جُل ما أخشاه هو أن ننقلب في أحد الجداول المائية المنتشرة في الأراضي. وبعد قليل من سيرنا، أصبحت قادرًا على زيادة سرعة السيارة، وعلى الرغم من أني توقفت كثيرًا لأطلع على الخريطة، فقد قطعنا اثني عشر ميلًا في خلال نصف ساعة. كنا في منطقة مقفرة من الريف، ولم تكن ثمة أي دلالات على وجود سكان في المنطقة سوى مرورنا من وقت لآخر بكوخ على جانب الطريق وأنوار مزرعة تقع عند سفح التل، ومررنا بعدد كبير من مشاتل أشجار السرو الصغيرة. فكَّرت أن هذه المنطقة مناسبة للحصول على قدرٍ من النوم، فلم تكن أنَّا قادرة على رفع رأسها بسبب النعاس وكنت أشعر بإرهاق شديد. توقفنا خلف أجمة من أشجار السرو، وصنعت فراشًا من غطاء السيارة من أجل أنَّا، لم يكن في الحقيقة فراشًا، فلم أحضر معي سوى غطاء السيارة الصيفي لأن الطقس في الجنوب كان حارًّا. تناولنا بعض البسكويت والشوكولاتة، ونامت الفتاة قبل أن تتمكن من ابتلاع طعامها، وألصقت نفسها إلى جواري، ولم يمر وقت طويل قبل أن ألحق بها. كنت متعبًا لدرجة أني لم أرغب في التدخين.

استيقظت في حوالي الرابعة. وكانت جميع البرك التي خلفتها الأمطار مصطبغة بلون وردي انعكس عليها من السماء، وكنت أعلم أن هذا اللون ينذر بهطول المزيد من الأمطار. أيقظت أنَّا، وغسلنا وجهينا بماء الجدول، وتناولنا المزيد من البسكويت. كان الهواء باردًا ونقيًّا، وكنا على استعداد لدفع الكثير مقابل بعض القهوة الساخنة. كان المكان هادئًا تمامًا، فلم نسمع حتى تغريد طائر أو ثغاء خروف، وانتاب كلًّا منا شعورٌ غريب. ولكننا استفدنا كثيرًا من قسط النوم الذي حصلنا عليه، وكنت واثقًا من أني تمكنت من إرباك ركاب السيارة الاستوتز. لا بد أنهم قضوا ليلة عصيبة إذا ما ذهبوا للبحث عنا في الطرق الريفية شمال دورام. وكانت خطتي الآن هي أن أتجه نحو ليفرلو مباشرةً وأن أتمنى أن يحالفني الحظ.

لم نكن نبعد كثيرًا عن وادي تاين بالقرب من هكسام. كان الصباح لا يزال صحوًا، ولكن الضباب كان يكسو سفوح التلال، وتوقعت أن تهطل الأمطار في خلال ساعة أو اثنتين. بدا أن أنَّا تشعر بالبرد، وقررت أنه يجب أن نتناول إفطارًا أفضل من ذلك الذي

تناولناه. كنا نسير على طريق جيد الآن، وواصلت البحث أثناء سيرنا عن نُزل بعيد عن الأنظار. وعثرت على واحد خارج الطريق بمسافة قصيرة، ودلت مدخنته التي يتصاعد منها الدخان على أن أصحابه قد استيقظوا. انحرفت لأدخل فناء النُّزل الذي كان يقع على الجانب البعيد عن الطريق، وتعثرت وأنَّا أثناء سيرنا نحو المطبخ، فقد كان جسدانا متخشبَين بشدة. كان صاحب النُّزل رجلًا من نورثمبريا ضخم الجثة بطيء الكلام، وكانت زوجته امرأة حنون أعطتنا ماءً ساخنًا لنغتسل به ومشطًا لتمشط به أنَّا شعرها. كما وعدتنا أيضًا بأن وجبة مكونة من اللحم المقدد والبيض ستكون جاهزة في خلال ربع ساعة، وأثناء ذلك، ابتعت بضع عبوات من الوقود لأملأ خزان سيارتي. تولى صاحب النُّزل مهمة ملء خزان السيارة بينما سرت أنا حوله، لأمدد ساقيَّ، وعثرتُ على مكان تمكنت فيه من رؤية الطريق السريع.

فزعت بشدة عندما سمعت صوت سيارة كبيرة، ومرت السيارة الاستوتز بسرعة كبيرة من أمامي. وخمنت ما حدث. لقد اختفينا بلا أثر عند مستنقعات دورام، ففكر ركاب السيارة في أنه لا سبيل أمامنا إلا التوجه نحو ليفرلو، وأننا إذا ما ورطنا أنفسنا في السير على الطرقات الفرعية، فلن نتمكن من الانطلاق بسرعة كبيرة خلال الليل. لذا، عليهم أن يسبقونا ويراقبوا تقاطعات الطرق المتجهة شمالًا. ثمة تقاطع طرق أتذكره جيدًا، حيث يتفرع الطريق المتجه شمالًا عند نهر تاين الشمالي عن الطريق السريع الرئيسي الذي يمر من فوق تلال تشيفيوت مرورًا بممر كارتر بار. كان الطريقان محتملين، ولم يكن ثمة طريقٌ ثالث يمكن لسيارة ثقيلة الوزن أن تحرز تقدمًا جيدًا عليه. كانت خطتهم جيدة حقيقةً. إذا لم ننحرف عن مسارنا نحو هذا النُّزل لتناول الإفطار، كنا سنقع في أيديهم، وإذا لم أرهم يمرون، كنا سنصبح تحت رحمتهم بعد ساعة واحدة.

لم تتسبب تلك الفزعة الأولى في تثبيط همتي. بل انتابني شعور بأننا من نتحكم في مسار الأحداث، وأننا تمكنَّا من تخطي أسوأ العقبات. لم أخبر أنَّا بأمر السيارة الاستوتز، وتناولنا وجبة إفطار هائلة في هدوء. ثم تحدثت إلى صاحب النُّزل عن الريف، وأخبرني بالكثير عن الطرق الجانبية المؤدية إلى وديان تاين الشمالية الصغيرة. انطلقنا مجددًا في تمام الثامنة تحت زخات المطر، وسرعان ما انحرفنا إلى الطريق الرئيسي السريع على اليسار عبر طريق علمت أنه واحد من طرق الماشية القديمة.

قضينا الصباح بأكمله نتلمس طريقنا عبر متاهة من أسوأ الطرق في بريطانيا. كانت معي خريطتي والتوجيهات من صاحب النُّزل، ولكني توقفت عدة مرات عند المزارع

الصغيرة لأسأل عن الطريق. لا بد أن أنَّا فتحت خمسين بوابة، ومررنا بأوقات شعرت فيها بأننا لن نخرج من هذه المتاهة أبدًا. يمكنني أن أخبركم بأن الموقف كان عصيبًا، ولكني بدأت الاستمتاع به، فقد شعرت بأننا انتصرنا عليهم، وكانت معنويات أنَّا في عنان السماء. كان لمرأى المروج الخضراء تأثير السحر عليها، وأخذت تغني وتلقي الشعر. وخصت طيور الكروان بالمدح ووصفتها بأنها صديقات قديمات لها، وألقت قصيدة دنماركية عنها بأعلى صوتها ...

حسنًا، لقد أوشكت قصتي على نهايتها. لم نصادف السيارة الاستوتز مرة أخرى، وإلى حد علمي فهي لا تزال تجوب ممر كارتر بار جيئة وذهابًا. ولكني لم أخاطر، وعندما وصلنا إلى الطريق الرئيس شَمال وادي تاين المؤدي إلى ليدسديل، لم أسلك أقصر طريق مؤدٍّ إلى ليفرلو، والذي كان سيمر عبر نهر رول ووتر، أو عبر منطقة هرميتدج ونهر سليتريج. كنت أخشى أنه عندما لا يعثر ركاب السيارة الاستوتز على أثر لنا على طريقَي كارتر وبيلينجهام، فقد يفكرون في مراقبة الطرق القريبة من ليفرلو. فقررت أن أحضر إلى هنا من الناحية التي لن يتوقعوا أن نأتي منها. كانت الشمس ساطعة بعد منتصف النهار، وكانت فترة ما بعد ظهر رائعة. يا إلهي، أعتقد أننا قطعنا بالسيارة نصف طول الحدود. سلكنا طريق ليدل جنوبًا نحو لانجوم، ثم سلكنا طريق إسك شمالًا نحو إسكدالموير، ثم دخلنا إتريك. ولم نرَ أغلب الوقت شيئًا سوى الأغنام وشاحنة خباز صغيرة غريبة.

أنهى لومبارد قصته فاتحًا فمه عن آخره متثائبًا. ثم ابتسم في سعادة. وقال: «حان الوقت لأنام، وأستحلفكم بالله أن تتركوا هذه الفتاة تنام كما يحلو لها. يا لها من مهمة عجيبة بالنسبة إلى رجل مثلي قد تقدَّم في العمر ويعيش حياة ملؤها الهدوء والسكينة! أنا سعيد أني أديتها، ولكني لا أتخيل أن أكررها كثيرًا.»

طرحت عليه سؤالًا واحدًا. «كيف بدا سائق السيارة الاستوتز؟»

أجابني قائلًا: «لم أره جيدًا، ولكني أعتقد أني سأتعرف عليه إذا رأيته مجددًا. إنه شاب غريب المظهر. طويل القامة شديد النحول. له وجه طويل أسمر، وذقن مدببة، وعينان كعينَي قِط. يمكنني القول إنه أجنبي، وبدا لي وضيعًا إلى حدٍّ ما.»

تذكرت الرجل الذي أتى إلى فوسي بصحبة الشاب فاريندر، والذي تعرف عليه ساندي وقال إنه جاك دينجرافيل. لم نكن على يقين من مشاركته في ابتزاز هارالدسن، وكانت مهمة ساندي أن يكتشف ذلك. أصبحت أعرف الآن، وهذه المعرفة أقلقتني، فقد كان ساندي يتحدث عن هذا الرجل بجدية أقرب إلى الخوف.

الفصل العاشر

الكلب سامر

جعلنا وصولُ أنَّا هارالدسن نشدد الإجراءات الاحترازية في ليفرلو. كنا جميعًا مجتمعين في ليفرلو، فيما عدا صاحب المنزل، الذي نثق في قدرته على الاعتناء بنفسه. لم يُبدِ لومبارد أية رغبة في المغادرة. كان قد أنهى جميع التزاماته العملية بغرض الحصول على عطلة، وفكَّر في أن يقضي الأيام الأولى منها في اسكتلندا. أرسل إلى زوجته خطابًا طويلًا أخبرها فيه عن رحلته، وقرأه لي بفخر، ولا شك في أن أسلوب كتابته كان مفعمًا بالحيوية، وفي نهايته، قال شيئًا عن بقائه في ليفرلو ليراقب الأحداث. قال: «هذا سيسعد بيريل. إنها شديدة الاهتمام بهذا الأمر، وسيسرها أن تعرف أني أؤدي مهمتي على الوجه الأكمل.» سألته عن الأحداث التي يتوقع حدوثها، فأجابني أن ثمة شعورًا ينتابه بأن الأحداث ستبدأ في التسارع. ولكن كان رأيي مخالفًا، فبعيدًا عن قصفنا بالطائرات، لم أرَ أن هذه العصابة قادرة على فعل شيء من شأنه إيذاؤنا. فقد كان منزل ليفرلو محصَّنًا كقصرٍ ملكي.

ذكرت سابقًا أن هارالدسن كان في طريقه إلى التعافي. فبفضل رعاية بيتر جون له، أوشك على التعافي من عصبيته بشكل كامل، وكان ينام ويأكل جيدًا، ويضحك من وقتٍ لآخر، وكان يتصرف بوجه عام بصفته إنسانًا طبيعيًّا. كان بإمكانك أن ترى بكل وضوح أنه يشتاق إلى وطنه، فكان يتذكر ممتلكاته كلما رأى ممتلكات ساندي. ولكن لم تعد نظرة عينيه هي نظرة الفريسة المطاردة. واكتمل تعافيه بحضور ابنته. كان الأمر يبدو وكأنه رحَّالة عاد إلى وطنه مجددًا. توقعتُ أن يؤرقه الخطر الكبير الذي تعرضت له ابنته، فأنا أعلم جيدًا لو أن بيتر جون هو مَن تعرَّض لهذا الخطر لم أكن لأستطيع النوم، ولكن الأمر لم يشغل تفكيره على الإطلاق. ولا شك في ذلك، فهو لم يسمع أغلب القصة التي رواها لومبارد. أرسل هارالدسن خطابًا إلى الآنسة بارلوك، وأرسل في طلب أمتعة أنَّا، وانتهى الأمر بالنسبة إليه تمامًا.

ولكن كان من الرائع رؤية هارالدسن والفتاة معًا. فقد مرَّ عامان لم يجتمعا فيهما معًا. كان يتحدث إليها كثيرًا عن نورلاندز، التي كانت على وشك نسيانها، وظل يذكِّرها بأمور حدثت في جزيرة الخراف. لاحظت أنه يحاول أن يبدو مهتمًّا بقصصها عن المدرسة، وبالنسبة إلى هذا الموضوع، كان لديها مستمعون أفضل وهم ماري وباربارا وأنا، وكان الأفضل منا جميعًا هو لومبارد. بدا وكأنه يتمنى لو تمكَّن من نسيان كل ما حدث في إنجلترا، كما لو كان كابوسًا. ذكرني ذات يوم في ارتياح أننا بوصولنا إلى ليفرلو، قطعنا نصف المسافة إلى نورلاندز.

كان ثمة أمر واحد واضح؛ أنه قد طوى صفحة ما حدث في إنجلترا دون رجعة. لم يتعافَ هارالدسن فحسب، بل أصبح رجلًا جديدًا، أو ربما عاد إلى ما كان عليه قبل أن ألتقيه. فقد ظهرت الثقة في صوته، والمزيد من النشاط في عينيه، وبدأ يتصرف ويتحرك كرجل حر. كان هذا التغير نحو الأفضل، فمن المفترض أن يصبح مقاتلًا الآن، على ما آمل، بدلًا من أن يكون خانعًا مستسلمًا. كما أنه بدأ يدافع عن نفسه، وفكرت في أنه لو كان لومبارد محقًّا، وكانت الأحداث ستتصاعد، فإن هارالدسن نفسه سيكون هو القوة الدافعة. فقد أصبح مؤرقًا مرة أخرى، ولكن ليس بسبب أعصابه المضطربة هذه المرة، وإنما بسبب تعاظُم الهدف نصب عينيه. دارت بينه وبين أنَّا مناقشات طويلة جادة في نورلاند، وخمنت أنه كان يحاول دراسة تصرف ما بالتفصيل. وربما سيشارك قريبًا في تشكيل قدره.

أهمل هارالدسن رفيقه السابق بيتر جون تمامًا، وأصبح وأنَّا يقضيان أغلب الوقت معًا. كنت أسأل نفسي هل سينسجم ابني مع الفتاة، وسرعان ما اكتشفت الإجابة عن هذا السؤال. أنهما لم ينسجما على الإطلاق. لم يكن لبيتر جون علاقات وطيدة مع النساء، فيما عدا أمه بالطبع، وباربارا كلانرويدن وجانيت رويلانس بدرجة أقل، لأنهن ينتمين إلى أصدقائه. لم أعتقد أنه قد يعقد صداقة مع أي فتاة، وسرعان ما تبين لي أن أنَّا ليست من النوع الذي يعجبه بأي حال من الأحوال. لم أرَ في حياتي شخصَين يبدو عدم التوافق بينهما بمثل هذا الوضوح. كان قليل الكلام، وعندما تطرح عليه سؤالًا، يبدو الأمر وكأنك ألقيتَ حجرًا في بئر عميقة، فسيكون عليك أن تنتظر بعض الوقت لتحصل على الإجابة. أما أنَّا فكانت صاخبة كنهر صغير. كان بيتر جون يتحدث بأسلوب رسمي تمامًا — إنجليزية صامويل جونسون، كما كانت معلمته المنزلية تطلق عليها — أما أنَّا فكانت تتحدث بالعامية؛ سواء العامية التي يتحدثون بها في المدرسة والمأخوذة من الروايات، أو

العامية المأخوذة من تعليقات الأفلام. كنت أرى أسلوب أنًّا في الحديث لذيذًا في كثير من الأحيان، فهي لم تكن بارعة في التحدث باللغة الإنجليزية. على سبيل المثال، كانت تبتكر كلمات مشتقة غير موجودة في اللغة للتعبير عما تريد قوله. وكان بيتر جون يرى هذه الكلمات محض سخافة. كما أنها كانت تغيظ بيتر جون طوال الوقت، وكان الأمر يبدو وكأنها تحاول إغاظة إحدى مسلات المصريين القدماء فلم تكن تحصل منه على أي رد فعل. كان بيتر جون يعاملها باحترام شديد، ثم يأوي إلى صومعته، كما قد يفعل كلب منزلي مسن في بعض الأحيان عندما يُحضِر الضيوف كلبًا غريبًا معهم.

سار الأمر على هذا المنوال لما يقارب الأسبوع. ثم تحققت نبوءة لومبارد فجأة، وتسارع سير الأحداث حتى صار عَدْوًا.

في عصر أحد الأيام، خرجنا جميعًا، فيما عدا طفل باربارا الصغير، متجهين نحو كوخ الرعاة عند بحيرة كلاترينجشوز، حيث سيزوج راعي الأغنام — واسمه تاراس — ابنته الوحيدة الراعي الشاب نيكسون، الذي يعمل في المزرعة الرئيسية. كانت هذه فترة يقل فيها العمل في العام الرعوي، قبل أن تبدأ مهرجانات الخريف، وتوجه كل من في ضيعة ليفرلو إلى الحفل، فقد كان نيكسون محبوبًا وكان تاراس واحدًا من أقدم الرعاة في المكان. وكان الموعد الذي سيزوج فيه قس قرية هانجينجشو الزوجين هو الثانية والنصف، ثم ستُقام مأدبة شاي على الضفة الخضراء للبحيرة، وسَيَليها حفل راقص يستمر حتى ساعات الصباح الأولى في الساحة الكبيرة. كان قلة منا فقط هم من حضروا زفافًا اسكتلنديًّا من قبل، هذا بالإضافة إلى أن جين تاراس كانت واحدة من الخادمات في ليفرلو، فانطلقنا جميعًا على ظهور الخيول الصغيرة لنستمتع بعصر ذلك اليوم، فيما عدا بيتر الجون الذي فضَّل السير كعادته دائمًا.

كان الطقس رائعًا، مناسبًا تمامًا لمأدبة الشاي على ضفة البحيرة، فأقمنا حفلًا مبهجًا. وكانت أنًّا، بوجه خاص، مُفعَمة بالنشاط، ولاحظت للمرة الأولى ملامحها الجميلة التي كانت تتحدث عنها ماري بكل ثقة. فبعدما ارتدت ملابس أجمل من زي المدرسة الموحد، وقضت فترة لا بأس بها تحت أشعة الشمس، أصبحَت كائنًا أكثر حيوية واكتسبت بشرتها المزيد من الحمرة. كان شعرها يتلألأ بلون ذهبي. وكانت بشرتها تقترب من لون العاج الذهبي عندما يتدفق فيها الدم، واكتسبت عيناها الجميلتان عمقًا أكبر بفضل تباين الألوان. كانت تمتطي حصانها ببراعة، وكان صوتها العذب الواضح يرن في أنحاء المرج كصوت جرس. كانت أنًّا تمتطي حصانها وعن جانبيها ماري ولومبارد، وكنت أسير

خلفهم وبجواري باربارا وهارالدسن، ولم أتمكن من منع نفسي من إخبار والدها بأنها طفلة بارعة الجمال. كانت تلك الحقيقة جلية لدرجة أنه لم يكلف نفسه عناءَ أن يبدوَ مسرورًا.

فسألته: «مَن اختار لها اسمها؟ والدتها؟»

«لا، بل والدتي. إن اسم أنًّا من الأسماء الشائعة في نورلاندز. ولكنه لا يناسبها. فهي ليست كاهنة يهودية. إذا كان بإمكاني تعميدها مرة أخرى، فسأعطيها اسم نانًّا، على اسم زوجة بالدر.»

تذكرت بصعوبة أن بالدر هو أحد الآلهة الإسكندنافية القديمة، ولا شك في أن الفتاة بدت جميلة كالآلهة في عصر ذلك اليوم. كان هارالدسن شديد الاهتمام بمعتقدات شعوب الشمال في تلك الأيام، فبدأ يشرح بطريقته الغريبة غير المترابطة أنه حتى اسم هذه الإلهة لا يناسبها؛ فهي أقرب إلى النساء المذكورات في كتاب إيدًّا، اللاتي أُجبرن على العيش في العالم السفلي في منزل محاط بالنيران حتى يأتي بطل وينقذهن. بدأ هارالدسن يسرد أسماء هؤلاء السيدات اللاتي لم أميز من بينهن إلا برينهيلد.

قال هارالدسن: «أنًّا المسكينة. ربما ستصبح مثل نساء الملاحم البطولية اللاتي مُنين بسيء الأقدار لأن الرجال في حياتهن قُدر لهم الهلاك. ربما تصبح فخورة وحزينة مثل برجثورا، ولكنها لن تكون خائنة أبدًا مثل هالجيردا.»

لم يكن لدي فكرة واضحة عما يتحدث عنه. قرأتُ واحدة أو اثنتين من الملاحم البطولية بناءً على توصية من ساندي، ولاحظت أنها قصص كئيبة.

قال هارالدسن: «هذه هي الكتب المقدسة لجنسي. وهي تحوي حقائق لا يمكننا تجاهلها، رغم أنها حقائق تبعث على الحزن. إنها تنطبق عليَّ، وعليك يا هاناي، وعلى اللورد كلانرويدن، وعلى سيداتنا الكريمات، وعلى ابنك، الذي يسير على قدميه هناك مثلما سار الإله ثور في رحلاته. وأنتم، معشر الاسكتلنديين، تعرفونها أيضًا؛ فهي موجودة في مقولاتكم. ثمة قدر مشئوم لا يمكن لأحد الفرار منه. الذئب فنريس يتربص بأودين في الجحيم.»

قلت: «كنت سأدع الذئب فنريس ينام في هذا الطقس»، فضحك.

وقال: «أنت على حق. ليس من الجيد أن نفكر في الأمور المطلقة. ثمة مثلٌ من نورلاند يقول إن قلةً يستطيعون رؤية ما هو أبعد من لقاء أودين بالذئب.»

صمت هارالدسن وأخذ يستنشق الروائح العطرة، ذلك المزيج الرائع من روائح الزعتر والخُث والخَلَنْج الذي تحمله نسمات الريح الغربية الخفيفة التي تمر فوق أميال من

المروج. قال هارالدسن بعينين شاردتين: «هذا المكان يشبه نورلاند. كنت أشم هذه الرائحة في منتصف الصيف هناك، عندما تهب الرياح آتية من التلال.»

قلت: «إنه وطني حيث نشأت، وكم يسعدني أن تقول إنه يذكرك بوطنك.»

«إن الذكرى ليست مبهجة بالكامل. فهي تجلب عليَّ الحزن أيضًا. ثمة مثل آخر من أمثالنا — يبدو أني أميل إلى الاقتباس كثيرًا اليوم — يقول إن الرجل يكون في منتهى قوته وهو في منزله. وأنا أعيش حاليًّا في منزل رجل غريب — أكثر الأغراب عطفًا.»

قلت: «وأنا مثلك، ولكني لا أشكو.»

«ولكنك تملك منزلًا، ويمكنك أن تعود إليه في خلال يوم واحد. أملك وأنًّا منزلًا، ولكننا ممنوعان من الذهاب إليه. إنها مثل تلك الأميرة المسكينة المذكورة في الحكاية؛ ثمة حلقة من النيران تحيط بمسكنها.»

قلت بمرح: «سنخمد هذه النيران. ولن يمر وقت طويل قبل أن تستريح في جزيرتك مثلما يستريح ساندي في ليفرلو وأنا في فوسي، ستكون أكثر منا راحة بكثير، فلست مجبرًا على دفع ضريبة على الدخل. وإذا ما ساءت الأمور، سآتي إليك وأعيش معك.»

ارتسم فجأة تعبير غريب على وجه هارالدسن. كان يتحدث منذ لحظات عن أمور كئيبة بصوتٍ قوي، بل كان يحاول الضحك. ولكن الآن، أصبحت تطل من عينيه نظرة جادة، تشبه تلك النظرة التي كانت تطل من عيني والده عادةً.

قال بهدوء: «إني أتساءل عمَّا إذا كان مقدرًا لي أن أجد السكينة ذات يوم. نحن معشر النورلانديين عالقون في شَرَك القدر الذي لا مفر منه. اقرأ ملاحمنا البطولية وسترى أن عجلة القدر تسير بلا هوادة. هروت يذبح راب، ثم يذبح أتلي هروت، ثم يذبح جيسلي أتلي، ثم يذبح كاري جيسلي. يعاقب والدي، رحمه الله، تروث الأب، فيأتي تروث الابن ليعاقبني، وإذا نجح، فربما تعاقبه أنًّا أو أحد أبنائها.»

كنت في دوامة من الأسماء الغريبة، وكان هارالدسن يبدو أشبه بتلك العرافة الغامضة التي عبرت الجدول وحطت رحالها على ضفاف بحيرة كلاترينجشوز الخضراء.

رأينا مشهدًا تفوق بهجته كل توقعاتنا. فقد أحضر ما يزيد عن عشرة من رعاة الأغنام زوجاتهم، وكانت ثمة مجموعة كبيرة من خدم ليفرلو، وحضرت عربة ركاب عتيقة تجرها الخيول تحمل جماعة من قرية هانجينجشو. وجاء القس، الذي كان شابًّا نشيطًا حصل على وسام الصليب العسكري خلال الحرب، راكبًا دراجة. وكان ستودارت، كبير رعاة المزرعة الرئيسية، هو من يقود المراسم، وكان مشغولًا بترتيبات حفل الشاي،

وكان سيم وأوليفر يساعدانه. استقبلنا تيراس بهدوئه الوقور الذي يجعل رعاة القبائل الحدودية أفضل النبلاء على سطح الأرض، فقد كان يبدو واثقًا من نفسه وكأنه ملك. كان عدد الحاضرين خمسين تقريبًا. كان الرجال الأكبر سنًّا يرتدون حللهم السوداء المميزة لأيام الأحد، الزي المعتاد الذي يرتدونه في الكنيسة وحفلات الزفاف والمآتم، ولكن كان الرجال الأصغر سنًّا يرتدون ملابس مغزولة منزليًّا، وكان الحراس يرتدون سراويلهم القصيرة بالطبع. لاحظت أن جميع الرجال كانوا يرتدون ربطات عنق منقوشة بمربعات سوداء وبيضاء مثل تلك التي كان يرتديها ساندي طوال الوقت عندما يكون في وطنه، والتي تُعَد بديل ليفرلو للملابس الاسكتلندية ذات المربعات. كان النساء يرتدين ملابس زاهية الألوان، فيما عدا العروس التي كانت ترتدي ملابس بيضاء، وفكرت في مدى الاعتدال الذي أصبحت عليه الملابس النسائية بعد الحرب. فقد كان أغلب الفتيات يرتدين ملابس أنيقة مثلما تفعل باربارا أو جانيت.

كان الجو خانقًا في ردهة كوخ تاراس أثناء إقامة مراسم الزواج، ولكنها لم تستمر طويلًا لحسن الحظ. بعد ذلك صعد نيكسون محمر الوجه مع العروس التي كان يبدو عليها الخجل الشديد سلمًا خشبيًّا واختفيَا ليخلعا بعضًا من حليهما، ووقفنا حيث نحن في المطبخ نتفحص الهدايا. قدَّم تاراس وزوجته الشاي لجميع الحضور في المرج الأخضر، ولم أرَ من قبل حشدًا من الناس يُقبلون على الطعام بمثل هذا الاستمتاع. كان من بين أصناف الطعام فطائر لحم الضأن، ولحم الضأن البارد، ومجموعة رائعة من مختلف أنواع الكعك والمخبوزات التي لا يمكن لأحد في العالم أن يتفوق على الاسكتلنديين في صنعها، وكان ثمة كميات كبيرة من الشاي الثقيل والكريمة الغنية، وبيرة لمن يحبونها، وويسكي للأشخاص الأكبر سنًّا. ألقى تاراس العجوز خطابًا ترحيبيًّا، وردت عليه باربارا بلكنته نفسها تقريبًا، فلكنة سكان جنوب الولايات المتحدة تملك نفس أحرف العلة الممطوطة مثل لكنة القبائل الحدودية، ولكنهم لا يستخدمونها إلا عندما يريدون ذلك. وبعد تناول الكثير من الطعام والشراب، تشارك الجميع في إزالة الطاولات، وانقسم الحشد إلى مجموعات، بينما ظل الصغار يتجولون بلا هدف. كان الرقص على وشك البدء في سقيفة جز الصوف، كان عازفو الكمان يضبطون آلاتهم بالفعل، وسيُقدم العشاء في وقتٍ ما من ساعات الصباح الأولى.

عاد النساء إلى المنزل مبكرًا، ولأني كنت أريد التريض قليلًا، أرسلت مهري إلى المنزل مع جوردي هاميلتون. أبدى لومبارد الرغبة نفسها، وكذلك هارالدسن، الذي ظل صامتًا

طوال الوليمة، ومن ثم غادر جوردي وكأنه لص خيول تمكَّن من سرقة عدد معتبر منها. لم نكن في عجلة من أمرنا، فقد كان المنزل يبعد مسيرة نصف ساعة من فوق التل الأخضر؛ لذا، التففنا خلف الكوخ حيث كان يجلس عدد من الرجال المسنين على صخرة تطل على جرف صغير، يدخنون غلايينهم ويتحدثون ببطء. أذكر أني فكرت أني نادرًا ما شعرت بهذا الشعور العميق بالهدوء. فقد توقفت الريح الخفيفة عن الهبوب، وذاب لون الأعشاب العسلي ولون السماء الأزرق في لون الغسق الأرجواني. في هذا الغسق البارد اللطيف العطِر الرائحة، حيث لا صوت مسموع سوى أحاديث البشر التي حملتها الريح من بعيد، وخرير مياه البحيرة، وزقزقة الطيور البرية، وثغاء نعجة مسنة ناعسة، أدركت أني في حضرة مشهد خالد لا يتغير تمامًا مثل هذه التلال.

كانت الكلاب مجتمعة حول باب كوخ تاراس الخلفي تبحث عن بقايا الطعام، وكنت قد جلست للتو على صخرة بجوار ستودارت عندما صدرت ضوضاء صاخبة من ناحية الكلاب. بدت الضوضاء وكأنها معركة كلاب ضارية. هببنا واقفين، ولكننا كنا على الجانب الآخر من البحيرة، وتطلَّب منا الأمر بضع دقائق لندور حول الجرف ونعبر بوابات حظيرة الأغنام، ونصل إلى الباب الخلفي حيث كانت الدراجات والحافلة التي تجرها الخيول من قرية هانجينجشو واقفة. وفي الأمتار الأخيرة تمكنا من رؤية المكان حيث تدور الأحداث.

كان في وسط المعركة كلب ستودارت، يارو قائد قطيع الكلاب. وكان يبلغ من العمر حوالي اثني عشر عامًا، وكان في شبابه فخرَ المنطقة الريفية لأنه فاز في مسابقة رعي الأغنام الكبيرة. يمكنني القول إنه كلب عجوز متغطرس، وربما قال شيئًا للكلاب الشابة من فصيلة كولي لم يعجبها، فليس من طبيعة الكلاب أن تخفي تفاخرها. ولكن، بما أنه كلب ستودارت، فقد كان يملك أفضلية على غيره من الكلاب، وخلال تجمعات جز صوف الأغنام وفطم الحملان وبيعها، كان يتقدم الصفوف دائمًا، وكان يحصل على اللعقة الأولى من الطبق، إذا جاز التعبير. ولكنه ربما تمادى في التفاخر هذه المرة. ويبدو أن جميع الكلاب قد فاض بها الكيل منه، فكشَّرت عن أنيابها تنوي قتله.

كان الكلب العجوز بارعًا في التخطيط. فتمركز في الركن حيث نُصبت سقيفة السماد العضوي خلف جدار الكوخ حتى لا يُباغَت من جانبه أو من خلفه، ودخل في معركة عنيفة من موقعه هذا. كان يواجه دزينة من الخصوم، ولكنهم لم يهاجموه جماعةً واحدة، فإن هجموا عليه معًا، كانوا سيقضون عليه. ولكنهم كانوا يهاجمونه فرادى. انقض كلب صغير ذو لون أسود مصفر نحوه وقفز محاولًا الوصول إلى رقبته، إلا أن يارو صده بوزنه الكبير، فعلى الرغم من أن أنيابه كانت قديمة وثلمة، فإنه كان حيوانًا ثقيل الوزن،

وربما كان أثقل وزنًا من أيٍّ من مهاجميه. ولكن يبدو أن بعض مهاجميه قد تمكنوا من إيذائه، فقد تمزقت إحدى أذنيه، وتلطخت رقبته وحنجرته بالدماء.

كانت الطريقة التي يتبعها خصومه هي طريقة القطيع القديمة التي تعلموها من أسلافهم عندما كانوا يصطادون في سهول قارة آسيا. كانوا يقصدون إرهاق الكلب العجوز، ثم ينقضُّون ويقضون عليه. أدرك ستودارت ما يريدون فعله، فألقى بعصاه نحوهم زاجرًا إياهم. كنت على استعداد لأن أراهن على أي مبلغ، أنه لولا وجودنا، لكان الكلب العجوز المسكين سيفقد حياته في خلال عشر دقائق.

ولكني كنت مخطئًا تمامًا، فقد غيَّر يارو من خطته فجأة، وانقلب مسار المعركة. بدلًا من الموقف الدفاعي الذي كان يتخذه يارو، بدأ يهاجم. كشَّر يارو عن أنيابه، وانتصبت كل شعرة في عنقه الغليظ، وأطلق صوتًا لم ندرِ إن كان نباحًا أم عواءً أم صراخًا، ثم انقضَّ على أعدائه. ولكنه لم يُطبِق فكَّيه على أيٍّ منهم، فأسنانه لم تكن قوية بما يكفي، كل ما فعله هو أنه ألقى بثقله عليهم مستخدمًا فكه ومخالبه وكل جزء من جسده كسلاح هجومي. والأهم من ذلك هو أنه جعل الكلاب الأخرى ترى أنه لن يتورَّع عن القتل. وأنه لم يعُد يريد الحفاظ على حياته، بل أصبح يريد إنهاء حياتهم. لم أرَ من قبل مثل هذا الإصرار لدى أي حيوان من قبل، فيما عدا الطرائد البرية الأفريقية. نسي يارو الاثني عشر عامًا من الحياة المنزلية التي قضاها في كنف ستودارت. ولم يعد ذلك الحيوان المنزلي الأليف، شريك عمل راعي الغنم، الحائز جوائز المسابقات الذي يتلقَّى التربيتات والمداعبات، بل أصبح برقًا خاطفًا، إعصارًا، وحشًا مفترسًا ... تكوَّنت سحابة من التراب والفراء، ثم بدأت جميع الكلاب تفر. انطلق أحدها من بين قدميَّ، وعرقل آخر لومبارد، وتلقت العديد منها ضربات قوية من عصي أصحابها. أما يارو العجوز، فقد نشب أسنانه المتآكلة في الساق الخلفية لكلب لم يتمكن من الفرار، وتطلب الأمر من ستودارت وقتًا طويلًا ليحرره.

وقفت مكاني أضحك، فقد كانت تلك النهاية واحدة من أفضل النهايات التي شهدتها في حياتي. فكان كل راعٍ منشغلًا بتجميع وتأديب كلابه التي أساءت التصرف، وتُركنا أنا ولومبارد وهارالدسن وبيتر جون وحدنا. لمحت التعبير الذي ارتسم على وجه هارالدسن، فأمسكته من ذراعه، فقد بدا وكأنه سيفقد الوعي. كان وجهه شاحبًا كورقة بيضاء، وكان يرتجف مثل ورقة شجر. كان يمر بنفس الحالة التي مر بها في ذلك الصباح في هانام عندما فرت الإوزة بيضاء الجبهة من صقر بيتر جون.

صدرت الكلمات بطيئة من بين شفتَي هارالدسن الشاحبتين. كان يدرك أن ثمة درسًا أخلاقيًّا عليه أن يتعلمه مما يحدث، ولكنه كان على النقيض من الدرس الذي تعلمه في هانام. ولكن كانت الكلمات الأولى التي تفوه بها هي نفسها التي قالها وقتها.

فصاح قائلًا: «إنها رسالة من السماء. هذا الكلب مثل سامر الذي مات مع صاحبه جونار من ليتهند. لقد ذكرني بما نسيت.»

في هذا الوقت، كان ستودارت قد جر يارو إلى داخل الكوخ لينظف جراحه ويضمدها، وكان بقية الرعاة منشغلين بكلابهم. وأخبرنا الظلام المتزايد بأنه قد حان وقت العودة للمنزل. تبعنا هارالدسن بشكل آلي بينما كنا نعبر الحقل الصغير حيث يزرع تاراس البطاطس، والمنحدرات الطويلة التي لفحتها الشمس الغاربة وجعلتها صفراء بلون الذرة. كان يسير بخطًى واسعة محاذيًا لنا، ولكن عن يميننا قليلًا، كما لو كان يتمنَّى لو تركناه بمفرده مع تأملاته الإسكندنافية الكئيبة. ولكني لمحت شيئًا جديدًا بشأنه. كان يرتدي حُلة ذات لون بني محمر زادت من ضخامة حجمه إلى حدٍّ ما. ظل مطأطئ الرأس وهو يتحرك نحو الأمام، حانيًا كتفيه العريضتين، وكان يبدو وكأنه دب بني ضخم خرج للصيد. أصبح مظهره ينم عن تحدٍّ وعزم بعدما كان الخنوع يتملكه ويظهر جليًّا على كل تصرفاته. كان ثمة شبه بينه وبين يارو العجوز عندما تمالك نفسه وغيَّر استراتيجيته وهبَّ للمواجهة الأخيرة.

توقفنا عند مصب الوادي لاإراديًّا، فقد كان مشهد العشرين ميلًا من التلال ذات القمم المستديرة الجاثمة تحت أشعة شمس الأصيل يستحق التأمل. كانت ثمة كومة من الحجارة جلست عليها ولومبارد، بينما ظل بيتر جون كعادته يدور حولنا مثل كلب كولي قلق. ثم تحدث هارالدسن قائلًا:

«يجب أن أرحل قريبًا؛ أنا وأنَّا. فقد تطفلنا عليكم لفترة طويلة.»

قلت: «جميعنا متطفلون على ساندي.»

ولكنه لم يسمع ما قلت. فقد كان مزاجه في هذا الوقت يميل إلى ضرب الأمثال، واقتبس كلمات من هافا مال (أيًّا كانت). وكانت تعني شيئًا كالآتي: «لا تبقَ في منزل واحد لفترة طويلة، بل انصرف؛ فالحب يتحول إلى احتقار إذا ما أقام رجل لفترة طويلة في منزل رجل آخر.»

قلت: «محض هراء. إننا لسنا هنا نتسول الضيافة. جميعنا متورطون في اللعبة نفسها، وبقاؤنا هنا جزء منها.»

رد عليٌّ قائلًا: «هذا ما أعنيه تمامًا. إننا لا نلعبها بالشكل الصحيح. لقد كنت أحمق، على أي حال.»

صمتنا في انتظار ما سيقول، وبدا أن ثمة فكرة تدور في رأسه لم يستطع التعبير عنها بالكلمات. ولكنه كان يفتقد الكلمات فقط، فقد نمَّت كل قسمات وجهه على الإصرار.

وضع هارالدسن يده الضخمة على كتفي.

وقال: «هل تذكر ما حدث في يناير الماضي على شاطئ نورفوك؟ لقد رأيت الإوزة تهرب من الصقر عبر الطيران على ارتفاع منخفض. واعتقدت حينها أنه يمكنني الهرب أيضًا بأن ألتزم الهدوء والخنوع ... ولكني كنت مخطئًا، فالخنوع يستنزف الرجولة دون أن يمنح الأمان. لقد شهدت اليوم فضيلة الجرأة. ولن أكون سلبيًّا أحاول مراوغة أعدائي بعد اليوم. بل سأبحث عنهم وأواجههم، مثلما فعل الكلب سامر.»

جلسنا ثلاثتنا مشدوهين، فهارالدسن الذي يقف أمامنا لم نلتقِه من قبل. كان قريب الشبه جدًّا من والده، فيما عدا ذقنه الحليقة. ربط هارالدسن يارو العجوز بكلبٍ في ملحمة بطولية، ويبدو أنه يمثل نفسه بشخصية أحد أسلافه. بدا أنفه الأشم أشبه بمقدمة إحدى سفن الفايكينج، وحملت عيناه الفاتحتان حمية شعوب الشمال الزرقاء الجليدية.

واصل هارالدسن حديثه قائلًا: «لقد نسيت الجنس الذي أنتمي إليه. لطالما مُنينا بالحظ العاثر، وعاملنا القدر بقسوة. ولكننا لم نفرَّ أو نختبئ منه، بل واجهناه وقبضنا على تلابيبه، وتمكنا في بعض الأحيان من إسقاطه أرضًا. كنت جبانًا، وأدركت أن الجبن رذيلة. كما كنت مريضًا، ولكني عدت رجلًا معافًى من جديد. لن أتجنب المخاطر التي تحدق بي بعد الآن، بل سأهُبُّ لمواجهتها، طالما أن هذه هي مشيئة الرب ...»

«كويسكوي سوس باتيمور مانيس» (وتعني بالعربية: لكل منا أشباحه الخاصة). سمعت صوتًا يقول هذه العبارة من ورائنا، ولكني لم أفهم ما تعنيه. ولكن فهمها لومبارد، وربما بيتر جون، رغم أني أشك في أنه فعل.

التفتنا نحو مصدر الصوت لنجد ساندي أمامنا. كان قد تسلق التل متسللًا بينما كنا نتحدث، وجلس خلفنا يسترق السمع. وكان يرتدي حلة صوفية رمادية قديمة، وبدا شاحب اللون، كما لو أنه ظل بعيدًا عن الشمس لفترة طويلة.

سألته: «كيف وصلت إلى هنا بحق السماء؟»

«لقد طرت. أقلني أرتشي رويلانس حتى كريستون، وهي لا تبعد عن هنا إلا خمسة أميال فقط. وتمكنت في اللحظة الأخيرة من تهنئة جين تاراس وشرب نخب في صحتها … ماذا كنت تقول عندما قاطعتك؟» قالها ملتفتًا نحو هارالدسن.

لم تبدُ على وجه هارالدسن أيٌّ من أمارات الدهشة من ظهور ساندي المفاجئ؛ فقد كان غارقًا حتى أذنيه في أفكاره.

رد هارالدسن قائلًا: «كنت أقول إني لن أواصل الاختباء في بلد أجنبي أو في منازل رجال آخرين. سأعود إلى وطني وأرضي وسأواجه أعدائي هناك.»

سأله ساندي: «هل ستواجههم وحدك؟»

«سأواجههم وحدي إذا ما تطلَّب الأمر ذلك. لقد كنتم خير أصدقاء لي، ولكن لا يمكن لأصدقائي أن يحملوا عني عبء واجبي.»

رمقه ساندي بنظرة التقدير السريعة التي يشتهر بها والتي نمَّت عن الكثير. رأيت في عينيه أنه اكتشف شيئًا جديدًا في هارالدسن، مثلما فعلت أنا، لم يتوقعه ولكنه أسعده كثيرًا. وارتسمت على وجهه ابتسامة.

وقال: «خاتمة رائعة. الخاتمة التي فكرت فيها أنا أيضًا. وقد أتيت إلى هنا لأتحدث عنها … ولكن لنعُد إلى المنزل لتناول العشاء. فقد فتح هواء ليفرلو العليل شهيتي بصورة لم أشهدها منذ أسابيع.»

الفصل الحادي عشر

تغيير قاعدتنا

في تلك الليلة بعد العشاء، عقدنا مجلس حرب اتفقنا جميعًا على أن يحضره بيتر جون. وأسعده هذا كثيرًا، فمنذ وصول أنَّا، أصبح لا يشارك في أي شيء. ارتدى ساندي، كعادته عندما يكون في ليفرلو، ذلك المعطف الأخضر الذي بهت لونه الخاص بنادي طعام القبائل الحدودية، ولكنه لم يجعله هذه المرة أشبه بصاحب أملاك اسكتلندي يعيش مرتاحًا على أملاك أسلافه، كما كان يفعل دائمًا. حملت قسمات وجهه تلك النظرة المدققة المميزة التي أتذكرها جيدًا، وبرقت عيناه بذلك البريق الغريب الراقص الذي يعني أنه أصبح مستعدًّا للحرب من جديد.

لم نكن نعلم أي شيء عنه طوال أسابيع، وكان لديَّ الكثير من التساؤلات لأطرحها عليه.

قال: «ماذا كنت أفعل؟ كنت أجوب الأرض من شرقها لغربها. كنت أحاول أن أجمع معلومات عن العديد من الرجال. لقد أفادني شغفي القديم بغريبي الأطوار كثيرًا، واستخدمت طرقًا ملتوية لأحاول الوصول إليهم. وبطريقة أو بأخرى، تمكنت من معرفة أغلب المعلومات التي أردت معرفتها. وأصبحت قادرًا الآن على استنباط الكثير من المعلومات التي أجهلها بدقة معقولة. إننا نواجه مجموعة ذات بأس شديد، ثقوا فيما أقول.»

سأله لومبارد: «هل هم أشد بأسًا مما اعتقدت؟»

قال ساندي ببطء: «نعم. ولكن بطريقة مختلفة. هذا هو اكتشافي الأهم.»

سألته: «ما الطريقة التي اتبعتها. هل عدت لاستخدام خدعك القديمة؟» ثم التفتُّ إلى لومبارد وقلت: «ربما لا تعرف أنه أحد أفضل فناني تقمص الشخصيات في العالم.»

أجابني ساندي: «لجأت إليها في بعض الأحيان. ولقد استمتعت كثيرًا أثناء فعل ذلك. ولكني التقيت بعضهم باسمي وشخصيتي الحقيقية. دعوني أوضح لكم أمرًا واحدًا،

إنهم يعرفون كل شيء عنا. لقد وضعوا أعينهم على ديك منذ فترة طويلة، ووضعوها على لومبارد منذ انسل هاربًا مع الآنسة أنَّا. إنهم لا يعرفون دافعنا، ولكنهم يعلمون أننا نؤازر هارالدسن. وإذا كنت قد تمكنت من جمع كمٍّ جيد من المعلومات عنهم، فما يعرفونه عنا كثير جدًّا. قد تندهش يا ديك عندما أخبرك بأنهم قد بحثوا في ماضيك بلا هوادة، وأسعد عندما أفكر في أن ما عثروا عليه قد أقلقهم إلى حدٍّ ما. كانوا يستدرجون جميع رفاقك القدامى، ببراعة وهدوء تامين، أمثال أرتينسويل وجوليوس فيكتور وآرتشي رويلانس، ليحصلوا منهم على معلومات. حتى إنهم حصلوا على معلومات من ماكجيلفري، رغم عدم إدراكه لذلك.»

«وماذا يعرفون عنك؟»

ضحك ساندي. وقال: «لقد حيَّرتهم بشدة. إن لوح اليشم معي، ومن ثَم فأنا متورط في الأمر، وبدءوا يوجهون نظرهم نحوي بنفس قدر ملاحقتهم لهارالدسن تقريبًا. ولكني لست لقمة سائغة، فهم يعلمون جيدًا أني قد اتخذت وضعية الهجوم، ويعلمون أني إذا ما نشبت أسناني في أي شيء، فلن أفلته. ذلك هو الجزء السيئ من سمعتي الميلودرامية اللعينة. قد ينم ما أقول عن غطرسة، ولكني على قناعة تامة من أنهم يخشونني، وإذا ما كان علينا التعامل مع المجموعة الأولى فقط، فقد أجبرهم على التراجع يجرون أذيال الخيبة ... ولكننا لن نواجههم هم فقط.»

سألته. «ما العقبة الجديدة؟»

قال: «صبرًا. سنراجع القائمة اسمًا اسمًا. أولًا، فاريندر، الشاب ذو أسنان الأرنب. يمكننا حذف اسمه من القائمة، فهو لن يزعجنا مجددًا. لقد كان مثلما توقعت، مخبر، ولكنه في الحقيقة شخص جبان. لقد أقدمت على إخافة السيد فاريندر، ونجحت في ذلك. كما أنه أفادني كثيرًا، بقدر ما سمحت له أعصابه المتوترة. وقد أبحر بالأمس، تحت اسم مستعار، نحو كندا، ولن يعود إلا بعد فترة طويلة جدًّا. التالي يا ديك.»

قلت: «ألبينوس.»

«هذا صحيح. إنه الثاني في القائمة من حيث قلة الأهمية. حسنًا، لقد تعاملت مع السيد إيريك ألبينوس كثيرًا. لعبت معه لعبة البريدج في حانة ديلون، ما كلفني عشرين جنيهًا. كما ذهبنا إلى مضمار السباق معًا، وقضيت معه يومًا مملًّا عرفت فيه الكثير عنه. كما دعوته لحفل عشاء بسيط دعوت فيه بعضًا من أصدقائه من رجال الأعمال الذين لم يكن مرتاحًا لوجودهم. إنه رجل بغيض، ولا أتصور كيف يتحمله الناس هكذا، فهو رجل

مدعٍّ ومتملق. إنه يشارك في الأمر بدافع الجشع، فأموره المالية ليست في أفضل حال، كما أن تروث يملك نوعًا من التأثير العائلي عليه. ولكني أعتقد أني قادر على إرهابه ليتخلى عن الأمر، مثل فاريندر، إذا أردت. ولكني لا أريد ذلك. قررت أنه من الآمَن بالنسبة إلينا أن يظل مشاركًا في الأمر وليس خارجه، فهو شديد الجبن، ورغم إنه شديد البراعة، فإنه سيتحول إلى عبء على رفاقه على المدى الطويل. لذا، حافظت على علاقة طيبة مع السيد ألبينوس، وأعتقد أنه يهنئ نفسه الآن على خداعي، مرحى له.

وصلنا الآن إلى رجل أكثر أهمية. تروث؛ السيد لانسلوت تروث. لقد وصلت إلى قرار حاسم بخصوص تروث. إنه بلطجي، ولكني لا أعتقد أنه مجرم كليًّا. قد تقول إن الفارق بين الاثنين بسيط. ربما، ولكنه فارق مهم. بادئ ذي بدء، هو رجل محاط بأصدقاء يحبونه، أصدقاء نزهاء، بعضهم على الأقل. لقد حضرت شخصيًّا حفل العشاء السنوي لكتيبة المشاة التي خدم فيها، وسمعته يلقي خطابًا جيدًا جدًّا. وفهمت أنه كان خلال الحرب ضابطَ جيشٍ بارعًا، ومحبوبًا بين جنوده. بذلت قصارى جهدي لأقتفي آثار أعماله، وهي بالمناسبة شديدة التشابك، ولكني خرجت بانطباع عنه أنه أقرب لأن يكون قرصانًا من أن يكون محتالًا. كما أنه رجل جريء يقدم على مخالفة القانون من وقتٍ لآخر لأنه يحب المخاطرة. هل قرأت رواية «الصندوق الخطأ»؟ ثمة شبه بين تروث ومايكل فينسبري.»

سألته. «هل التقيته؛ أعني شخصيًّا؟»

«لقد فعلت بالطبع. ودار بيننا حديث صريح منفتح. فقد ذهبت إلى مكتبه، وأعطيتهم بطاقتي، وطلبت أن أتحدث إليه لبضع دقائق في أمر خاص. حدث القليل من الهرج والمرج في المكتب، ودُفِع عميل من غرفة تروث دفعًا إلى الخارج، وأخبر مساعده بأنه لا يجب مقاطعتنا مهما حدث. أفترض أنه اعتقدَ أني ذهبت إليه لأملي شروطي. ولكني تظاهرت بالسذاجة، سألته عما إذا كان قرأ خطابي في جريدة التايمز، وقلت إني حريص على الحصول على جميع المعلومات الممكنة عن هارالدسن الأب، وإني سمعت أنه تعرَّف عليه في جنوب أفريقيا. أربكه سؤالي هذا، واتخذ أسلوبًا دفاعيًّا وهو يردُّ عليَّ باقتضاب وحِرص، فقال إنه لم يكن له علاقة بهارالدسن، ولكن والده ربما يكون هو من التقاه. كما ترى، لم يربط بيني وبينك بعد يا ديك، وكان يحاول أن يعبر هذا الموقف بأمان. قلت بعد ذلك إني كنت أحاول اقتفاء أثر أسرة هارالدسن، وإني أعتقد أن له ابنًا يعيش في مكان ما، وهل يمكنه أن يساعدني في العثور عليه؟ وقد أتيت للقائه بغرض العمل فقط،

فقد سمعت عن براعته. وقلت إن لوح اليشم معي، وإني لن أتمكن من الاحتفاظ به، وإني عرضت تقديمه للمتحف البريطاني إذا لم أعثر على ورثة هارالدسن الذين يفترض أن يحصلوا عليه.

استرعى ذلك اهتمامَه. واقترح أن نتناول الغداء معًا، وصحبني إلى أحد تلك الأماكن القديمة التي لا تزال موجودة في المدينة حيث يمكنك أن تتناول طعامك داخل غرفة مغلقة خاصة بك. وأصر على أن نشرب الشمبانيا، وتذكرت مقولةً جرت على لسان والدي، أنه إذا ما أعطاك رجل الشمبانيا على الغداء، يجب أن تشك في نواياه. كان متحضِّرًا وودودًا جدًّا، وبدأ، ببراعة واضحة، ينقب في ذاكرته عن الأمور التي أخبره بها والده عن هارالدسن. وجرؤ على قول إنه قد يتمكن، ببعض الصعوبة، من الحصول على بعض المعلومات من أجلي عن الأناس الذين لهم حق في تركة هارالدسن. افترقنا على وفاق تام، بعدما تطرَّق حديثنا إلى جوانب فائقة التخصص عن أسماك سلمون الربيع في كيثنس، ووعدني بأن يتصل بي بمجرد أن يحصل على أي معلومات تستحق أن يخبرني بها.»

سأله لومبارد بلهفة: «وهل فعل؟» كان لومبارد الأكثر معرفةً بتروث من بيننا.

«لا. فلا بد أن رجاله قد ربطوا بيني وبين ديك في اليوم التالي أو الذي يليه، ليفرلو تكفي لكشف ذلك، ولا بد أنه أدرك أني أعرف كل شيء وأني كنت أخدعه. اتصلت به رغم ذلك، وتلقيت منه ردًّا جافًّا. ولكنه وافَق على لقائي مرة أخرى، فدعوته على الغداء في مطعم «كلاريدج»، وأجلسته وسط مطعم مزدحم حتى لا يُقدِم على أي فعل أخرق. كنت أنوي استفزازه حتى يفقد السيطرة على نفسه، وإذا ما حدث ذلك في مكتبه لتحوَّلَ لقاؤنا إلى شجار. لقد دبرتُ للأمر ببراعة. وتحدثت عن هارالدسن الأب، ذلك الرجل الرائع نصف القديس ونصف المغامر، والثقة الجليلة التي أولاني إياها، وما إلى ذلك. فجلس يستمع إليَّ بشفتين مزمومتين وعينين تطل منهما نظرة شك قبيحة بينما كنت أسهب في ذكر الادعاءات الكاذبة. ثم صاح فجأة. وقال: «اسمع يا لورد كلانرويدن. لقد اكتفيت من حديثك. إنك تحاول خداعي ولا يعجبني ذلك. وأرى جليًّا اللعبة التي تمارسها ولا تعجبني أيضًا. إني أنصحك بأن تُخرج نفسك من هذا الأمر وإلا سيطولك الأذى، فأنت شخص مهم. هارالدسن الأب كان وغدًا، ولنا أنا وآخرين ثأر كبير نريد أخذه منه ومن ابنه الغالي.»

تظاهرت بالدهشة وبدأت توجيهَ دفة الحديث في اتجاه آخر. قلت إن الأمر برمته صدمني، وكنت مصرًّا على أن أجعله يصدق أني أعني ما قلت. فكما ترون، كنت الوافد الجديد الذي ربما سمع قصةً من الطرف الآخر وصدقها. وبدا جليًّا أنه يرغب في استمالتي

لصفِّه، وبدأ يقصُّ عليَّ القصة من وجهة نظره. لم يكن لقصته معنًى سوى أنه ورث عن والده ثأرًا كبيرًا وأنه لن يتخلَّى عنه. ويجدر بي أن أقول إني احترمت ضراوته. يشبه الأمر ذلك الإرث العائلي لدى القبائل الهندية. تظاهرتُ بالدهشة وبأن لديَّ قدرًا من التعاطف معه، وافترقنا على وفاق. حصلت منه على الأمرين اللذين كنت أريدهما. أبقيتُ العصابةَ في حالة عدم يقين من الدور الذي ألعبه في الأمر، وتمكنت من تقييم شخصية تروث. إنه بلطجي كما قلت سابقًا، ولكنه ليس مجرمًا كليًّا. ولو كان الرجل الوحيد الذي نواجهه لكان من السهل التغلب عليه. كان يريد استعادة ما يعتبره حقَّه، وليس النهب بوجه عام. ولكنه ليس وحده بالطبع، فثمة عقل أكبر وأذكى يكمن خلفه. هل يمكنكما أن تذكرا اسمه؟»

قلت ولومبارد في صوت واحد: «بارالتي.»

«نعم، بارالتي. إنه العقل المدبر للأمر برمته. كنت بحاجة إلى تكوين وجهة نظر عن بارالتي، فحاولت الاقتراب منه من جميع الزوايا الممكنة. لقد أخبرتكم بالفعل عن حفل بلومزبيري، حيث كان ملِكًا وسط سُذَّج. اقتفيت آثاره في عالم المال والأعمال، وساعدني لومبارد في البداية، وتوصلت إلى أن شركة لبشا لم تؤذِه كثيرًا. فلا يزال يملك الكثير من المال كعهده دائمًا، ولكنه لا يملك واحدًا على مائة من الثروة التي يطمح إلى جمعها، ولا تزال سمعته جيدة. رأيت أنه يجدر بي أن أحصل على لمحة من حياته السياسية، فطلبت من أندرو آموس أن يرتب الأمر بحيث أحضر اجتماعًا حصريًّا لبعض المفكرين وقادة الاتحادات العمالية، وتنكرت في هيئة صانع مراجل أشعث الشعر من منطقة نهر كلايد. أبهرني أداؤه في الاجتماع، فقد نجح في جعل نفسه حلقة الوصل بين عالمين مختلفين، كان يعرض الرؤى المثالية بنكهة من المنطق السليم، ويعرض الرؤى العملية بلمحة من المثالية. سيكون له مستقبل باهر في السياسة، إذا ما قرر المُضِيِّ في هذا الطريق.

فكرت بعد ذلك في أنه من الأفضل أن أتعرف إليه. هل تعرف شغف تشارلز لامانشا بالحفلات الغريبة؟ حسنًا، أقنعته بإقامة مأدبة عشاء في النادي؛ هو، وكريستوفر ستانيكس، وكيل وزارة، وبعض المصرفيين، ونيد لايثين، ورتبت لأن أجلس بجوار بارالتي. لا شك في أنه كان يعرف كل شيء عني بحلول ذلك الوقت، إذ كان حفل ليفرلو قد بدأ، واكتشف رفاقه الطريقة التي أمَّنَّا بها ثروة هارالدسن، وبطبيعة الحال أصبح يراني عدوه. لم يرتكب أي خطأ تلك الليلة. فقد كان مهذَّبًا جدًّا، وتحدث عن بعثتي إلى الشرق الأقصى والشئون الخارجية بوجه عام عن دراية، حتى إنه تنازل وقال إنه متحمس نحو تلك البلدة الحدودية التي قال إنه يقود سيارته إليها عادةً. لم يحاول استخراج أي

معلومات مني، وتصرف وكأني ضيف عادي سمع عنه وسعيد جدًّا بلقائه. دار حوار شيق؛ إذ كان من شيم ستانيكس أن يفتح موضوعًا شيقًا على طاولة العشاء، وتمكن بارالتي من مواكبة الحوار ببراعة. ودخل في جدال مع أحد المصرفيين حول موضوع مالي، وأعتقد أنه عرض حجته بطريقة جيدة جدًّا. وكذلك فعل الآخرون؛ فقد جلسوا يُنصتون إليه باحترام. لا شك في أنه يملك خبرة جيدة في الحياة، ولا شك في أنه ذكي. فهو يعرض حجته دون تردد، ورأيته يرتب أفكاره ببراعة ويراقب كل جوانبها كالصقر.»

قال لومبارد: «أخبرتك بذلك منذ أسابيع. بارالتي داهية. ولكن، ماذا عن بقية جوانب شخصيته، إلى جانب عقله؟».

«أنا بصدد إخباركم. كان هذا هو أكثر ما أرغب في معرفته، ولكن لم يكن العثور على الوتر الصحيح أمرًا سهلًا. كان عليَّ البحث عميقًا في العوالم الغريبة والعوالم الخفية، وكما أخبرتكم سابقًا، أفادني إعجابي المؤسف بالمجتمعات الدنيا. لقد عثرت على أغلب المعلومات التي أردت، ولكنها كانت مهمة طويلة وبغيضة. وحالفني الحظ. كان لا بد من وجود علاقة نسائية في مكان ما، فدبرت أمر التعرُّف إلى إحدى عشيقات بارالتي. كانت امرأة يهودية جميلة ذات شعر أحمر، كانت ستحقق نجاحًا مبهرًا وشهرة واسعة كنجمة سينمائية. الرب وحده يعلم اسمها الحقيقي، ولكنها تطلق على نفسها اسم ليديا لادلو.»

تدخَّل بيتر جون قائلًا: «لقد حضرت حفل شاي في فوسي، أنا أذكر اسمها. أخبرتني أمي أنها ممثلة.»

قال ساندي بجدية: «ديك، أعتقد أنه يجدر ببيتر جون أن يكون في فراشه الآن. ولكني لن أسهب في الحديث عن الآنسة لادلو، ولن أقول إلا أنه كان من الصعب التعرف إليها، ولكنها عوضتني عما لاقيت من متاعب. تنكرت في هيئة أحد أقطاب صناعة السينما الأمريكية، وكان تنكرًا متقنًا، وليس من المرجح أن تتعرف عليَّ إذا ما رأتني مرة أخرى. كانت خدعتي الرائعة تدور حول فيلم سينمائي ضخم يتحدث عن هيرود أجريبا، وستكون هي بطلته. ومن ثَم، دارت بيننا بعض الأحاديث المنفردة، برز خلالها اسم بارالتي كصديق لن يتردد في المشاركة في المشروع. وكما ترون، كان الفيلم سيصبح عملًا أنجلو-أمريكيًّا عظيمًا، دليلًا على وحدة فن الشعب الأنجلو-سكسوني وثقافته. تحصلت منها على كمٍّ لا بأس به من المعلومات عن بارالتي. يبدو أنه واقع تحت سيطرتها، ولكن الأغلال لا تضار من تقييد العبيد، لأن نجاحه سيكون نجاحًا لها. إنهما المعنى الحرفي للطموح الذي لا حدود له، ولن تسمح الآنسة لادلو له بأن يتحرر من سيطرتها.»

سألته: «ما انطباعك عنه؟ إنه شديد الذكاء، ولكن ماذا يكون غير ذلك؟»

«ليس بالكثير. لقد جمعت كل أدلتي وقيَّمتها بحرص، وإليكم حكمي عليه. لبارالتي ثلاثة دوافع: الطموح، والجشع، وهو جزء لا يتجزأ من طموحه، هو وامرأته. ولكن ثمة الكثير من القيود التي تقيده؛ خوفه على سمعته، وخوفه على حياته، إنه جبان رعديد. إنه ليس شجاعًا. إنه مجرد خروف يرتدي زي ذئب. وإذا ظلت الأمور كما كانت منذ عام مضى، فأعتقد أننا كنا سنسوي الأمر برمته على الفور.»

سأله هارالدسن للمرة الأولى: «ماذا تعني؟»

«كنا سنعقد صفقة مع تروث، صفقة معقولة، وأعتقد أنه كان سيلتزم بها. وكنت سأتمكن من إرهاب ألبينوس مثلما أرهبت فاريندر. وأعتقد أني كنت سأتمكن من إرهاب بارالتي رغم أنف الآنسة لادلو. ولكن أصبح كل هذا مستحيلًا الآن، فقد ظهر شخص خامس في الصورة أضفى عليها المزيد من القتامة. قبل ذلك، كان الأمر أشبه بمسرحية ميلودرامية، أما الآن فقد صعد على خشبة المسرح ممثل تراجيدي. لقد وصل الذئب الحقيقي.»

قلت: «إننا نعلم يقينًا أن دينجرافيل متورط في الأمر بعد فرار لومبارد.»

كان عليَّ أن أخبر ساندي ببعض تفاصيل قصة لومبارد، فلم يكن سمعها.

فقال مطرقًا: «نعم. لا بد من أنه الرجل الذي يقود السيارة الاستوتز.» ثم أشار إلى مفكرة جيب وقال: «لقد اختفى عن نظري ثلاثة أيام، وأصبحت أعرف الآن ماذا كان يفعل. فيما عدا ذلك، لم أتركه يغيب عن ناظري. لا، لم يرني على الإطلاق، ولكنه لم يفعل أي شيء خلال تلك الأسابيع لم يصلني خبر به. وكما تعلمون، كنت على أرضي وكان هو الغريب، فكان عليَّ أن أستثيره. جرب بعض حيل مكافحة التجسس، ولكنها لم تكن متقنة. كنت جالسًا في مكاني أراقبه، وكل ما يمكنني قوله هو أنه إذا كان قويًّا في أوليفا، فقد أصبح الآن أكثر قوة بكثير.»

أطلقت صافرة بشفتيَّ، فلا أزال أتذكر ما فعله ساندي في أوليفا، وكذلك الدور الكبير الذي لعبه دينجرافيل هناك.

تابع ساندي حديثه قائلًا: «إنه حيوان مفترس. ولكنه كان مفترسًا مريضًا في أوليفا يعيش حياة غير طبيعية مدمنًا على المخدرات التي لا شك في أنها أضعفت أعصابه. أما الآن، فقد أصبح مفترسًا متعافيًا، أكثر قوة وأكثر خطورة بكثير مما كان لو لم يمرض أبدًا. تمامًا كما يحدث مع رجل تعافى من شلل الأطفال؛ قوة الإرادة والذهن والجسم المطلوبة للتعافي من المرض تمنح المريض حيوية وثقة بالنفس تستمر معه حتى نهاية

حياته. ولا أعلم لمَ سمح الرب بذلك، وما السحر الذي استخدمه لتحقيق ذلك، ولكن دينجرافيل أصبح حاليًّا في مثل صحة أيٍّ من الجالسين هنا، ويملك عشرة أضعاف قوة الشر التي نملكها مجتمعين … كما أنه ليس وحده. هل تذكر يا ديك مجموعة الرجال الأقوياء الذين كان كاستور يطلق عليهم اسم الحراس الشخصيين. كنت أعتقد أنهم جميعًا خلف القضبان، ولكني كنت مخطئًا. لقد نجا اثنان منهم على الأقل؛ اسماهما كاريراس ومارتل، الإسباني والبلجيكي. إنهما مع دينجرافيل في لندن حاليًّا، ويمكنكما أن تثقا في أنهما متورطان في الأمر معه.»

تدخلت قائلًا: «ولكن مارتل قُتل خلال معركتكم الأخيرة، ماذا كان اسم المكان؟ فيرو، أليس كذلك؟ أنت من أخبرني بذلك. لا أعلم ما حلَّ بكاريراس، ولكني متأكد مما حدث لمارتل.»

قال ساندي: «هذا ما اعتقدته، ولكني كنت مخطئًا. ولكن تمكَّن كاريراس من الهرب مبكرًا، واعتقدت أن مارتل قُتل في فيرو. وها هما حيان يرزقان. يمكنني اصطحابك في أي وقت إلى مطعم بعينه في سوهو لترى مارتل يتناول المقبِّلات مرتديًا حلةً زرقاءَ وحذاءً أصفرَ طويلَ الرقبة. ولا يزال نفس ذلك الوحش رشيق القوام قوي البنية، ولا تزال نفس تلك الندبة التي سببها له جوردي هاميلتون على عينه اليسرى في مكانها. يتتبعنا هذه المرة وحوش مفترسة حقيقية يا صديقي ديك … وسأزيدك من الشعر بيتًا. أعتقد أننا قد نتمكن من شراء الآخرين أو إرهابهم، ولكنَّ جماعة دينجرافيل لا تعرف الخوف، وثمة سعر واحد يمكننا شراؤهم به، ألا وهو ثروة هارالدسن كاملةً ولوح اليشم الذي في حوزتي. أعتقد أن أكثر ما يهم دينجرافيل هو لوح اليشم، وهذا طبيعي؛ فهو مجرم يملك خيالًا واسعًا.»

سألته: «ولكن، كيف ستمتزج المجموعة القديمة بالجديدة؟»

«لن يفعلوا. ولكن إذا ما كنت أفهمهم جيدًا، فسوف ينفذون ما يؤمرون به. فلا يمكن لأيٍّ منهم أن يعارض دينجرافيل ولو للحظة واحدة. تروث، المحامي العادي الذي يملك بعض الضمير … بارالتي، المثقف الرعديد … ماذا قد يفعلان في مواجهة شرير حقيقي؟ أكاد أشفق عليهما، فهما بمثابة أرنبين صغيرين بين فكي ثعلب. دينجرافيل هو القائد الآن، وعلى الباقين أن يتبعوه، سواءٌ أعجبهم ذلك أم لا. ولن يخفف قبضته على خصومه أو حلفائه. إنه العدو الحقيقي. قاد جدُّ جدِّ جدِّ جدِّي كتيبته في معركة دتينجن بعدما قال لجنوده: «هل ترون هؤلاء الرجال على قمة التل؟ إذا لم تقتلوهم، فسوف يقتلونكم.» هذا ما أقوله عن دينجرافيل.»

قلت: «لقد عرضت الأمر جيدًا. ماذا تقترح أن نفعل؟»

أجابني ساندي قائلًا: «كنت أريد أن أجنح للسلم في البداية. كنت أعتقد أنه من الممكن التغلب على هذه العصابة أو إرهابها. كنت أعلم أن اعتقادي هذا لا ينطبق على دينجرافيل، ولكني تخيلت أنه من الممكن التعامل معه، هو وحراسه الشخصيين، بطريقة أخرى. التقيت أشخاصًا من سفارة أوليفا، ولكن دون فائدة تُذكر. لا توجد ضدهم أدلة دامغة تكفي لجعل تسليمهم إلى أوليفا ممكنًا. علاوة على ذلك، حتى وإن كان تسليمهم ممكنًا، فإنه لن يحل مشكلة هارالدسن. سيظل هؤلاء الكلاب يتعقبونه، وإذا لم نردعهم دون رجعة، فلن يعيش في أمان طوال حياته. لذا، أعتقد أن الأمر تحول إلى أزمة. فهم سيأتون لا محالة، وعلينا أن نواجههم. إن اختباءنا هنا لم يعُد ذا فائدة. أنا واثق من أننا سنتمكن من صدهم لبعض الوقت، ولكن ستتحول حياة الجميع إلى جحيم، وذات يوم سيفاجئوننا. علينا أن نقاتلهم، وأن نختار نحن أرض المعركة، وبما أنهم خارج الحضارة، فعلينا أن نخرج منها أيضًا.»

قلت: «لا أرى منطقًا في ذلك. إننا بلد يسود فيه القانون، وهذا من شأنه أن يضايق دينجرافيل. وإذا ما أقحمنا أنفسنا في حياة الغابة، فستكون الأفضلية لوحوشها.»

هز ساندي رأسه.

وقال: «بادئ ذي بدء، لا يمكنك أن تترك الأمور حتى تصل إلى حافة الانفجار في بلد يسود فيه القانون. ثانيًا، الانتقال سيضايق تروث وبارالتي أكثر من أي شيء آخر. ثالثًا، دينجرافيل نتاج الحضارة، وسأخشى لقاءه في أحد شوارع باريس أكثر من لقائه في جزيرة صحراوية. لذا، أتفق مع ما سمعت هارالدسن يقوله عندما فاجأتكم على التل. علينا أن نقاتل المعركة الأخيرة على أرض جزيرة الخراف.»

ثم تحدث هارالدسن.

وقال بصوته الرخيم الهادئ: «هذا ما قررت.» ثم انتصب واقفًا ومدد جسده الضخم بكامل طوله، وقد رأيت والده يفعل مثل ذلك كثيرًا على ذلك التل الغارق في ضوء القمر منذ أمد بعيد. واستطرد قائلًا: «سأفعل مثلما فعل ذلك الكلب العجوز عصر اليوم، سأرد لمن يعذبونني الصاع صاعين.»

قال ساندي: «أنت محق.» شعرنا جميعًا بتوتر في تلك اللحظة، وكان يريد أن يهدئنا. فقال: «أعتقد أن هذا هو عين العقل. سأرتب أن تذكر الصحف أنك ستعود إلى نورلاند. ومن الأفضل أن نفترق. لدي صديق، ربان مركب صيد في أبردين، سيُقِلُّك إلى هناك. بالمناسبة، ماذا عن ابنتك؟»

«أنًّا ستذهب معي. اللعنة عليَّ إذا ما تركتها تغيب عن ناظرَيَّ. كما أنه من الصواب أن تشاركني مصيري.»

«إني لأجرؤ على قول إن هذه حكمة منك. إذا ما تركتها هنا، فقد يأخذونها رهينة. ديك، يمكنك أن تركب القارب الشهري المتجه إلى أيسلندا الذي سيبحر الأسبوع القادم من ليث، وأفضل أن تصحب جوردي هاميلتون معك. سألحق بكما لاحقًا. وتأكد من أن العصابة ستهب لملاحقتنا بضراوة بمجرد أن يكتشفوا ما نخطط له. وسيكون ليفرلو وفوسي وماري وبيتر جون وباربارا والطفل في أمان.»

سمعت بيتر جون يزمجر. كان جالسًا يستمع إلى حديثنا بعينين مفتوحتين عن آخرهما. ثم قال راجيًا: «ألن يمكنني الذهاب أيضًا؟»

مسَّ تعبير وجهه المثير للشفقة قلبي، ولكني قلت له: «لا يا بني. أنت صغير جدًّا، ولست مجبرًا على المشاركة. ونحن في غنًى عمَن يكون عالة علينا.»

وهنا صاح هارالدسن منفعلًا: «ولكني لن أسمح بذلك. عليَّ أن ألاقي مصيري، أيًّا كان، وكذلك ابنتي. ولكني لن أسمح لكم بأن تعرضوا أنفسكم للخطر من أجلي. لقد كنتم أكثر من التقيت نُبلًا وكرمًا، ولكن انتهت مهمتكم، فقد أعدتموني إلى رشدي وجعلتموني رجلًا مجددًا. أنا ذاهب إلى وطني لأقاتل معركتي حتى نهايتها وسيقف معي بعض من أبناء وطني. أما أنتم يا أصدقائي، فستبقون في بيوتكم، وحمدًا لله الذي أنعم عليكم بالسلام.»

قلت: «لن أفعل ما تقول. لقد وعدت والدك بأن أساندك، ولن أنقض وعدي له أبدًا. كما أني أزداد بدانة وكسلًا، أحتاج إلى خسارة بعض الوزن. ولن يمكنك ثنيي عن ذلك لو دفعت لي كل ملايينك. ماذا عنك يا لومبارد؟»

أجابني قائلًا: «أنا معك. لقد أقسمت القسم نفسه، وأحتاج إلى بعض الحركة لتحث كبدي على العمل. لقد أنهيت جميع شئوني لشهر أو شهرين قادمين، فقد كنت بصدد الذهاب في عطلة طويلة على أية حال. وبيريل لن تعترض. إنها مهتمة بهذا الأمر مثلي تمامًا.»

كنت أتحدث بحماسة، رغم أن قلبي كان يرتجف. كنت واثقًا من أن ماري لن تعترض، فهي لم تنبس ببنت شفةٍ أثناء عملية «الرهائن الثلاثة»، ولكني كنت أعلم أنها ستكون قلقة جدًّا. لم أكن أخشى عليها وبيتر جون لأننا سننقل أرض المعركة لمسافة ألف ميل بعيدًا عنهما، ولكني كنت أستشرف أيامًا عصيبة سيعيشها أحب الناس إلى قلبي.

حدق بنا هارالدسن وعيناه مغرورقتان بالدموع. ثم قبض على كتفَي لومبارد، الذي كان أقربنا منه، وعانقه بقوة، وبدا لنا وكأن دبًا يعانقه. تمكنت من تفادي عناق مماثل، ولكنه قبض على يدي يرجها بقوة مصافحًا.

وقال بصوتٍ متهدج: «لم أكن أعلم أن مثل هذا الشرف لا يزال موجودًا في العالم. سأصبح الآن شجاعًا مقدامًا لأن أصدقائي يحيطون بي من كل جانب.»

ثم التفت إلى ساندي الذي يُكِنُّ له إعجابًا كبيرًا حتى هذه اللحظة.

«أما أنت يا لورد كلانرويدن، فلا يسعني أن أطلب منك شيئًا. فأنت لم تقطع على نفسك عهدًا، كما أنك رجل عظيم ذو قيمة كبيرة في بلدك. كما أنك ستترك خلفك زوجة شابة وطفلًا صغيرًا. أنا أصر على أن تبقى في بيتك؛ فمغامرتنا هذه — وأؤكد لك — ستكون عصيبة جدًّا. كما أعتقد أنها ستكون شديدة الخطورة.»

رد عليه ساندي قائلًا: «نعم، أعلم ذلك. وتعلمه باربارا أيضًا، وستكون هي أول من يشجعني على الاستمرار. لدي مصلحة في هذا الأمر أكبر من مصلحتك. أعطني بعض البيرة يا ديك وسأخبركم قصة.»

ملأت كوبه وأشعل هو غليونه بعناية جمة. ثم نظر إلينا الواحد تلو الآخر، كان لومبارد محمر الوجه ومتحمسًا، وكنتُ متهيِّبًا بسبب المنحى الذي آلت إليه الأمور، وشحب وجه بيتر جون فجأة، وكان هارالدسن يقف محيطًا بنا مثل قرصان نوردي. وفي نهاية المطاف التقت عيناه بعينَي هارالدسن، وأوحت إليه قوة خفية فيهما بأن يسحب كرسيًّا ويجلس منتصبًا كما لو كان طالبًا يجلس في غرفة مدير مدرسته.

قال ساندي: «منذ ثلاثة أيام، ذهبت في رحلة قصيرة عبر قناة المانش. ثم طرت إلى جنيف، ومن هناك ركبت سيارة وقُدتها إلى وسط وديان مقاطعة سافوي. وصلت في المساء إلى قلعة صغيرة عتيقة تقع عاليًا وسط الجبال. وفي ضوء الغروب، تمكنت من رؤية وتد أبيض اللون يشير نحو السماء شرقًا، كنت أعلم أنه جبل مون بلان. قضيت ليلتي هناك، وكان مُضيفي هو دينجرافيل.»

تعجبنا جميعًا، فقد بدت تلك أكثر مخاطرة جنونية قد يُقدِم عليها أحد.

تابع ساندي حديثه قائلًا: «لم يكن ثمة خطر محدق بي. كنت واثقًا في مُضيفي تمام الثقة. فهو سليل عائلة تعود إلى عصور الحملات الصليبية، ثم عركتهم الحياة حتى هزمتهم. كانت هذه القلعة الصغيرة هي كل ما تبقى لرجل كان أسلافه يملكون في الماضي نصف سافوا العليا. دينجرافيل رجلٌ عاطفي إلى حدٍّ ما، وتلك القلعة التي تقع على قمة التل هي أعز شيء في العالم على قلبه. اكتشفت ذلك عنه، ولا داعي لذكر كيف اكتشفته، ولم أكن أخشى أن يدس لي السم في القهوة. إنه وغد، ولكن لا تزال في نفسه بقايا من شرف.

حسنًا، لقد قضينا أمسية مسلية معًا. لم أحاول أن أفاوضه على شيء، ولكننا تبادلنا التحية قبل بدء المعركة، كما يُقال. كنت أريد أن أكتشف حالته المزاجية بعدما تعافى وأن أكتشف إلى أي مدى يريد أن يصل. واكتشفت كل ذلك بعد هذه الأمسية. إنه سيواصل حتى النهاية. سيسلب هارالدسن كل ما يملك، وربما يذيق تروث وبارالتي من نفس الكأس أثناء ذلك. ولكنه لا يفعل ذلك بدافع الجشع فقط. كان من الممكن أن نشتريه بمبلغ ضخم فيما مضى، ولكن ليس الآن، ليس بعدما عرف بمشاركتي. أصبح يعتبرني عدوه الأبدي. لم تعد الخصومة الرئيسية بين هارالدسن والعصابة، بل بيني ودينجرافيل. لقد تحداني، وقبلت التحدي.»

لا شك في أن ساندي رأى تعبير الامتعاض على وجهي، لأنه استطرد في حديثه.

قال: «لم يكن ثمة سبيلٌ آخر يا ديك. لم أفعل ذلك بدافع الغرور. قد يجوب العالم من شرقه لغربه متفاخرًا بأنه هزمني، ولم أكن لأولي ذلك اهتمامًا. أنا مسرورٌ جدًّا لأنه يسعى للعثور على طريقه إلى الجحيم. ولكن الأمر لا يتعلق بذلك فقط. إن هذا الرجل هو ما تبقى من مهمتي في أوليفا، وحتى يتم القضاء عليه، فإن مهمتي لم تكتمل. لا يمكنني أن أترك مهمة دون إتمامها. لا يمكنني أن أترك هذا الشيطان في صورة إنسان يجوب العالم حرًّا طليقًا. ولو تهربت من تحديه، لم أكن لأتمكن من النوم في فراشي قرير العين مرة أخرى.»

ارتسم على وجه ساندي ذلك التعبير الذي رأيته مرة أو مرتين من قبل على ذلك التل الصغير في إيرزيروم، وفي مكتبة مدينا في شارع هيل، وكنت أعلم أن جدالي معه سيكون بمثابة الجدال مع جدار أصم. كان وجهه يبتسم، ولكن كانت عيناه جادتين.

أكمل ساندي حديثه قائلًا: «ودعني دينجرافيل صباح اليوم التالي وضياء الفجر الجبلي يغمرنا. وقال: «من الرائع العيش في هذا العالم. إلى اللقاء. أتمنى ألا يمر وقت طويل حتى لقائنا القادم.» حسنًا، سأسرع الخطى في اتجاه هذا اللقاء. سألتقيه على جزيرتك يا هارالدسن، وأعتقد أن أحدنا فقط هو من سيغادرها حيًّا.»

الجزء الثالث

جزيرة الخراف

الفصل الثاني عشر

شعب هولدا

لم أبحر في البحار الشمالية من قبل، وكنت أتخيلها مضطربة ومتقلِّبة وعاصفة طوال الوقت. ولكن كان الواقع مختلفًا عما تخيَّلته تمامًا في ذلك الطقس الصحو من شهر أغسطس. عندما ركبتُ ولومبارد وجوردي هاميلتون القارب المتجه إلى أيسلندا من ليث، كان ثمة ضباب كثيف يغطي خور فورث، ولكننا خرجنا إلى جوٍّ صافٍ بعد مرورنا بجزيرة ماي، وفي صباح اليوم التالي، أثناء التفافنا حول جزر أُركاني، كان البحر هادئًا، وهبَّ علينا نسيم عليل، وتحت أشعة الشمس الساطعة وقفت الجزر البعيدة واضحة المعالم وبدت أشبه بتلال صغيرة سقط عليها ضوء الفجر في سهول جنوب أفريقيا الخضراء.

ولكن لم يرفع الطقس الجيد من معنوياتي. فلم أذهب في مهمة من قبل بحماسة أقل أو بتشاؤم أكثر من هذه المرة. جعلني لومبارد أشعر بالخجل. فهذا الرجل، الذي اعتقدت أنه أصبح واهنًا ومسنًّا، كان يواجه المجهول، ليس برباطة جأش فحسب، بل ببهجة أيضًا. كان يبدو وكأنه متوجه إلى عطلة، وكان سيسعد بالمشاركة في المهمة، حتى لو لم يقطع هذا العهد على نفسه، وأنا واثق من ذلك. بدأت أفكر في أن المهن التي تنطوي على التعامل مع المبالغ المالية الضخمة ربما كانت تدريبًا أفضل من المهنة التي امتهنتها أنا طوال حياتي. كان جزءٌ من بهجته يرجع إلى إعجابه بساندي، هذا الإعجاب الذي جعله ينصاع لأوامره كطفل صغير يسير على خطى أخيه الأكبر. لا يمكن لأحد أن يؤمن بساندي أكثر مني، ولكننا مررنا بالكثير من المصاعب معًا وأعلم أنه ليس معصومًا من الخطأ. ظلت تلك العبارة اليونانية البغيضة التي اقتبسها ماكجيلفري من هيرودوت ترن في أذنيَّ. لقد حالفنا الحظ كثيرًا، أنا وساندي، طوال حياتنا، ولكن الحظ من شيمه أن ينقلب في النهاية.

كان ما يؤرقني أني لم أتمكن من استشراف نهاية هذه المسألة. إننا بصدد مواجهة عصابة لا تأبه للقانون على جزيرة نائية خارج نطاق أي سلطة للقانون. وهذا لا يعني إلا أمرًا واحدًا، مواجهة مباشرة على الطراز القديم. لا شك في أن هارالدسن سيستعين بجماعته، ولكن لم يكن النورلانديون أهل حرب أبدًا، وعلى الرغم من أن العدد سيكون في صالحنا، فإني لم أكن مستعدًّا لأن أثق بأن النتيجة ستكون في صالحنا. إذا ما هزمناهم، فسنرهب تروث وبارالتي دون رجعة، ولكن لن يكون للهزيمة تأثير يُذكر على دينجرافيل. إلا إذا قتلناه. ولكن إذا هُزمنا، فالله وحده يعلم ماذا سيحدث لهارالدسن وابنته، ولبقيتنا، خاصةً ساندي. لن تنتهي هذه المسألة إلا بموت دينجرافيل أو ساندي. بدا الأمر وكأنه أحد تلك المبارزات الجنونية التي اعتاد الشماليون القدامى على الاحتكام لها، وتذكرت أنهم كانوا دائمًا ما يختارون جزيرة لهذا الغرض. كلما زاد تفكيري في الأمر، زاد اعتقادي أنه جنوني وكئيب. جُر مواطنان رصينان، أنا ولومبارد، جرًّا تحت عجلات العربة الحربية لمناضلين وهميين، فقد كان ساندي يشتهر بتهوره الشديد، وهنا تكمن عبقريته. وبدا الأمر وكأن هارالدسن تقمص شخصية أحد أسلافه الجامحين.

ولكن، كنت قلقًا جدًّا على من تركناهم خلفنا. ماري، كما آمل، لا تدرك شدة الخطر المحدق بنا، فلطالما أخبرتها بأن المسألة برمتها لا تتعدى عملية ابتزاز عادية. وأننا ذاهبون لمساعدة هارالدسن على الاستقرار في وطنه، والتأكد من أنه مرتاح، وأسوأ ما قد يحدث هو أننا قد نضطر إلى توبيخ بعض المبتزين السوقيين. من المؤكد أن ساندي قال المثل لباربارا، كنت آمل في ذلك على الأقل. ولم تعرف أيٌّ منهما أي شيء عن دينجرافيل. ولكن ماري امرأة شديدة الذكاء لا تفوتها فائتة، وشديدة الحساسية تجاه الجو العام المحيط بها. كانت مرتبطة جدًّا بعائلة هارالدسن، ولم تكن لتلمح لي أبدًا بأنه يجدر بي أن أنكث بعهدي معهما. ولكنني على يقين تام من أنها أدركت أن واجبي نحوهما أكثر خطورة من تلك المهمة السريعة التي تظاهرت بأني سأؤديها. لم تقل شيئًا، وودعتني كما لو أننا ذاهبون إلى النرويج لصيد أسماك السلمون. ولكن انتابني شعور بأنها أجبرت نفسها على الظهور بهذا المظهر الهادئ، فلا توجد امرأة قادرة على التحكم في انفعالاتها مثلها، ولن يهدأ قلقُها إلا بعدما تراني مجددًا. ستتذكر ذلك الصباح من أيام شهر أغسطس في ماتشراي عندما خرجت في مهمة تتبع عادية ليومٍ واحد، ثم عثرتْ عليَّ بعد عشرين ساعة فاقد الوعي عند قمة جرف صخري وجثة مدينا قابعة في قاعه.

أعمتني هذه الأفكار عن رؤية عصر ذلك اليوم الجميل بينما نلتف حول الطرف الشمالي لجزر أركاني ونقترب من رأس روست حيث سيبدأ مسار رحلتنا من هناك.

لاحظت فجأة أن السفينة تبطئ سرعتها. وقف ربان السفينة، ذلك الرجل الدنماركي المسن الهادئ الذي عقدت صداقة معه.

وقال: «سينضم إلينا راكب آخر أيها الجنرال. راكب لم يتمكن من اللحاق بنا في ليث. وأخطرونا بقدومه عبر اللاسلكي. سيضطر إلى دفع أجرة الرحلة من ليث إلى ريكيافيك كاملةً، وإلا ستقع مشكلة مع سلطات الموانئ البريطانية.»

نظرت إلى حيث ينظر ورأيت قاربًا سريعًا صغيرًا يقترب منا من ناحية الساحل، وعلى متنه شخص واحد غير واضح المعالم.

قال القبطان وهو يناولني النظارة المقربة: «إنه رجل. ربما كان أيسلنديًّا تلكأ لفترة طويلة في اسكتلندا، أو ربما كان اسكتلنديًّا يريد اللحاق بالفرصة الأخيرة لصيد أسماك السلمون الأيسلندي.»

كان ثمة شيء مألوف في هيئة الراكب، ولكني هبطت إلى الطابق السفلي من السفينة لأحضر جراب التبغ، ولم أرَ القارب وهو يصل. ولكم كنت ذاهلًا عندما صعدت إلى سطح السفينة مرة أخرى لأجد بيتر جون واقفًا أمامي! كان يرتدي أحد معاطفي الفضفاضة، ووضع لوازمه في حقيبة كبيرة. كما كان يحمل أنثى الصقر موراج على ساعده. كان واقفًا على سطح السفينة يبدو خائفًا ومرتبكًا كطفل صغير. لم يقل شيئًا، ولكنه كان يحمل خطابًا.

كان الخطاب من ماري. قالت فيه إنها لم تستطع تحمُّل رؤية الكآبة المرتسمة على وجه ابنها. كتبت قائلة: «كان يدور حول نفسه في المنزل كما لو كان كلبًا تائهًا. أعتقد أن نسيم البحر سيفيده، فقد ظل في منطقة حارة لفترة طويلة مؤخرًا. وإذا ما حدثت أي مشاكل، فسيكون خير عون لك، فهو يتمتع برأي سديد. لقد وعدني بأنه سيعتني بك، وسيهدأ بالي لأني أعرف أنه بجوارك. أرسل إليَّ من فضلك برقية من يالمارزهافن تخبرني فيها بأنه قد وصل إليك.»

كان هذا هو فحوى الرسالة. كان بيتر جون يقف في مكانه متخشبًا، كما لو كان يتوقع توبيخًا، ولكني لم أكن أميل إلى التوبيخ. كنت سعيدًا بوجوده معي، واقتنعت بأن ماري لا تشعر بالقلق عليَّ، بما أنها أرسلته خلفي، رغم تشككي في أن هذا الاستنتاج يوفي رصانتها حقها. ثم طرأت عليَّ فكرة. كان الفتى يعلم مدى خطورة مهمتنا، فقد سمع ساندي وهو يشرحها بالتفصيل.

فسألته: «هل أخبرت والدتك بأن هذه المهمة تنطوي على مخاطرة؟»

«نعم. رأيت أن من حقها أن تعرف.»

«ماذا قالت؟»

«قالت إنها تعرف ذلك بالفعل، وإنها ستشعر بمزيد من الاطمئنان إذا كنتُ معك لأرعاك.»

تلك هي ماري التي أعرفها. أي امرأة أخرى لو وُضعت في الموقف نفسه، كانت ستتشبث بابنها لتبعد ولو واحدًا على الأقل من أحبائها عن الخطر. أما ماري فعندما عرفت بخطورة المهمة المطلوب إنجازها، كانت على استعداد للمخاطرة بكل شيءٍ لإنجازها على الوجه الأمثل.

انفرجت أسارير بيتر جون المكتئبة وتحولت إلى ابتسامة بعدما رأى التغير في تعبير وجهي.

سألته: «كيف وصلت إلى هنا؟»

أجابني قائلًا: «ركبت طائرة. ركبت طائرة حتى إنفيرنيس ثم ركبت طائرة أخرى إلى كيركوول. لم أواجه صعوبات سوى في القارب السريع وفي إرسال الرسالة عبر اللاسلكي.»

ضحكت مما قال.

وقلت: «لا أعلم إن كنت قادرًا على الاعتناء بي. ولكني واثق من أنك قادر على الاعتناء بنفسك.»

وصلنا إلى ميناء يالمارزهافن، عاصمة نورلاند، الصغير دون أن يتغير الطقس الصحو أو الرياح الغربية. بدت التلال الخضراء خلف الجروف الشاطئية السوداء، والأمواج الزرقاء التي تتحول إلى زَبَدٍ أبيض على الشواطئ الصخرية الصغيرة، والقمم الداكنة التي تبدو كجدار ناحية الشمال، وكأنها تغفو في سلام مثل الجزر المباركة المذكورة في رواية «داريل الجزر المباركة». كان في يالمارزهافن بعض الضجة، وشممنا خليطًا من ألف رائحة سيئة مختلفة، تراوحت من أعشاب بحرية متعفنة إلى جثة حوت متحللة. وكانت المنازل مدهونة بعشرات الألوان، وكان الخليج الصغير يعج بالكثير من المراكب المختلفة، مراكب صيد أسماك، ومراكب صيد حيتان، وقوارب كاياك، وزوارق بدائية ذات محركات. كانت المراكب الكبيرة الوحيدة التي رأيتها هي سفن الصيد القادمة من جريمزبي، وسفينة تجارية تُشهر العلم الدنماركي بألوانه الحمراء والبيضاء وصلت للتو من أيسلندا. كانت السفينة التي وصلنا على متنها هي سفينة الركاب الأولى التي تصل من الجنوب منذ أسبوعين، وهذا يعني أن الجماعة الأخرى لم تصل قبلنا. أجريت بعض التحقيقات وعلمت أن مركب الصيد القادمة من أبردين قد وصلت منذ ثلاثة أيام، وأن هارالدسن توجه من فوره إلى جزيرته.

استأجرنا قاربًا سريعًا، ودرنا في عصر ذلك اليوم حول الطرف الجنوبي للجزر الرئيسية، والتففنا حول جانبها الغربي، وشققنا طريقنا عبر أرخبيل من الجزر الصخرية الصغيرة حتى وصلنا إلى جوار جزيرة هالدر، ثاني أكبر جزر المنطقة. كان ساحل الجزيرة متعرجًا جدًّا، وكانت وديانها العميقة تنحدر من قمم تصل ارتفاعاتها إلى حوالي ٣٠٠٠ قدم وتطل تلك القمم في بعض الأحيان على هاويات هائلة وأحيان أخرى تنحدر تدريجيًّا إلى سهول خضراء وشطآن واسعة مكسوة بالحصى. ومن موقعنا الحالي في الميناء، ظهر أمامنا ساحل منبسط، وعرفت من الخريطة أنه ساحل جزيرة الخراف. كان يفصل بينها وبين جزيرة هالدر قناة يبلغ عرضها حوالي ميلين، ولكنها كانت ذات طبيعة مختلفة تمامًا عن جارتها. ذكرتني هذه الجزيرة بجزيرة كولونساي ذات الأراضي المنبسطة الخضراء، التي توجد في وسط البحر، حيث قد يعيش المرء وكأنه في سفينة مع صوت الأمواج المستمر في أذنه.

ثم رأيت المنزل، وكان مبنيًّا على أرضٍ مرتفعة تطل على خليج صغير، وبدا لي قلعة ومنارة في الوقت نفسه، مبنى ينتمي لليابسة وللمياه. لا توجد أشجار في نورلاند، ولكن حتى من هذه المسافة البعيدة تمكنت من رؤية أن ثمة نوعًا من الأراضي الزراعية تقسمها ممرات حجرية تؤدي إلى سرادقات مسقوفة. على أرض أقل ارتفاعًا، بالقرب من الشاطئ، كانت ثمة مستعمرة من المنازل الصغيرة. كانت الخضرة الرائعة هي ما أسرَ نظري. بعد الألوان البنية والرمادية الكئيبة لجزر شيتلاند، بدت الجزيرة شديدة الخضرة مثل مرج إنجليزي في شهر مايو. كان الجزء السفلي من المنزل مبنيًّا بالحجر، والجزء العلوي بنوع من الخشب الأسود، وكان السقف مكسوًّا بالعشب الأخضر الفاتح الذي كان ينمو صحيحًا وكأنه ينمو في حقل. عندما وصلنا إلى المرفأ الصغير ساعة غروب الشمس، شعرت وكأني أنظر إلى مرفأ خارج العالم المأهول في مملكة سلام منسية.

لن أنسى خطوتي الأولى على أرض الجزيرة ما حييت، رائحة السمك المقدد القادمة من ناحية الشاطئ، والصخور البازلتية السوداء، وتجمعات عشبة الملاك الطبية ذات الأوراق العريضة، ومصائد المحار التي تظهر أجزاء منها على طول الشاطئ المكسو بالحصى.

كان هارالدسن وأنَّا في انتظارنا. كان هارالدسن يرتدي زيًّا تقليديًّا نورلانديًّا، معطفًا وسراويل ركوب خيل بُنِّيةٍ مَحيكة منزليًّا، مع أزرار فضية عند الخصر والركبتين، وجوربًا مغزولًا منزليًّا وحذاءً فضيَّ اللون ذا إبزيم، وقبعة غريبة مخروطية الشكل تحمل لونين: الأزرق الداكن والأحمر. كان مظهره يجمع بين مظهرَي الإقطاعيين والقراصنة، ولكنه

كان مناسبًا تمامًا للمنظر المحيط به. كانت أنَّا ترتدي تنورة كحلية اللون وسترة حمراء، وكانت عارية الساقين، وفي قدميها خفٌّ ذو إبزيم مصنوع من الجلد غير المدبوغ.

قال هارالدسن بعد كلمات الترحيب الأولى: «لقد أحضرتم الصبي.» بدا الجزع في عينيه.

فقلت: «لقد أرسلته والدتُه خلفنا. من المفترض أن يعتني بي.»

رد عليَّ مقطبًا جبينه: «إنه مُرحَّب به قطعًا.» استنبطت من تعبير وجهه أن وجود طفل ثانٍ ضمن المجموعة يُثقِل المسئولية الملقاة على كاهله ... لم يُخمِّن أيٌّ منا أن هذين الصغيرين سيكونان خلاصنا.

كانت تحية أنَّا لنا مختلفة تمامًا. بدا أنها تخلصت من شخصية الطالبة الإنجليزية، ومعها كل حيل الكلام والطريقة التي ضايقت ابني منها. ذكرت أنها كانت تعامله حتى هذه اللحظة بطريقة متعجرفة ما دفعه إلى التزام صمت واجم. كانت الآن هي صاحبة المنزل، وتعاملت وكأنها أميرة تستقبل صديقًا لمملكتها. كانت تبدو بارعة الجمال بشعرها الأشقر وعينيها الفاتحتين وبشرتها العاجية التي سمَّرتها رياح البحر ولوحتها أشعة الشمس. أمسكت يد الصبي بين راحتيها.

وقالت: «كم تسعدني رؤيتك يا سيد بيتر جون. لا شك في أننا سنمرح كثيرًا معًا.»

لم أكن أتوقع أن يكون المنزل الذي بناه هارالدسن الأب قصرًا. كنت قد تقبلت ثراء العائلة كحقيقة واقعة، ولكني لم أرَ أي دليل على ثراء ذلك الرجل المطارد وتلك الطالبة الرثة الثياب. وأدركت الآن أن ثمة ثروة كبيرة بالفعل. فوق الجروف المنخفضة، كانت الأرض مستوية، وكانت ثمة مروجٌ شاسعة شبيهة بمروج إنجلترا؛ ففي هذا المناخ الرطب، ينمو العشب بطريقة مثالية. وكانت الزهور أيضًا تحاول النمو، الورد وزهور العائق وبعض الزهور الحولية، ولكنها كانت تنمو في الفجوات المنخفضة بين الأراضي المرتفعة تجنبًا للرياح القوية التي تهب في نورلاند. كان المنزل مكوَّنًا من ثلاثة طوابق، وكان محميًّا من الرياح من ثلاثة جوانب بتلال على شكل هلال، وكانت تلال جزيرة هالدر على الجانب الآخر من القناة تضعف الرياح الشرقية القوية. طبقًا لطراز البناء النوردي، كان الطابق الأرضي من المنزل عبارة عن حجرات للتخزين، مثلما هو الحال في الحصون الحدودية، وتوجد غرف المعيشة في الطابق الذي يعلوه، وتوجد غرف النوم في الطابق الأخير. كان المنزل بالكامل حديث البناء فيما عدا جانبًا واحدًا توجد فيه غرفة حجرية صغيرة لا أعلم إن كانت زنزانة أم محرابًا، فقد كانت جدرانها بسمكٍ يبلغ حوالي خمسة أقدام. كانت هذه

الغرفة الصغيرة، كما تقول القصة، مسكن ناسك أيرلندي لجأ إليها في العصور المظلمة حتى أنهى الشماليون الوثنيون حياته.

كان مدخل المنزل بعد سلمٍ مكوَّنٍ من بضع درجات بدا وكأنه نُحت في صخرة حية. كان أول ما رأيناه داخل المنزل بهو شاسع يبلغ طوله مائة قدم على أقل تقدير ويبلغ ارتفاع سقفه ارتفاع المنزل نفسه. بُنِي هذا البهو، على ما أعتقد، على طراز بهو منازل الفايكينج، وكان المرء يشعر داخله بأن قد عاد بالزمن إلى الماضي. لم أتمكن من تخمين المكان الذي حصل منه هارالدسن الأب على الخشب، ولكنه كان موغلًا في القِدَم، وكان محفورًا على ألواح خشب السنديان الأسود زخارف غير مألوفة. كان أثاث المنزل قديمًا وضخمًا، فكانت ثمة مائدة طويلة تكفي لجلوس خمسين رجلًا من الفايكينج، ومقاعد هائلة الحجم لا يمكن لأحد ملؤها إلا فالستاف البدين أحد شخصيات مسرحيات شكسبير. أما بالنسبة إلى الديكورات، كانت ثمة بعض السجاجيد الجدارية الرائعة، والكثير من نماذج السفن من جميع العصور مصنوعة من الفضة والعاج وقرون الحيوانات وخشب الساج، ومن المؤكد أن قيمتها تساوي ثروة هائلة.

كان هذا هو المكان المخصص لاستقبال الزوار، ولم يكن مريحًا على الإطلاق. ولكن كانت توجد غرف أخرى على جانبيه — قاعة استقبال كبيرة مفروشة بأثاثٍ باهظ، ولكنها لا تصلح لحياة البشر وكأنها متحف، وهي مكتظة بالتحف المنتقاة مثل المتحف تمامًا، وهناك أيضًا غرفة تدخين عُلقت على جدرانها جميع أنواع الأدوات النوردية بدايةً من العصر الحجري فصاعدًا، ثم توجد غرفة البلياردو التي تضم مجموعة من التذكارات الرياضية، بما في ذلك الكثير من رءوس الحيوانات التي اصطادها هارالدسن الأب في أفريقيا، وكانت الغرفة الأهم هي المكتبة. كانت المكتبة هي الغرفة الأكثر بهجةً في المنزل، وكان من الجلي أنها غرفة هارالدسن المفضلة، فقد كانت تحمل طابع الأماكن الأثيرة على قلب أصحابها ولا يفارقونها. اختار بانيها لها سقفًا من الجص الناعم، تتخلله ألواحٌ من الخشب تحمل شعار النبالة بين قوالب من الرموز النوردية. كانت الكتب تغطي جميع جدرانها، كتبٌ بدا من مظهرها أنها ليست بغرض الزينة؛ ما جعلها تضفي على الغرفة شعورًا حميميًّا لا يمكن للكتب الموضوعة بغرض الزينة أن تقدمه. في الطابق العلوي، كانت غرف النوم واسعة وجيدة التهوية وذات أرضيات من خشب السنديان عارية من المفروشات، ولم تكن تحتوي على الكثير من الأثاث رغم احتوائها على جميع وسائل الراحة الحديثة.

ما لفت نظري بشكل خاص هو أن كل ما يوجد في المنزل كان من الأشياء الأعلى جودةً وربما الأعلى قيمةً. بدا من الغريب أن أتأمل القصر الفخم الذي حوصرنا فيه بكل ما فيه من كنوز.

قال هارالدسن: «هذه الكنوز ملك لأبي. أما أنا فلا أريد أي ممتلكات ثمينة. لا أريد شيئًا سوى كتبي.»

كانت الضيافة في المنزل جيدة بنفس قدر الإقامة فيه. كان ثمة رئيس خدم مُسِن يُدعَى آرن أرناسون، وكان يرتدي ملابس تشبه ملابس سيده، ويشبه شخصية رامبيل ستيلتزكين في الحكاية الخرافية، ويعمل تحت إمرته أربع خدامات مسنات. أخبرني هارالدسن بأنه معتاد على إرسال قاربه السريع إلى يالمارزهافن مرةً كل أسبوع لإحضار الخطابات والأشياء التي يستوردها. ولكن كانت الجزيرة توفر له أغلب لوازمه. فقد كان يملك أبقارًا يحصل منها على الحليب، كما أن لحم الضأن هنا يُعد الأفضل في العالم، وكان يُعِدُّ لحم الأبقار واللحم المقدد بنفسه، ويزرع جميع الخضروات سهلة الزراعة، بما في ذلك بطاطس ليس لها مثيل: وكان البحر يوفر له الأسماك التي يحتاج إليها، ناهيك عن سرطان البحر، وتوفر له البحيرات السلمون البحري والسلمون البني. بالفعل، لم أتناول طعامًا أشهى من ذلك الطعام في حياتي؛ طعام بسيط، ولكن طُهِيت المكونات الأساسية بطريقة مثالية. كان ثمة شيئان فقط شذا عن بساطة المنزل ونمَّا عن البذخ. كان ثمة قبو مشروبات يحتوي على نبيذ إسباني ونبيذ ماديرا لا مثيل لهما، وطبقًا لتقاليد شعوب الشمال، كانت وجباتنا تبدأ بمجموعة متنوعة جدًّا من فواتح الشهية. كان بيتر جون يأكل الكثير من تلك الأطباق الصغيرة غير المألوفة حتى تمتلئ معدته ولا يستطيع تناول أيٍّ من الأطعمة الرئيسية، حتى تعلَّم ألا يفعل ذلك.

ذهبنا إلى الفراش مبكرًا، ولكن قبل أن أنام، كنت بحاجة إلى التحدث إلى هارالدسن في أمر مهم.

قلت: «لقد أصبحنا على الجبهة الآن. هل من جديد عن العصابة؟»

«لا جديد. لقد اتصلت بيالمارزهافن هاتفيًّا، ورتبت الأمور بحيث يتم إخباري بجميع الأغراب الذين يصلون إلى هناك. ولكني لا أعتقد أنهم سيأتون عبر يالمارزهافن.»

«هل وصلك أي أخبار عن اللورد كلانرويدن؟»

هز رأسه نفيًا. وقال: «لا شك في أنه سيرسل إلينا برقية قريبًا، وستصلنا فحوى الرسالة عبر الهاتف. قال إنه سيتبعنا على الفور.»

طرحت عليه سؤالًا آخر، ورد عليَّ بإجابة جعلتني أذهب إلى فراشي قلقًا. قلت: «كم عدد رجالك على الجزيرة؟»

فبدت عليه الحيرة.

وقال: «آرن أرناسون في المنزل. وثمة ثلاثة بستانيين، دال وهولم وإيفانسن. وفي المرفأ، يوجد جيكوب جريجارسن، المسئول عن القارب السريع. كما يوجد أبسالون صياد الطيور، ولكنه طريح الفراش. وجميعهم رجال مسنون للأسف.»

فهتفت مندهشًا: «يا إلهي! ظننت أن لديك مجموعة كبيرة من الشباب.»

قال مبررًا: «معذرةً. لقد نسيت. كان يوجد عدد كبير من الشباب في جزيرة الخراف، ولكنهم خارجها حاليًّا. ذهب بعضهم إلى جرينلاند وأيسلندا لصيد أسماك القد، وذهب البعض الآخر لصيد أسماك الهلبوت. وأبحر أحدهم إلى أمريكا الشهر الماضي، وكان أكثر من أعتمد عليه.»

انتهى الجو الصحو تلك الليلة. وعادت نورلاند في صباح اليوم التالي إلى طبيعتها، فقد هبت الرياح الجنوبية الغربية محملة بالكثير من الأمطار، وغطى الضباب جميع التلال. ولم تكن جزيرة هالدر سوى طيف رمادي إذا ما نظرت نحوها عبر القناة. كانت الأسرة معتادة على تناول إفطار خفيف، ثم تتناول وجبة غداء كبيرة في منتصف النهار. وكان هارالدسن منشغلًا ببعض الأعمال، فارتديت ولومبارد وبيتر جون معاطف مطر واصطحبتنا أنَّا في جولة حول الجزيرة.

كانت معالم الجزيرة الرئيسية بسيطة، وبما أنها مهمة لقصتي، عليَّ أن أوضح تفاصيلها. كانت أبعاد الجزيرة تبلغ ستة أميال طولًا وميلين عند أقصى عرضٍ لها، وكان اتجاهها موازيًا للمحور الرأسي للأرض. كان المنزل يقع على ارتفاع يبلغ ثلثَي ارتفاع أراضي الجزيرة، وكانت الأرض الأكثر ارتفاعًا في الجزيرة تقع خلفه تمامًا ولا يزيد ارتفاعها عن خمسمائة أو ستمائة قدم. ناحية الطرف الشمالي من الجزيرة، كانت الأرض تتحول إلى أراضي برية تتخللها بحيرات صغيرة مليئة بأسماك السلمون، وكانت نهايتها عبارة عن جرف شديد الانحدار يعلو لمسافة أربعمائة قدم على أقل تقدير، تعلوه واحدة من البحيرات تفرغ ما فيها من ماء على هيئة شلال رائع الجمال. كان هذا الجزء من الساحل متعرجًا ومتشققًا، وكانت ثمة مجارٍ مائية صغيرة تنحدر من الأراضي المرتفعة إلى الشاطئ الذي تتناثر عليه الصخور.

كان تحت المنزل قناة صغيرة، كما قلت سابقًا، وإلى الجنوب كانت ثمة قرية قريبة من الماء. وجنوب القرية توجد أراضٍ رملية منبسطة، ولأن الساحل عند هذه المنطقة يمتد لمسافة معينة داخل البحر، فهو يُعد ملاذًا جيدًا للقوارب عندما يثور البحر. كان الجزء الجنوبي من الجزيرة ذا طبيعة مختلفة. فكانت أرضه منبسطة لا تعلو عن سطح البحر إلا لبضعة أقدام، وكان ساحله إما رمليًّا أو حيودًا واسعة. كانت أرض الجزيرة في هذه المنطقة عبارة عن براري مليئة بالأعشاب والمستنقعات تتخللها الكثير من البحيرات السبخة تنذر الصيادين بصعوبة الصيد فيها. لمعت عينا بيتر جون بينما كنا نتجول في المكان، فكان من الجلي أنه جنة للطيور. لفتت صيحة منه انتباهي إلى زوج من دجاج الأرض الأرجواني. لم يكن صيد الطيور والحيوانات على البر مسموحًا في نورلاند، وكان صيد البحر مسموحًا به لموسم قصير فقط؛ لذا، كانت الجزر ملاذًا رائعًا لمختلف أنواع الحيوانات. كان من الغريب أن ترى طيور الكروان تعدو بين ساقيك كما لو كانت طيور تدرج داجنة، وأن ترى طائرًا خجولًا مثل القطقاط الذهبي يرمقنا في هدوء من على صخرة تبعد عنا مسافة ياردتين فقط. كانت مساحة هذا المستنقع الشاسع تبلغ حوالي أربعة أميال مربعة، وكان مكتظًّا بجميع أنواع الطيور. وكان من الصعب إبعاد ابني عنه.

ناحية الطرف الجنوبي للجزيرة، كانت الأرض ترتفع قليلًا لتصبح تلالًا قصيرة معشوشبة، ويظهر من خلفها البحر بعيدًا. لا بد أن هذه المنطقة تحتوي على عشرات الخلجان الصغيرة، وخليج كبير يبلغ عرضه ربع ميل تصب فيه إحدى البحيرات ماءها على صورة جدول. كانت أسماك كالسلمون البحري تقفز في سعادة عند مصب الجدول. تمنيت لو أني جئت إلى هنا في عطلة وليس من أجل هذه المهمة الكئيبة، فلم أرَ في حياتي أرضًا تَعِد بصيد وفير مثل تلك. سرنا حتى مدخل الخليج وكانت الأمواج تتكسر تحت وطأة الرياح، ثم نظرنا نحو الأفق ورأينا السحب الضبابية والبحر الهائج.

قضينا يومين في هذا الطقس المطير، وبما أنه لم يكن ثمة شيء لأفعله، استثمرت الوقت في التفكير. سيكون إجمالي قوتنا عندما يصل ساندي أربعة رجال فعَّالين بدرجة معقولة، وطفلين، وثلاثة أو أربعة خدم مسنين، ومجموعة من النساء. واختفت من ذهني صورة العدد الكبير من الشباب النورديين المقدامين الجاهزين لخوض المعركة من أجل سيدهم. كان الأمر سيئًا جدًّا، ولكن ما كان يحيرني حقًّا هو السبب الذي يدعونا للقتال. كان ساندي واثقًا من قدومنا إلى هنا حتى تتعادل الكفتان، ولكني لم أكن أملك أدنى فكرة عن هاتين الكفتين.

كنت أدرك جيدًا اللعبة القديمة التي مارسها تروث وبارالتي. فكان من السهل أن يذهبا إلى جزيرة منعزلة ويرهبا شخصًا معتزلًا عصبيًّا لينفذ ما يريدان منه. وربما لم يكن صعبًا عليهما أن يضعا أيديهما عليه في إنجلترا، فقد كان غريبًا في بلاد غريبة، ويرهبانه حتى يذعن. ولكنه أصبح محاطًا الآن بأصدقاء أقوياء، وكانت العصابة تدرك ذلك. فقد كان لومبارد رجل أعمال مُهمًّا، وساندي رجل شهير، وأنا أمتلك بعض السمعة الجيدة. كان أعداء هارالدسن رجالًا ذوي وضع معين، وكان أحدهم على الأقل رجلًا ذا طموح شره، ولم يكونوا ليقدموا على مخالفة القانون بطريقة سافرة في ظل وجود أشخاص مثل ساندي يمكنهم أن يفضحوا تعدياتهم علنًا. ربما كانت الإغارة على جزيرة الخراف خطأً كبيرًا. كما أنها قد تكون بلا طائل. حتى وإن كانوا يفوقوننا عددًا، فيمكننا أن نستدعي مددًا. عرفتُ أن هناك نصف دزينة فقط من رجال الشرطة في نورلاند، كما أننا لا نستطيع الاعتماد بالكامل عليهم، ولكن من شأن مكالمة هاتفية واحدة إلى ياالمارزهافن أن تحضر لنا دعمًا من متطوعين، كما أن ثمة سفينة تابعة للحكومة الدنماركية تجوب البحر في مكان ما حول مناطق الصيد. ومن شأن رسالة لا سلكية واحدة من ياالمارزهافن أن تحضرها لتفرض القانون والنظام.

أقنعت نفسي تدريجيًّا بأن الأعداء قد لا يأتون من الأساس، فقد فررنا بخبث من دون أن يتمكن أحد من تتبعنا، وأفضل شيء يمكنني ولومبارد فعله هو أن نحوِّل هذه المهمة إلى عطلة لصيد الأسماك. لا شك في أن هذا الحال لن يستمر إلى الأبد. لن يمكننا أن نبقى في هذا الجزء الغريب من العالم طوال حياتنا، فلدينا الكثير من الالتزامات في الوطن. قررتُ أن نظل هنا لأسبوعين، وإذا لم يحدث شيء، فسنعتبر أن هارالدسن في أمان ونعود إلى إنجلترا.

لم يورثني قراري هذا شعورًا بالراحة، فلم أستطع الكف عن التفكير في كلمات ساندي. كان ساندي واثقًا أنَّ الأمور ستصل إلى ذروتها في القريب، وإلى جانب معرفته بأعدائنا أفضل من بقيتنا، كان حدسه نادرًا ما يخطئ. ثم تذكرت الكلمات التي قالها ماكجيلفري في الربيع. وتذكرت دينجرافيل الغامض الذي لم أره من قبل. كان وضعه مختلفًا عن الآخرين، فلن تكن لديه سمعة يخاف عليها، ولا وضع اجتماعي يخاطر به، كان خارجًا عن القانون شن الحرب على المجتمع ولن يتورع عن فعل أي شيء لتحقيق مآربه. لم يكن تروث وبارالتي سوى ابنَي آوى أجبرهما أسد على الخروج معه للصيد ليعثرا له على طريدة. كما أن ثمة مواجهة مؤكدة مع ساندي، ولم يكن ليتهرب منها.

مع مشاركة دينجرافيل في الأمر، لم تعد هناك حدود لما قد يحدث. سوف يُصعِّد الأمور إلى مواجهة وحشية تنتهي إما بالموت أو بالحصول على الكنز. ولم نكن ضعافًا فحسب، بل لم يكن لدينا أمل في الانتصار في ظل وجود طفلين ضمن صفوفنا. سواءً بالحيلة أو بالقوة، سيتمكن من اكتشاف نقاط ضعفنا وسيستغلها دون رحمة لينتصر.

كانت حصيلة هذه الأفكار أني أصبحت شديد العصبية، واشتقت إلى وجود ساندي ليسرِّي عني، ولكن لم تكن ثمة أية دلالات على وصوله أو أي أخبار عنه. لم يساعد الطقس الضبابي أو المشهد القاتم الذي لم أتمكن فيه إلا من رؤية البحر الذي تجلده الأمطار وشبح جزيرة هالدر، والمستنقعات الرطبة والصخور السوداء التي تقطر ماءً، في رفع معنوياتي. كنا قادرين على رؤية القناة بوضوح، وخلال هذين اليومين لم تمر أي سفينة سوى سفينة جانحة عن مسارها، وسفينة بخارية ترفع العلم الدنماركي قال عنها أرناسون إنها تابعة للحكومة وخرجت بغرض دراسة الأحياء البحرية. كانت السفينة تبحر بسرعةٍ كبيرةٍ نحو الشمال، وتمخر عباب البحر، كما يُقال. كانت أساطيل مراكب الصيد تبعد أميالًا ناحية الغرب، واحتلت المراكب الأيسلندية الجانب الآخر من جزيرة هالدر. شعرتُ كما لو أن الضباب يحبسنا داخل عالم مظلم بعيد عن البشر العطوفين، عالم قد تحدث فيه أمور مريعة في أي لحظة. على الرغم من وجود بيتر جون معي، فقد خيم عليَّ شعور عميق بالوحدة. كما انتابني شعور مقيت بتوقع حدوث كارثة لم أتمكن من التخلص منه. وغزا نشيد بحارة سخيف ذاكرتي:

«انتبه، احذر من خليج بنين ... واحد ينجو من كل أربعين.»

في صباح اليوم الثالث، غيرت الرياح اتجاهها لتهب نحو الشرق، واستيقظنا على مرأى سماءٍ زرقاء صافية، وتمكنا من رؤية جزيرة هالدر بوضوح، وانعكست أشعة الشمس بلطف على سطح البحر. ذكرني الجوُّ المنعشُ بجنوب أفريقيا، عندما كنت أخلد إلى النوم دائمًا، خلال حرب البوير الأولى، على أرض مبتلة دون عشاء وأستيقظ مدندنًا خالي البال تمامًا. كل ما في الأمر أني لم أتمكن من الاستمرار في كآبتي المنطقية، وانتقلتْ عدوى هذا المزاج المبتهج إلى بقية أفراد مجموعتي. كان من الصعب عليَّ أن أتصور أن هذا المكان المنعش المشمس قد يئوي أناسًا أشرارًا وأفعالًا إجرامية. ثم وصلتنا رسالة من ساندي أُبلغنا بها عبر الهاتف من يالمارزهافن. لم تقل الرسالة الكثير ... فقط: «تأخرت، ولكني قادم. لا أعلم متى سآتي تحديدًا»، ولكني شعرت وكأنها قد خففت عن كاهلي

بعض المسئولية. لم يخبرنا مكتب البريد في يالمارزهافن بتاريخ أو مكان إرسال الرسالة، ولم يكن بالإمكان اعتبارها تأكيدًا مكتوبًا على اقتراب وصوله.

طوال ذلك اليوم، وفي اليوم الذي تلاه، وضعنا همومنا خلف ظهورنا. فخرج هارالدسن عن صمته، وبدأ يمارس دور المُضيف ببراعة. واصطحبَنا إلى القرية وأرانا كيف يعيش سكانها، أماكنَ تجفيف الأسماك، والنساءَ العجائز الغريبات وهن يغزلن ويحكن ويصنعن الأصباغ المحلية باستخدام الأُشنَة والأعشاب البحرية ونبات إبرة الراعي والبرسيم. تحل الخراف في المرتبة الثالثة من حيث الأهمية بعد الحيتان وأسماك القُد، وهي التي أعطت الجزيرة اسمها، وهي حيوانات لطيفة صغيرة الحجم شعثاء ذات صوف رائع. ثمة مثل نوردي يقول: «صوف الخراف هو ذهب نورلاند.» كانت قرية غريبة معبقة بروائح كريهة غير مألوفة، فقد كان علف الماشية في فصل الشتاء مكوَّنًا من لحم الحيتان المجفَّف، وكانت تلك الرائحة تنفذ إلى أنفك من على بُعدِ ميل. دار حديث رائع بيني وبين أبسالون طريح الفراش، صياد الطيور، وكان «خادمًا للملك»، امتلكت عائلته لأجيالٍ مزرعةً مُهداة من الملك شخصيًّا. كان هارالدسن يزرع أرضه من أجله؛ فقد هلك ابناه في البحر. وكان أبسالون يجلس في فراش مصنوع من أخشاب السفن يقص علينا حكايات، يترجمها هارالدسن، عن صيد الفقمات عندما كانت لا تزال ثمة فقمات في نورلاند، وحيوان الفظ الضخم الذي ضل طريقه من القطب الشمالي، ورحلات صيد الحيتان التي كانت تصبغ مياه الخلجان بلون الدم الأحمر. كانت يداه المعوجتان المُسِنَّتان تقبضان على البطاطين، وكان صوته عاليًا مثل إوزة، ولكن كانت قسمات وجهه تفيض بالطيبة مثل رجلٍ وَرِع.

خرجتُ من منزله أكثر سعادة مما دخلته، وزادت سعادتي أكثر عندما رأيت سفينة الأحياء البحرية الدنماركية ترسو في الخليج في جزيرة هالدر على الضفة الأخرى من القناة. أخبرني جريجارسن، المسئول عن قاربنا السريع، أن اسم السفينة هو: تشالدار، وأنها كانت تصطاد الكائنات البحرية بالشباك من عند رءوس الجزر الشمالية. قال جريجارسن: «ستواصل هذه الرياح الهبوب، فبحارة هذه السفينة مهرة، ولا يختارون الرسو إلا إذا كانت الرياح ستهب بشكل ثابت من الشرق.» شعرت بأن هذه السفينة الصغيرة المنظمة حافظت على اتصالنا بالعالم المتحضر بطريقة ما.

كان هارالدسن مُضيفًا جيدًا تلك الأيام، كما قلت سابقًا، ولكنه كان غريب الأطوار. عندما كنا في ليفرلو، عندما تخطى مشاكله العصبية، كان أشبه برجل إنجليزي عادي،

بغض النظر عن اللكنة الأجنبية في حديثه. ولكنه كان في موطنه نورديًّا أصيلًا، فكان متعمقًا في معرفته بالجزيرة، وكان يستمتع بموطنه بشغف رجل عاد من المنفى. وأصبح الرجل الذي كان لا يكاد ينطق ثرثارًا، كما لو كان يريد أن يعبر عن نفسه لنا ويدعنا نطلع على أسرار حياته. واعتاد أن يقص علينا الحكايات الشعبية كما لو كان يؤمن بصحتها؛ كيف أن الفقمات هي أرواح جنود الفرعون الذين غرقوا في البحر الأحمر، وطائر النمنمة الذي ينقر أركان المنازل كان فأرًا ولكن حوَّلته العفاريت بسحرها إلى طائر. كانت العفاريت هي الوباء المستشري الرئيسي في نورلاند، ومن بعدها الجنيات وعرائس البحر. كانت هذه الكائنات من شعب هولدا، وهولدا شيطانة من نوعٍ ما، وكانت على استعداد دائم لتسبب المتاعب لبني البشر. فكانت هذه الكائنات تُغرق المراكب، وتعذب الماشية، وتمص دماء الحملان الصغيرة، حتى إنها كانت تختطف الفتيات الصغيرات، وكان يدير عينيه لينظر إلى أنَّا بقلق وهو يقول ذلك.

كان ملمًّا بتاريخ الجزر، بدايةً من حكاية تروند من جايت القديمة الشهيرة، والتي تُعد من الملاحم النوردية، إلى الأيام اللاحقة لغزو القراصنة الجزائريين لسواحل الجزر وإجبار سكانها على صعود التلال والاختباء في الكهوف البحرية. فهمت المغزى من هذه الأحاديث بمرور الوقت. كان يذكر نفسه — ويذكرنا كذلك — بأن حياة النورديين لطالما كانت محفوفة بالمخاطر، وأن ما يتوقع حدوثه في المستقبل القريب هو نفسه ما اضطرَّ أبناء جلدته إلى مواجهته في الماضي. وكان من الجلي أن اتباعه التقاليد الأزلية هو سلواه. لم يكن أيٌّ من شكوكي يراوده، فكان يؤمن بأنه من المؤكد أن نرى ما قُدر لنا مثلما أنه من المؤكد أن تشرق الشمس غدًا.

كان هارالدسن على النقيض تمامًا مما كان عليه في ليفرلو، فقد عادت أعصابه لتثور، ولكن بطريقة مختلفة. فقد أصبح حديثه مفعمًا بالحيوية، وراقيًا، ومنمقًا، وكان يتحدث عادةً كما لو كان شخصيةً من شخصيات رواية، كما لو أن الكلمات لم تكن كلماته. كانت ثمة أوقاتٌ يبدو فيها كما لو كان «ممسوسًا»، كانت عيناه تدوران في محجريهما، وصوته يصبح أجش ومتحشرجًا، وتصبح لغته أقرب إلى لغة أحد أنبياء بني إسرائيل. كان هذا يحدُث عادةً عندما يقص علينا إحدى الحكايات الملحمية، وكان يفعل ذلك بحماسة مفرطة كما لو كان يقص علينا تجاربه الشخصية. ثمة أمر واحد غريب لاحظته، وهو أنه كان دائم الحديث عن النار، كما لو أن النار هي قَدَر النورديين. في هذا المكان الرطب الملحي، لا أعتقد أن النار تُعَد عنصرًا خطيرًا، وقد يعتقد المرء أن الريح والأمواج هي

الأعداء الحقيقية. ولكن كانت القصص دائمًا ما تقول إن النار هي ما ساعدت عائلته على تحقيق النصر، وبواسطة النار يهلك تعساء الحظ. والنار هي التي استخدمها شعب هولدا لارتكاب أكثر أفعالهم شرًّا. والنار التي توجد في مؤخرة رأسه بطريقة ما، هي ما أكثر ما يخشاه على نفسه وأحبائه. فكان يقول: «ثم جاءت النار»، كما لو أن هذه هي الخاتمة الطبيعية لكل شيء.

كانت أنَّا وبيتر جون الشخصين الوحيدين السعيدين. فقد انتهى الجفاء القديم بينهما وأصبحا مثل الأخ وأخته. كانت أنَّا سيدة الجزيرة، وحظيت بضيف يستحق أن تقدم له كنوزها، وكان أمام الصبي عالم كامل ينتظره لكي يستكشفه؛ ومن ثَم كان متحمسًا جدًّا. كان قسم كبير من الجزيرة شبيهًا باسكتلندا، باستثناء أن العشب كان ضعيفًا. وكانت ثمة مراعٍ مزهرة مبهجة بجوار الجداول تمامًا كتلك الموجودة في مروج إنجلترا. لم أرَ في حياتي ازدهارًا أفضل للنعناع وإكليل المروج، واللُّخنيس وإبرة الراعي، وكانت أزهار السوسن وأذريون الماء منتشرة في كل مكان على مرمى البصر، والمنحدرات الجافة مزدانة بأزهار اليعقوبية بمختلف ألوانها. كان الكلأ في أغلبه من أعواد البرسيم الطويلة. ونما عرق إنجبار على التلال بوفرةٍ لم أرها في أي مكانٍ آخر، وكان النساء المسنات يطحنَّ جذوره في الرَّحى كبديل لنبات الجُنجل. كان أغلب الطيور مألوفة، ولكنها كانت متوفرة بأعداد هائلة — طيور الجيلموت وأبو موس، وطيور ببغاء البحر الوديعة مثل العصافير، وطيور الأخرق الآتية من مستعمرة تقع على الجروف الغربية. الطيور السابقة هي الطيور البحرية، أما بالنسبة إلى الطيور البرية، فقد كانت الجزيرة تضم جميع أنواع الطيور الأرضية التي يعرفها بيتر جون فيما عدا طيور الطيهوج. لم تكن هناك صقور، فيما عدا صقرًا أيسلنديًّا واحدًا لمحناه سريعًا وهو يحلِّق فوق القناة. كان بيتر يطلق موراج كثيرًا لتصطاد، واصطادت لنا طيور الشنقب والكروان لنأكلها، وكادت تقتل إحدى تلك القطط الأيسلندية الزرقاء الصغيرة أمام باب أحد الأكواخ.

أعتقد أني ذكرت سابقًا أن ابني ليس فارسًا، ولكن أجبرَته أنَّا على أن يحصل لنفسه على أحد الأحصنة النوردية القزمة، وكانا يطوفان أنحاء الجزيرة معًا. ولكن كان أكثر ما يشغفان به هو البحر الذي كان بالأمر الجديد بالنسبة إلى بيتر الذي نشأ بعيدًا عنه. خلال الجو الصحو الدافئ، كانا يقضيان ساعات طوالًا إما في السباحة وإما في الإبحار. كان بيتر سبَّاحًا جيدًا، أما أنَّا فكانت مذهلة، كان أرناسون العجوز يمزح قائلًا إن ثمة غشاءً

بين أصابع قدميها، وأنها سليلة الفقمات، ولكنها كانت تدحض أقواله بعرض قدميها الجميلتين.

لم يكن ثمة تنوعٌ في المراكب على الجزيرة، فقط القارب السريع الذي كان يعتني به جيكوب جريجارسن، والذي لم يكن يُستخدم إلا في الرحلات الطارئة إلى يالمارزهافن لإحضار المؤن والرحلة الأسبوعية الوحيدة لإحضار البريد، بالإضافة إلى قاربٍ نوردي عتيق أو اثنين، وكانا عبارة عن قاربين مدبَّبَي الطرفين، ذوَي قائمين خلفيين مرتفعين، يبلغ طول كل منهما عشرين قدمًا وعريضَين جدًّا عند الوسط. وكان ثمة عدد ضئيل من قوارب الكاياك في المنازل، من نوعية قوارب الإسكيمو التي تشبه زوارق روب روي الطويلة، وكانت تلك القوارب تُجَر إلى البحر وتُطلَق لتكون وسيلة الترفيه الرئيسية للأطفال. كانت أنَّا بارعة في الإبحار بقاربها، وكانت تقلبه مثل السلحفاة ثم تعيده إلى وضعه الطبيعي، وكان بيتر جون تلميذها النبيه. كان الاثنان — وهما يتسابقان في الخليج ويبحران لمسافة بعيدة في القناة — يشبهان زوجًا من البط الغطاس. كنا نواجه صعوبة كبيرة في إرجاعهما إلى المنزل لتناول الطعام، فقد كانت تلك الأيام طويلة النهار تغريهما بقضاء وقت أطول في الخارج، ولم يكن أيٌّ منهما يحمل ساعةً، فكانا يتجولان حتى منتصف الليل ويعتقدان أنهما عادا إلى المنزل في موعد العشاء. كانت أنَّا تأمل في وصول قطيع من الحيتان وأن يتجمع جميع سكان نورلاند لصيدها. لم ترَ حوتًا في حياتها إلا مرةً واحدةً، ولكنه لم يفارق مخيلتها. كان حوتًا صغيرًا من فصيلة الحوت الطيار — يطلقون عليه في اسكتلندا اسم «حوت كايين» — وسمعتها وهي تقص على بيتر جون الإثارة الجامحة التي شعرت بها خلال المطاردة، ومخاطر صيد الحيتان الجمة. كانت تتحدث وكأنها فتاة صغيرة متعطشة للدماء من الفايكينج، وكانت مصرة على أنهما يجب أن ينضما لعملية الصيد في قاربَيهما وأن يشهدا عملية القتل بنفسَيهما. وصممت في ذهني أنهما لن يشاركا في مثل هذه المغامرة.

لم تكن أنَّا قلقة من شيء، فلم يخبرها هارالدسن بسبب عودته إلى جزيرته، وقطع بيتر جون عهدًا على نفسه بألا يخبرها بشيء. كان يعرف القصة برمتها بالطبع، وبما أنه كان دائم التنقل في الجزيرة، نبهتُه ألا يغفل عن أي شيء قد يثير الشكوك. كان يحمل منظاره المكبر معه طوال الوقت، وكنت واثقًا من عدم دخول أي أحد إلى الجزيرة من دون أن يلاحظه. كان من الجيد امتلاك مثل هذا المُستَطلِع، فقد كانت الجزيرة برمتها غير مأهولة في هذه الفترة، فيما عدا المنزل والقرية. وكان يرى جليًّا أني قلق، وبذل أقصى

ما في وسعه لينفذ تعليماتي بحذافيرها. لم يكن ثمة شيء يبلغني به في اليوم الأول من الطقس الجيد. وفي اليوم الثاني أخبرني بأنه اكتشف دلالات على زيارة من مركب تعمل بالجازولين في الخليج الذي يقع على الجانب الآخر من الجزيرة. وعندما أخبرت هارالدسن بذلك، لم يهتم. وقال: «ترسو بعض مراكب الصيد على الجزيرة طلبًا للماء، والكثير منها تحمل قوارب ذات محركات خارجية.»

ولكن في اليوم الثالث، جاءني الصبي تعلو وجهه أمارات القلق الشديد.

وقال: «يقول جريجارسن إن القارب السريع مُعطل. ثمة خطبٌ ما في المحرك؛ شيء سيئ، وسيحتاج إلى إحضار رجلٍ من يالمارزهافن لإصلاحه.»

قلت بانزعاج: «كيف حدث ذلك بحق السماء؟» فقد كان القارب السريع هو وسيلة انتقالنا الوحيدة إلى العالم خارج هذه الجزيرة. ثم استطردت: «إنه لم يخرج به من الجزيرة.»

«إنه يعتقد أن شيئًا أصابه في الليل. ويقول إن بعض الحمقى كانوا يعبثون به.»

توجهت إلى المرفأ وألقيت نظرة على القارب. بدا واضحًا أن ثمة ضررًا شديدًا قد وقع. لقد اختفت شمعة الإشعال، وقُطع أنبوب التغذية الرئيسي. كان جريجارسن رجلًا مسنًّا أحمق، أصيبت ساقه بالعرج أثناء رحلة صيد في جرينلاند، وكانت معلوماته الميكانيكية تقتصر على الأساسيات فقط.

سألته: «كيف حدث هذا؟» فقد كان يتحدث نوعًا من الإنجليزية الأمريكية تعلَّمها عندما كان يعمل مساعدًا على متن إحدى السفن الجوالة من بوسطن. استأنفت: «هل تسير أثناء نومك؟»

هز رأسه نفيًا. وقال واجمًا: «شعب هولدا.»

أقلقتني هذه الحادثة كثيرًا؛ فالضرر حدث على يد شخص ما يملك الأدوات اللازمة لتحقيق هذه الغاية. لم يكن بيدنا فعل شيء سوى الاتصال بورشة صغيرة لإصلاح السفن في يالمارزهافن لنطلب منهم إرسال رجل لإصلاح القارب. ولكني لم أفعل ذلك على الفور؛ إذ كنت على موعد مع هارالدسن لنتمشى حتى الطرف الشمالي من الجزيرة، فأجلت الأمر حتى نعود عند موعد الغداء.

لم أستمتع بتلك التمشية، فقد ظللت أفكر متحيرًا في أمر القارب السريع، ولم أتمكن من التخلص من فكرة أن ثمة شيئًا بدأ يقض سلام الجزيرة. لم أتمكن من فهم ما حدث، فيما عدا فرضية أن جريجارسن كان سكران، أو أصيب بجنون مؤقت ونسي ما فعل. كان

الأمر مزعجًا جدًّا، ففي اليوم التالي، كان من المفترض أن نرسل القارب إلى ياالمارزهافن لإحضار الخطابات، وكنت أتوق إلى سماع أخبار من ساندي. شعرت كأني جندي قابع في أرض معركة محتملة دون وجود القائد المسئول. لم يُسَرِّ عني حديث هارالدسن شيئًا. كان أشبه بعرافة غامضة، وجاء رده الوحيد على شكواي: «لا مناص من أن ترى عيناك قدرَك.» كذلك بدأ الطقس يتغير. بحلول منتصف النهار، اكفهرَّت السماء الزرقاء، وبدت كأنها اقتربت من الأرض فجأة. واختفت معالم تلال جزيرة هالدر التي كانت واضحة، وتحوَّلت مياه القناة من مياه متلألئة متألقة إلى مياه معتمة عَكِرة. وكان كل ما قاله هارالدسن عن الموضوع هو: «ران يُحْمِي أفرانه»، ولم يهدئني أن أعرف أن ران هو إله البحر.

اتصلت بعد الغداء مباشرة بجزيرة ياالمارزهافن، ولكن الاتصال لم يكتمل. لم يكن ثمة أي خطب بالهاتف داخل المنزل، وربما كانت المشكلة في الطرف الآخر، إلا أن حادثة القارب السريع ملأت نفسي بالشكوك، فخرجت وحدي في عصر ذلك اليوم لأتتبع خط الهاتف. امتد خط الهاتف على أعمدة قصيرة تمر بجوار مؤخرة الحديقة ثم يهبط إلى شق في الأرض يمتد إلى الشاطئ على مسافةٍ تقِل عن ربع ميل من القرية. كان خط الهاتف يبدو سليمًا حتى حافة المياه. ثم تلقيت صدمة كبيرة. كان خط الهاتف يمتد داخل البحر في غلاف نحاسي يخرج من رصيف خرساني صغير. وعند هذه النقطة، بدا شكل الكابل غريبًا، فمرَّرت يدي عليه. ورفعته فوجدته مقطوعًا بعناية.

كان هذا كفيلًا بأن يؤكد شكوكي. كان الضباب يزداد كثافةً. عندما كنت أسير مع هارالدسن، كنت أستطيع رؤية الجانب الآخر من القناة ورؤية السفينة تشالدار تقف ساكنةً في مرفئها الصغير بعد عودتها من جولاتها التي تقوم بها. ولكن أصبحت معالم هالدر مطموسة تمامًا الآن، ولم أكن أستطيع الرؤية داخل البحر إلا لبضع مئات من الياردات فقط. شعرت كما لو أننا قد حُبِسنا في عالم بشع حيث يمكن حدوث أي شيء. حُبِسنا نحن وأعداؤنا، فقد كنت واثقًا تمامًا من أنهم أصبحوا قريبين. لقد قطعوا اتصالنا بالعالم الخارجي، وأصبحنا تحت رحمتهم؛ ثلاثة رجال، وطفلان، وبضعة مسنين. لم أحاول التفكير في المكان الذي أتوا منه أو كيف وصلوا. شعرتُ بوجودهم وسط الضباب من حولي، شعب هولدا الذين يملكون طرقًا خاصة بهم للتنقل في البر والبحر.

عدوت عائدًا إلى المنزل شاعرًا بشيءٍ أقرب إلى الذعر. كان لومبارد وهارالدسن قد خرجا للتريُّض، ولكي أشغل نفسي بشيءٍ ما، فحصت ما نملك من أسلحة بعناية. كان

بحوزتنا نصف دزينة من البنادق، وأربع بنادق صيد، وكمٌّ وفير من الذخيرة. وكان ثمة عدد من المسدسات يساوي عددنا، بالإضافة إلى مسدس إضافي جهزته من أجل بيتر جون.

عندما برزت صورته في ذهني، تحول كامل قلقي ناحية الصغار. إذا ما وصل الأشرار إلى الجزيرة بالفعل، فسوف يقعون تحت رحمتهم. عاد هارالدسن ولومبارد في موعد الشاي، ولكن لم تعد أنَّا أو بيتر جون. عندما سمع هارالدسن قصتي، خرج من حالة الحالم النوردي وأصبح الوالد الشارد. زاد الضباب كثافةً، وسنكون أثناء بحثنا عنهما كالعميان، ولكننا جمعنا طاقم الحديقة وجريجارسن، وانطلقنا في اتجاهات شتَّى.

حل موعد العشاء دون أن يظهر الصغيران. ظللنا نبحث في أنحاء الجزيرة متعثرين وسط تلك العتمة الضبابية التي تميز ليل الشمال. وحلَّ منتصف الليل ونحن لا نزال نبحث. وحتى ساعات الصباح الأولى، لم يظهر لهما أثر.

الفصل الثالث عشر

علماء الأحياء البحرية

انطلقَتْ أنَّا وبيتر جون في ذلك الصباح والشطائر في جيوبهما لقضاء اليوم خارج المنزل لاستكشاف الخلجان عند الطرف الجنوبي من الجزيرة في قاربيهما. تناولا غداءهما على جزيرة صغيرة برزت من تحت سطح البحر للتو بعد انحسار المد عنها، والتي رأيا بحماقة أنهما سيرتاحان فيها. كان البحر هادئًا، والضباب يهبط تدريجيًّا، ولكن تشمَّمَت أنَّا الهواء وقالت إن هذا إلا تعتيم صيفي سينزاح قبل حلول المساء. ثم اقترحت مغامرة. كانت السفينة تشالدار قد عادت إلى مكان رسوِّها عند جزيرة هالدر، وسمعا عبر القناة صوت إنزال مرساتها.

قالت أنَّا: «ما رأيك في أن نزورها. ربما يدعوننا لتناول الشاي. إن علماء الأحياء البحرية لطفاء. تناولت معهم الشاي ذات مرة عندما كانت السفينة مو القديمة هنا.»

اعترض بيتر جون على اقتراحها. لم يكن ثمة حظر مفروض على عبورهما القناة، ولكن راوده شعور غامض بأن الرحلة ستُعَد تخطِّيًا للحدود.

ردت أنَّا سريعًا: «لا يهم. ليس ممنوعًا علينا أن نذهب. هذا بالإضافة إلى أنهم لن يرونا من مكانهم على الشاطئ في هذا الجو الضبابي. وسنعود قبل موعد العشاء بفترة طويلة. الرياح ليست قوية، وستكون الرحلة آمنة كما لو أننا نعبر خليجًا. ليس من المرجح أن تتوفر لنا مثل هذه الفرصة مجددًا.»

قال بيتر جون شيئًا عن التيارات البحرية، ولكن أنَّا ضحكت ساخرة منه. وقالت: «ثمة أمواج متلاطمة على بعد ميلين شمالًا، ولكن لا يوجد هنا ما يدعو للقلق. لقد استخدمت قاربي في عبور القناة أكثر من مرة. أنت عديم الخبرة بالبحر، أما أنا فمتمرسة فيه، وعليك أن تصدق ما أقول. أنا أصدق ما تقول عندما يتعلق الأمر بالطيور.»

رأى بيتر جون أنها محقة. إن الصغار يحترمون بعضهم خبرات بعض كثيرًا، وأبدت أنَّا معرفة مذهلة بالقوارب والمد والجزر وعالم الملاحة برمته. ثم أغارت على تردده بحجة أخرى. «قد يرسلنا أبي لعبور القناة في أي وقت أراد، ولكننا سنعبرها مع جريجارسن على متن القارب السريع، ولن يكون الأمر ممتعًا، أو على متن القارب الطويل البطيء كبقرة. أما على متن قوارب الكاياك الصغيرة السهلة القيادة هذه، فسننساب على سطح الماء بسرعة كبيرة. وإذا أردت، فسأمنحك أفضلية لتسبقني بخمس دقائق قبل أن أسابقك.»

لا يمكن لصبي أن يقاوم «تحدِّيًا»، فقبل بيتر جون التحدي، وركبا قاربيهما واتجها نحو جزيرة هالدر، وكانت موراج تجلس مكتئبة على ركبة صاحبها.

زاد الضباب كثافةً، ولكنه كان أشبه بستار من الحرير، بدت جزيرة هالدر من خلفه كطيف. لم يتسابقا، ولكنهما انخرطا في حديث شيق، فكان القاربان يسيران شبه متلاصقين. كانت أنَّا تتحدث عن حملات صيد الحيتان التي وصفتها لبيتر جون بأنها أكثر ما يعتز به النورديون. لم تتذكر أنَّا وصول الحيتان الطيارة إلى جزيرة الخراف إلا مرةً واحدةً، فالحيتان عادةً ما تسلك القنوات الأوسع خلف جزيرة هالدر. ولكن ظلت هذه المرة الوحيدة مطبوعة في ذاكرتها رغم أنها كانت طفلة صغيرة حينئذٍ. روت كيفية إرسال الإشارات النارية عبر الجزر، باستخدام فنارات مبنية على جميع الرءوس البحرية، وكيف هرع كل الرجال الذين رأوا هذه الإشارات إلى قواربهم وأبحروا إلى مكان التجمع المحدد، وكيف أنه لا يمكن لأحد منهم ألا يهتدي لمكان التجمع، فقد كانت جميع المسارات البحرية مكتظة بالناس، كما أن الحيتان لا تأتي إلا في الأجواء الصحوة. ووصفت كيف وجهت القوارب قطيع الحيتان، كما توجِّه الكلاب قطعان الأغنام، قاطعة الطريق على أي حوت يحاول الفرار، وموجهةً قائد القطيع ببطء نحو أحد الخلجان. وبمجرد دخول قائد القطيع، تبعه الباقون، وتحوَّل الخليج إلى اللون الأبيض بسبب تكدُّس تلك الوحوش العمياء الهائجة. ثم بدأ القتل، الذي لم تشهده أنَّا، فقد أسرعت بها مربيتها بعيدًا عن المشهد، ولكنها تمكنت من وصفه كما سمعته من الآخرين، محولةً إياه إلى قصة وحشية. استمع إليها بيتر جون باهتمام، ثم تحول اهتمامه إلى امتعاض في النهاية.

قال: «هذه وحشية.»

قالت الفتاة: «ربما كان الأمر كذلك بالفعل، إلا أن الكثير من الأمور الجيدة وحشية في الأساس، مثل قتل الخنازير والصيد بالطعوم الحية. على أية حال، تضع هذه الوحشية المال في جيوب شعبنا الفقير، وتوفر لهم الطعام والإضاءة في الشتاء الطويل.»

«رغم كل ذلك، أشعر بالأسف تجاه الحيتان.»

ردت أنَّا قائلة: «لا تكن سخيفًا. إنك لا تشعر بالأسف على أسماك الحدوق والهلبوت والسلمون البحري. إن الأسماك من ذوات الدم البارد ولا تشعر.»

قال بيتر جون طالب التاريخ الطبيعي وقد فاض به الكيل: «الحيتان ليست أسماكًا.»

لم ينتبها أثناء حديثهما أنهما عبرا مياه القناة الهادئة واقتربا كثيرًا من جزيرة هالدر، فرفعا ناظريهما ورأيا السفينة تشالدار فوقهما. إن قوارب الكاياك لا تصدر صوتًا، وساعدهما الضباب على الاقتراب من السفينة دون أن يكتشفهما أحد. كانت السفينة راسية بكل أناقة وهدوء، وكان الدخان يتصاعد من مدخنة مطبخها على هيئة تيار حلزوني رفيع مصحوب برائحة طعام يسيل لها اللعاب. كان ثمة شخص يفرغ الرماد من غرفة الموقد.

قالت أنَّا: «يا للروعة! أشم رائحة شاي. فلنهلل لها. مرحى لكِ يا تشالدار!»

جذب صوتها وجه رجل أطل من فوق سور السفينة. كان رجلًا مُسِنًّا، أسمر البشرة، معقوف الأنف، بدينًا إلى حدٍّ ما. كان الرجل يرتدي قبعة بحارة وحلَّة صوفية، ولكنه لم يبدُ بحَّارًا. وبدت على وجهه أمارات الحيرة والمفاجأة.

همست أنَّا: «أعتقد أنه أحد العلماء الدنماركيين.» ثم رفعت صوتها.

وقالت: «أنتم علماء الأحياء البحرية، أليس كذلك؟ لقد أتينا لزيارتكم من جزيرة الخراف على الجانب الآخر من القناة.»

قالت أنَّا هذه الكلمات باللغة الدنماركية، ولكن بدا على وجه الرجل أنه لم يفهمها. ثم كررت ما قالته باللغة الإنجليزية، فبدا على الرجل الفهم.

وقال: «انتظرا. سأسأل أحدًا»، ثم اختفى.

عاد الرجل بعد دقيقة ومعه رجل آخر، رجل طويل القامة لوحت الشمس وجهه يرتدي معطف هاريس من الصوف الخشن ويضع غليونًا بين أسنانه.

سألهما الرجل الآخر: «من أين أتيتما أيها الصغيران؟»

«أنا الآنسة هارالدسن من جزيرة الخراف، وهذا صديقي بيتر جون. جئنا لزيارتكم. هل يمكننا الصعود إلى سطح السفينة؟»

قال الرجل ذو الغليون وهو يغمز لرفيقه: «بالطبع يمكنكما ذلك.» أُنزِل سلم الصعود لهما وربط الصغيران قاربيهما في سلمته الأخيرة، وبدآ يحاولان الخروج من القاربين بحرص. يتطلب الأمر بعض المهارة للخروج من قارب الكاياك.

عندما وصلا إلى سطح السفينة المزدحم، وجدا ثلاثة بحارة آخرين انضموا إلى المجموعة.

«انتظرا هنا للحظة يا عزيزيَّ»، قالها الرجل ذو الغليون وهو يتقدم نحو مقدمة السفينة ومعه بقية المجموعة تاركًا أنَّا وبيتر جون مع البحارة الثلاثة. لم يرَ الصبي سوى سطح سفينة قذر، على النقيض تمامًا من المراكب الأنيقة التي تخيلها. كانت ثمة مساحة خالية صغيرة على غير العادة، وما بدا وكأنه شبكة عملاقة، كانت ملقاة في إهمال على سارية قصيرة عند مؤخرة السفينة. كان المعاونون البحريون منشغلين عند جانب السفينة. ولكن أجالت الفتاة عينيها المتمرستين ورأت ما هو أكثر من ذلك.

ثم همست لبيتر جون قائلة: «هذا المكان غريب. لا أرتاح لما يحدث هنا يا بيتر جون. هؤلاء الرجال ليسوا طاقم بحارة في مركب صيد — أيديهم ليست متقرحة. إن بحارة مراكب الصيد دائمًا ما يتعرضون للسع والتسمم. كما أنهم ليسوا دنماركيين؛ على الأقل لا يبدون كدنماركيين. ماذا يفعلون بقاربينا؟»

«إنهم يرفعونهما على متن السفينة.»

ظهرت في صوت الفتاة فجأةً نبرة قلقة وهي تقول: «لماذا؟» «حسنًا، لا يعجبني ما يحدث … انظر إلى شبكة الصيد. هذا سخيف. إنها لا تحتوي على ألواح لفرد الشبكة … ثمة خطب ما في هذه السفينة. فلنطلب منهم أن يطلقوا القاربين مجددًا ونعود من حيث أتينا.»

قال بيتر جون: «لن يمكننا أن نفعل ذلك بطريقة مباشرة. أعتقد أنه يجدر بنا أن نفكر في الأمر مليًّا الآن … انتظري، حتى يعود هؤلاء الرجال على أية حال.» ولكن انتقلت عدوى تشكك أنَّا إليه، وظل يرمق القاربين الصغيرين بقلق وهما يتأرجحان حتى وصلا إلى سطح السفينة.

التفت بيتر جون نحو أنَّا عندما سمعها تطلق صرخة مكتومة. كانت ثمة امرأة تقترب منهما؛ امرأة ترتدي فستانًا من الصوف وتضع كابًا من الفرو على كتفيها. لم تكن ترتدي شيئًا على رأسها وكان شعرها الأحمر مذهلًا. حان الآن دون بيتر جون ليقلق بشأن القاربَين؛ فقد تعرَّف على شخص رآه من قبل، الآنسة لادلو الجميلة التي زارت فوسي منذ شهرين لتحضر حفل شاي.

ارتسمت ابتسامة على شفتَي المرأة الجميلة. وأبدت أنثى الصقر موراج تعبيرًا قويًّا عن عدم الرضا عندما رأت الآنسة لادلو. ولو لم يكن بيتر جون قد ربط رسنها بإحكام،

لاتخذت من شعر هذه المرأة الأحمر ذي التسريحة الأنيقة مجثمًا لتحط عليه وتعبث به كما يحلو لها.

قالت المرأة: «يا له من طائر شرير! أرجو أن تكون قادرًا على السيطرة عليه … لطفٌ منكما أن تأتيا لزيارتنا! لا بد أنكما تتوقان لتناول بعض الشاي. تعاليا يا عزيزَيَّ، ولكني أعتقد أنه من الأفضل أن تتركا هذا الطائر هنا.»

رُبط رسن موراج إلى أحد الأعمدة، وتُركت فوق سطح السفينة وهي ترفرف بجناحيها في نوبة هياج قوية. تبع الصغيران السيدة إلى داخل غرفة على سطح السفينة يُستخدَم جزء منها باعتباره غرفة خرائط والجزء الآخر باعتباره غرفة ركاب. كانت الغرفة صغيرة ومريحة، وكان الشاي موضوعًا على طاولة مكسوة بالمشمع، إلى جانب وليمة عامرة اشتهتها نفساهما. كان يجلس في الغرفة ثلاثة رجال، الرجل الأسمر الشاحب الذي كان أول من تحدَّثا إليه، والرجل ذو الغليون الذي لوحت وجهه الشمس، ورجل طويل القامة نحيل ذو وجه رفيع ووجنتين بارزتين وشارب بدأ الشيب يغزو طرفيه. نهض الرجال الثلاثة في أدب عندما دخلوا الغرفة وانحنوا أمام أنَّا.

قالت المرأة: «ها هما زائرانا، أنا على يقين من أنهما جائعان. لقد حضرا من الجزيرة. إن الضباب يزداد كثافةً، ولا أعتقد أنه يجدر بنا تركهما يرحلان حتى ينقشع. ما رأيك يا جو؟»

قال الرجل الطويل القامة: «قد يتعرضان للخطر. علينا أن ننتظر عودة القبطان على أية حال. سيعود على متن القارب في غضون ساعةٍ أو نحوها.»

دخل خادم يحمل الماء الساخن وطبقًا كبيرًا مليئًا بالكعك المحمص. أعدت السيدة الشاي دون أن تتوقف عن الثرثرة. كانت تدعو الرجل الشاحب باسم إيريك والرجل الذي لوحته الشمس باسم لانسي، إلا أن أغلب حديثها كان موجهًا للرجل الطويل القامة المدعو جو. تحدثت عن الطقس ونورلاندز ولندن والماشية والسفن والبحر. كان واضحًا تمامًا أن هؤلاء الأشخاص إنجليزيون، ولا شأن لهم بالأحياء البحرية، وأطلت الحيرة بوضوح من عينَي أنَّا.

جاء حديث الرجل الطويل القامة في صورة سؤال عن جزيرة الخراف. كان مهذبًا، ولم يبدُ عليه الفضول المبالغ فيه، ولكن بدا جليًّا على وجوه الآخرين أن هذا الموضوع مهم بالنسبة إليهم. كانوا يثرثرون كثيرًا مثلما قد يفعل طاقم يختٍ جنح إلى أراضٍ غريبة ووصلتهم فجأة أخبار عن أشخاص آخرين من بلدهم نفسه.

سأل الرجل الذي يُدعَى لانسي: «هل والدك في المنزل؟ إنه يملك منزلًا رائعًا على الجزيرة، أليس كذلك؟ لقد سمعنا عنه في جزيرة يالمارزهافن. هل أنتما شقيقان؟»

«لا، لسنا كذلك. هذا صديقي بيتر جون هاناي. إنه إنجليزي. وهو يقيم معنا.»

اتسعت أربعة أزواج من الأعين.

وسأل الرجل المدعو جو بحماسة مفاجئة في صوته: «هل يُصادف أنك ابن السير ريتشارد هاناي؟»

أومأ بيتر جون برأسه أن نعم. وأضافت أنًّا: «نعم، والسير ريتشارد مقيم معنا أيضًا.»

قالت المرأة: «لا بد أن نرد لكما الزيارة. لطالما رغبت في لقاء السير ريتشارد، ووالدك أيضًا يا عزيزتي.»

كانت الأفكار تدور في ذهن بيتر جون بسرعة منذ أن فتحت رؤية الآنسة لادلو أمامه بابًا يؤدي إلى عالمٍ مظلم. كانت الحيرة تبدو على وجه أنًّا، ولكن فقط بسبب أن السفينة تشالدار كانت مختلفة عن السفينة مو القديمة، وكان عليها أن تراجع معلوماتها عن علم الأحياء البحرية، ولكن على الجانب الآخر، أدرك الفتى أنهما عثرا على معسكر الأعداء مصادفةً. كان قد سمع ما قاله ساندي، وأخبرته أنا أيضًا بالقصة كاملة، ومنذ وصوله إلى جزيرة الخراف ومهمته الرئيسية هي المراقبة. فخلف كل مغامراته مع أنًّا، كانت هذه المهمة هي شغله الشاغل. أعادته رؤية ليديا لادلو إلى رشده، وأصبح في مواجهة أعداء هارالدسن في تلك الغرفة الصغيرة، ألبينوس الشاحب، وتروث قوي البنية، وبارالتي النحيل المتوتر. كانت المجموعة تنقص واحدًا فقط، وكان أشدهم قوةً. كان عليه أن يفر وأنًّا، مهما كلَّفهما الأمر، ليوصلا لذويهما هذه الأخبار الكارثية.

قال بيتر جون وهو ينهض واقفًا: «يجدر بنا أن ننصرف وإلا سيقلق ذوونا علينا.»

قال بارالتي: «لا يمكنكما أن تنصرفا في مثل هذا الطقس السيئ.» نهض بارالتي أيضًا وفتح باب الغرفة، كان ثمة جدار سميك من الضباب يقف منتصبًا وراء جانب السفينة.

قال بيتر جون: «معي بوصلة، ولا يمكننا أن نضل طريقنا.»

قال الرجل: «لا يجدر بنا أن نخاطر. لن نجرؤ على مواجهة والدك إذا ما ألمَّ بك خطب ما.»

قال تروث: «علينا أن ننتظر حتى يعود القبطان»، ووافق الباقون على كلامه.

بدأ بيتر جون يشعر باليأس. فقال: «نحن متسخان. هل يمكننا أن نغسل أيدينا؟».

قالت المرأة: «بالطبع. تعاليا إلى غرفتي في الأسفل، كلاكما.» بدا لبيتر جون أنها تنظر إلى الآخرين نظرةً ذات مغزى وأنها تومئ برأسها إيماءة خفيفة. ثم أمسكت بيد أنَّا وقادتها إلى خارج الغرفة، وتبعهما الصبي. تلكأ بيتر جون قليلًا، وسمع، أو خُيِّل إليه أنه سمع، أحد الرجال الثلاثة يقول متعجبًا: «يا إلهي، لقد حصلنا على الورقة الرابحة الآن. إن هذا يصب في صالح خطة القبطان.»

صحبتهما الآنسة لادلو عبر سلم شديد الانحدار يؤدي إلى ممر ضيق تصطف الغرف على جانبيه. كانت الغرفة الكبيرة في نهايته هي غرفتها، وأشارت للصغيرين بدخولها بطريقة ملؤها الود. قالت: «ستجدان كل ما تحتاجان إليه يا عزيزيَّ. المناشف والمياه الساخنة. الحمام بجوار الغرفة. سأعود لكما بعد قليل لأصطحبكما لأعلى ثانية.»

ولكن بعدما تركتهما، سحبت خلفها بابًا جرارًا في نهاية الممر. انطلق بيتر جون خلفها وحاول فتح الباب. كان الباب محكم الإغلاق من الخارج.

ذهبت أنَّا لغسل يديها واستخدمت مشط جيب لتصفيف شعرها. ثم قالت: «هذه السفينة غريبة، وهؤلاء الأشخاص غريبو الأطوار. ولكني أراهم عطوفين. إنهم طاقم يخت عادي، ولكن السفينة تشالدار لا تشبه اليخوت. إن ملابسهم الأنيقة لا تناسب مركب صيد متسخة.»

كان بيتر جون ينظر عبر كوة الغرفة إلى جدار الضباب. وقال: «إنهم ليسوا عطوفين. إنهم أعداؤنا ... أعداء والدك ووالدي. إنهم نفس الأشخاص الذين حاولوا الإمساك بك في المدرسة. وهم أنفسهم مَن ظللنا نتخذ الحيطة والحذر منهم في ليفرلو. يجب أن أخبرك بكل ما أعرف، فقد وقعنا في فخ لا فرار منه.»

وفي تلك الغرفة المعتمة، أخبرها بيتر جون بالقصة كما حُكِيَت له، وأخبرها بأمور كثيرة أخفاها عنها هارالدسن خوفًا عليها، وأعطى معنًى وهيئةً للشكوك التي ظلت كامنة في رأسها لفترة طويلة. ربما قصَّ الصبي القصة دون تجميلها، وربما تخللتها نزعة الصبيان إلى إضفاء نزعة درامية على الأمور، ولكن بيتر جون كان واقعيًّا ولم يكن ليخطئ في سرد النقاط الرئيسية. جلست أنَّا صامتةً تستمع إلى القصة مثل فأر، ولكنها أطلقت صيحة خافتة في نهايتها.

وقالت: «هل سيهاجمون جزيرتنا؟ وهل سرنا نحو أَسْرنا بقدمَينا؟ يا إلهي، بيتر جون، أنا المذنبة! أنا من جررتك إلى هذه المغامرة السخيفة.»

قال بيتر جون: «بل أنا المذنب، فقد كان يجدر بي أن أتذكر. كنت أعلم ما يحدث، أما أنتِ فلا تعلمين شيئًا.»

تعلق الصغيران البائسان أحدهما بالآخر بينما يزداد الضباب كثافةً خارج الغرفة وتزداد العتمة داخلها.

في الوقت نفسه، في الغرفة التي غادراها على سطح السفينة، انعقد نِقاش محموم. بفضل ما عرفته فيما بعد، يمكنني أن أقص ما حدث كما لو كنت واقفًا خارج باب الغرفة أتنصت. كان من المفترض أن يعود الرجل المدعو القبطان بعد ساعة، وكان يجب على الرجال الثلاثة والمرأة أن يتحدثوا في الكثير من الأمور قبل عودته. يمكنني تخيل حديثهم السريع المرتبك، وتبدل حالهم بين الإقدام والتراجع، وانهيار ثقتهم المفاجئ بسبب مخاوفهم المفاجئة. لا بد أن شبح الخوف هذا كان يخيم عليهم طوال الوقت. فذلك القبطان الغائب لم يعد يمثل رفيقًا بالنسبة إليهم، بل أصبح سيدًا. كانوا أشخاصًا يمتلكون خططًا لا تخرج عن نطاق الحضارة. وكانوا يتمتعون بسمعة يخشون ضياعها، وطموحات تتطلب بعض الاحترام للأعراف، وحيوات مريحة ليسوا على استعداد للتضحية بها. ولكنهم أصبحوا تابعين لرجل لا يهتم لأيٍّ من هذه الأمور، رجل من أرض أجنبية تخلى عن عالمهم منذ أمد بعيد. كانوا أشبه بصبية مدارس يلعبون لعبة القراصنة ويجدون أنفسهم فجأة ضمن رجال قرصان «اللحية السوداء» الحقيقي. أعتقد أن بارالتي كان أشدهم خوفًا. أما ألبينوس، فكان معتادًا على الإجرام ويعرف الجانب المظلم من القانون بالفعل. كان تروث رجلًا صلبًا، رياضيًّا معتادًا على المخاطرة ولم يكن من السهل إرهابه حتى يرى أبعاد المشكلة كاملة. ولكن، كان بارالتي المفكر الهش الذي وجد نفسه في عالم حيث لا فائدة تُرجى من مهارته القديمة، وكانت شريكته برفقته، المرأة التي أصبحت ترى الآن جميع خططهما الحريصة على وشك الانهيار، وليس هذا فحسب بل ستنهار على نحو كارثي.

لا بد أن تروث هو من تحدث أولًا، فقد كان أكثرهم قدرةً على تمالك نفسه.

قال: «الأمور تصب في صالحنا. لقد ابتسم الحظ لنا وحصلنا على رهائننا. والآن، يمكننا أن نتفاوض.»

قال بارالتي بصوتٍ حاول أن يحافظ على هدوء نبرته: «هل تعتقد ذلك؟»

«نعم، لقد أمسكنا بالفتاة، وهي أكثر ما يهم هارالدسن في هذا العالم. كما أمسكنا بالصبي، وهو قرة عين هاناي. لم يتبقَّ إلا لومبارد، وهو ليس ذا قيمة كبيرة. ولا توجد أخبار عن كلانرويدن.»

«ماذا حدث لكلانرويدن؟»

«الله وحده يعلم! ربما هرب … لا، إنه ليس من ذلك النوع من الرجال. ربما وضع القبطان عقبة في طريقه، فهو داهية ويمكنه فعل أي شيء.»

«هل عرفت شيئًا عن خطة القبطان؟»

«إنها واضحة كالشمس. قرصنة عتيقة الطراز. سيهبط على الجزيرة مثل أحد غزاة الفايكنج لينهبهم. وإذا ما أبدوا أي مقاومة، ومن المرجح أن يفعلوا، فسيقتلهم. سيصل القبطان إلى ما يصبو إليه ولن يتورع عن إسالة بحر من الدماء ليفعل. وبعد أن يحصل على ما يريد، سيختفي وعصابته تمامًا، كما فعل من قبل. أعتقد أنه سيتعامل معنا بعدل — ربما — ولكن سيكون علينا أن نختفي معه. هل يتخيل أيٌّ منكم قضاء ما تبقَّى من حياته مطاردًا في أنحاء الكرة الأرضية، حتى وإن كانت جيوبه عامرةً بالمال؟ دينجرافيل لن يمانع ذلك، فهذه مهنته، ولكن ماذا عنك يا بارالتي؟ ماذا عنك وعن أفكارك الطموحة في العمل العام؟ وماذا عنك يا ليديا؟ إنك تحبين وسائل الراحة الخاصة بك. وماذا عنك يا إيريك؟ هل ستحتمل الحياة دون سباقات الخيول يا صديقي، ودون المزيد من المراهنات في مونت كارلو؟»

تأوَّه بارالتي وهو يقول: «يا إلهي! ألا يمكننا أن نقنع الرجل بأن يتعقل؟»

«لن يمكننا ذلك؛ فهو يرى ما يفعله عين العقل بالفعل. إنه يعي ما يريد بوضوح أكبر مما قد يفعل أيٌّ منا، كما أنه يملك القوة الكافية لتحقيق غايته. ما نحن إلا مجرد ركاب، أما هو فالقوة الدافعة. ماذا بيدنا أن نفعل لكي نوقفه؟ إنه محاط بهذين الشريرَين من أمريكا الجنوبية اللذين يثق بهما ثقة عمياء، كاريراس ومارتل، إن مجرد رؤيتهما تبث الخوف في نفسي. كما أن لديه طاقمًا من المسلحين. سيورطنا جميعًا في حرب العصابات تلك حتى يوحد مصيرنا مع مصيره.»

قال ألبينوس مزمجرًا: «ولكنه لن يستطيع إجبارنا إذا ما رفضنا المشاركة.»

«ألا يستطيع إجبارنا؟ أنا لم آخذ قياساته بالطبع، ولكنه أضخم الأشرار الذين رأيتهم في حياتي. أعلم ما يدور بخلدك يا إيريك. إنك تفكر في التوصل إلى اتفاق خاص بنا مع الأناس الذين على الجزيرة. لقد راودتني الفكرة نفسها، ولكني أؤكد لك أنها لن تنجح. إن القبطان بارع في هذه اللعبة جدًّا. وإذا ما حاولنا خيانته، فسيقتلنا رميًا بالرصاص.»

يمكنني تخيل هؤلاء المتآمرين الخائفين الأربعة جالسين في أماكنهم واجمين لبرهة من الوقت حتى يفيقوا على حماسة تروث المفاجئة.

حيث قال: «ولكن الأحوال تحسنت الآن. لقد حصلنا على العناصر اللازمة لعقد صفقة متحضرة. حمدًا لله على هذين الصغيرين المباركين! لا أحبِّذُ استخدام الصغار في مثل هذه الأمور، قد تتذكر أني لطالما عارضت هذه الفكرة من قبل، ولكن الضرورات تبيح المحظورات. وسيكون القبطان غبيًّا جدًّا إذا لم يستغل هذه الفرصة. هذه هي الدجاجة التي ستبيض لنا ذهبًا، في حين أن الطريقة الأخرى لن تكون سوى مقامرة في غير صالحنا.»

سأل باراتي: «ولكن، هل نريد كلنا الشيء نفسه؟ نحن نريد الكثير، ولكن القبطان يريد كل شيء. وتذكر أن هارالدسن ليس وحيدًا. فمعه هاناي، وهاناي رجل صلب جدًّا.»

قال تروث متجهمًا: «سيكون هذا هو الوقت المناسب لخيانة القبطان إذا ما تمادى في غبائه. بمجرد أن تتم الصفقة، نضع حدًّا لقرصنته الدموية، وهذا هو أكثر ما نرغب فيه.»

ثم وصل القبطان.

يمكنني تخيُّله عندما دخل إلى الغرفة الخانقة، وجهه لامع، وعيناه الشاحبتان نصف مفتوحتين بسبب الضوء المفاجئ الساقط عليهما.

قال القبطان وهو يُلقِي نظرة على جهاز الكرونومتر: «باقي ساعة حتى موعد العشاء. ثمة وقت كافٍ لتناول الرَّم والحليب الساخن، فقد كان البرد قارسًا على متن القارب. ولكن مهمتي نجحت. لقد تمت عملية الاستطلاع أيها السادة. غدًا هو اليوم الموعود.»

أخبره تروث بأمر أنَّا وبيتر جون. جلس دينجرافيل يستمع برأس مرفوع، كان أشبه بأَيلٍ يحدق في الأفق، وجعدت ابتسامة وجنتيه النحيلتين.

ثم قال: «لقد ابتسم القدر لنا. يمكننا الآن أن نضيف نقطة أخرى إلى النقطة التي أحرزها فريقنا سابقًا. فما نملك الآن يساعدنا على طلب المزيد؛ وأكثر بكثير مما كنا نطلب.»

ولكن كانت ثمة نبرة في صوته جعلت باراتي يرفع بصره نحوه في قلق.

وقال: «لا شك في أن هذه المستجدات ستغير خطتنا برمتها. يمكننا الآن أن نتفاوض، بينما كنا سابقًا غير قادرين إلا على الغصب.»

«لا أعتقد ذلك يا صديقي.» قالها دينجرافيل باستخفاف كما لو أن الأمر برمته ليس مهمًّا. ثم استطرد: «إنهم لن يتفاوضوا معنا؛ على الأقل ليس بشروطنا. لا شك في أنكم تريدون الكثير من الثروة، ولكني أريدها كلها، وسيقاتل هؤلاء الرجال دفاعًا عن ثروتهم الكاملة.»

تلعثم بارالتي قائلًا: «ولكن ... ولكن ... هارالدسن يحب ابنته أكثر من أي شيء في الوجود، ويحب هاناي ابنه مثل ذلك.»

كانت إجابة دينجرافيل: «ربما. ولكن هارالدسن وهاناي ليسا كل من نواجههم.»

«لا دور للومبارد في الأمر.»

«لا أعني لومبارد. بل أعني اللورد كلانرويدن.»

«ولكن كلانرويدن ليس هناك.»

«ليس بعد. ولكنه سيصل غدًا.»

«كيف عرفت ذلك؟ هل وصلتك أي أخبار عنه؟»

«لم تصلني أي أخبار. ولم أعرف شيئًا عن كلانرويدن منذ غادرنا لندن. ولكني أعرف أنه سيصل إلى الجزيرة، فثمة موعد اتفقنا عليه، ولن يخذلني. كما أن كلانرويدن لن يستسلم أبدًا.»

سأله تروث: «ولكن ماذا تنوي أن تفعل يا رجل؟»

«أنوي أن أتبع الأسلوب القديم، أسلوب أسلافي النورمانديين. لقد خدمنا القدر. لا يوجد رجال على الجزيرة سوى هؤلاء الرجال الثلاثة ... وغدًا سيصبحون أربعة ... والباقون شيوخ وعجائز. قُطع خط الهاتف ولا يملكون قاربًا. أعتقد أن الضباب سينقشع في الصباح، ولكن ستغرق الجزيرة في ضباب أشد كثافة سيعزلها عن العالم. وسنفعل ما يحلو لنا دون معوقات أو عقبات. وإذا ما أذعنوا لمطالبنا، فهذا أفضل للجميع. أما إذا لجئوا إلى القتال، فسنقاتل، ولا شك في أننا سننتصر.»

غمغم بارالتي: «ننتصر! ماذا يعني النصر بالنسبة إليك؟»

أجابه دينجرافيل قائلًا: «كل شيء. سأحصل على غايتي حتى وإن خلفت ورائي بيتًا حولته إلى رماد وجزيرة لا يقطنها إلا الموتى.»

«وماذا بعد؟» كان صوت ليديا المتوتر هو مَن تحدث.

«بعد ذلك سنختفي، وسنخلف وراءنا لغزًا في نورلاندز لن ينجح أحد في حله. ثقوا بي، لقد خططت للأمر ... نيابةً عنكم يا أصدقائي، ونيابةً عنكِ يا سيدتي الجميلة. قد تحتاجون إلى إجراء بعض التعديلات على حيواتكم، ولكن ماذا في ذلك؟ الحركة هي الحياة.»

ثم رفع كأسه ونظر نحو ليديا، وشرب الرشفة الأخيرة منه كما لو كان يشرب نخبًا.

وقال: «والآن، اسمحوا لي بإلقاء نظرة على رهائننا.» ثم نادى شخصًا يقف خارج الباب صائحًا: «مارتل، أحضر الصغيرين.»

عاد بيتر جون يروي القصة مرة أخرى … جلس الصغيران وقد خيمت عليهما التعاسة والخوف، عاجزين عن التفكير، وقد صُمَّت أذناهما عن جميع الأصوات فيما عدا صوت دقات قلبيهما. كان الصبي يكرر على فترات قوله: «يجب أن نهرب»، وكانت الفتاة تجيبه قائلة: «نعم، يجب علينا ذلك»، ولكن الكلمات لم تكن سوى نوع من الأنين، فلم يكن لديهما أي أمل. لا أعلم فيمَ كانت أنَّا تفكر، ولكن كان عقل بيتر جون مليئًا بالخزي أكثر من الخوف. لقد فشل في المهمة التي أوكلت إليه، وأدى فشله هذا إلى منح العدو أفضلية هائلة.

لم يتمكنا من حساب الوقت، وربما مرت ساعة أو اثنتان قبل أن يُفتَح الباب الجرار في الممر ويظهر وجهٌ من خلف باب الغرفة. وأضاءت يدٌ المصباح. رأى الصغيران رجلًا يزيد طوله عن متوسط أطوال البشر بقليل يرتدي حذاء بحر طويل الرقبة وصديرية بحارة … رجل لا يبدو عليه أنه بحار، فقد كان ذا وجه نحيل حليق شاحب، وكانت ثمة ندبة على جبهته، وكان حاجباه يصنعان قوسين غريبين فوق عينيه الضعيفتين الدائمتَي الرمش. وعندما تحدث، سمعا لكنته الأجنبية تُنطَق بصوتٍ خافت مبحوح. قال الرجل: «تفضلا معي. السيد القبطان يريد التحدث إليكما.»

تسبب مرأى الرجل في إثارة نوبة من الخوف الشديد لدى بيتر جون الذي كان يعاني من تعاسة ثقيلة. فقد كان يعرفه … أو على الأقل سمع عنه. فقد أسهب ساندي، عندما كنا في ليفرلو، في وصف الرجلين اللذين أحضرهما دينجرافيل معه من الحرس الشخصي القديم لأوليفا. كان هذا هو البلجيكي مارتل؛ فقد كانت ندبته وحاجباه اللذين يشبهان حدوة الحصان سمات مميزة فيه. أمام باب غرفة السطح، كان يقف رجل آخر طويل القامة محني الظهر، وكان وجهه حاد القسمات وعيناه السوداوان الضيقتان واضحتين على الضوء الخافت المنبعث من الغرفة. لا شك في أن هذا هو الإسباني كاريراس. لقد اكتمل قطيع الذئاب.

قال الصبي لأنَّا هامسًا: «لا تجيبي على أيٍّ من أسئلتهم.» كان الصمت العنيد هو السبيل الوحيد الذي تبقى لهما.

ولكن لم يكن ثمة تحقيق. كان انطباع بيتر جون عن المجموعة أنهم قلقين. فقد اختفت المعاملة الدمثة التي تلقياها أثناء تناول الشاي، وبدا أن الأربعة الذين كانوا يرفهون عنهما حينئذٍ قد فقدوا اهتمامهم بالزائرين وأصبحوا أكثر انشغالًا بأفكارهم الخاصة. أصبحت المرأة الجميلة شاحبة وأكبر سنًّا مما كانت عليه سابقًا، وفقد تروث رباطة جأشه وظل يمتص الدخان من غليونه في عصبية. أصبح بارالتي أشبه بشبح،

وأصبح ألبينوس طيفًا خفيًّا. الوافد الجديد وحده هو من كان مفعمًا بالثقة والحيوية. نسي بيتر جون خوفه للحظات، ونظر بفضول إلى الرجل الطويل القامة الذي ساعد على إلقائه في الماء في فوسي. كان قوامه مشدودًا وقامته منتصبة يعطيك إيحاءً بأنه سيفٌ قد استُلَّ من غمده. كانت عيناه الفاتحتان تلمعان مثل الجليد، وكانت ابتسامته تحمل دفئًا في داخلها يماثل دفء شمس قطبية. كان مذهلًا ورائعًا وفظيعًا ووحشيًّا، وكأنه إحدى قوى الطبيعة المدمرة. ولكن الغريب في الأمر أن الصبيَّ شعر بخوف عند رؤيته في الواقع أقل من خوفه من الصورة التي رسمها في ذهنه. كان الرجل كائنًا بريًّا، مثل موراج، والكائنات البرية يمكن ترويضها أو كبح جماحها أو كسر شوكتها.

انحنى القبطان أمام أنَّا وأومأ بودٍّ لبيتر جون.

وقال: «لا بد أنكما ضيفانا اللذان سيقضيان الليلة معنا، للأسف. لسنا سفينة مؤهلة لاستقبال ركاب، وآمل ألا تمانعا أسرتنا الخشنة. لن يمر وقت طويل قبل أن ترغبا في النوم. هل تريدان تناول العشاء؟»

وجاء الرد من أنَّا: «لا نريد عشاءً، شكرًا لك. إننا نريد أن ننام، فنحن نشعر بالنعاس.»

«حسنًا. فلتصحب السيدة الصغيرة والسيد النبيل إلى مكانَي نومهما يا مارتل. ولتعطِ السيد هاناي غرفة في مقدمة السفينة، ويمكن للآنسة هارالدسن أن تنام على الأريكة في غرفة الآنسة لادلو. ليلة هانئة وأحلامًا سعيدة.»

كان هذا كل شيء. تبع الصغيران مارتل في نفس الطريق الذي أتيا منه، وتُركت أنَّا في الغرفة الكبيرة، حيث تم تحويل الأريكة بها إلى فراش. وفعل مارتل أمرًا متوقعًا، فقد أخذ مفتاح الغرفة من الباب من الداخل ووضعه في جيبه، ثم سحب الباب الجرار الذي أحكم إغلاق نفسه تلقائيًّا. كان لرؤية وجه أنَّا البائس وقعٌ شديد الثقل على نفس بيتر جون. وتبع مارتل على سطح السفينة شاعرًا بأن كل شيء قد انتهى.

سمع بيتر جون فجأة صيحةً غضبى من طائر أعادت إليه صوابه. إنها موراج جالسة على مجثمها جائعة ومبتلة بفعل الضباب ما جعلها في حالة عصبية جدًّا من العصبية.

فقال راجيًا: «هل يمكنني أخذ صقري معي؟»

ضحك مارتل. وقال: «أعتقد أنه يمكنك ذلك إذا كنت بحاجة إلى صحبة. من الأفضل أن يذهب طائرك القبيح معك إلى الغرفة أسفل السطح.»

وجد بيتر جون نفسه في غرفة صغيرة تقع أسفل مقدمة سطح السفينة. كانت الغرفة خالية إلا من سرير معلق بحبال في السقف، وكومة من البطاطين ألقاها شخص ما على الأرضية. كانت ثمة كوة كبيرة فحص مارتل بعناية مساميرها ومفصلاتها. وقال له مودِّعًا: «لا تَسِر وأنت نائم وتُغرق نفسك في البحر يا بُني.» لم يُحكِم مارتل إغلاق الكوة، بل تركها مواربة.

كان أول ما فعله بيتر جون عندما وجد نفسه بمفرده، أن فتح الكوة على اتساعها. كانت الكوة تطل على المرفأ في اتجاه الغرب، وقريبة من الموضع الذي صعدا منه إلى متن السفينة تشالدار عصر اليوم. كان الضباب ينقشع، وظهر البدر بعدما ظل لفترة طويلة سديمًا ذهبيًّا نصف منير. راودت الصبي فكرة الخروج من الكوة ومحاولة السباحة إلى الجزيرة، ولكنه نفض الفكرة عن رأسه بعدما فكر فيها مليًّا. فهو لم يكن سبَّاحًا ماهرًا، ومن المستحيل أن يقطع مسافة ميلين سباحةً في مياه نورلاندز الباردة تلك.

ثم منحته صرخةً أخرى من موراج فكرةً أخرى. لم يكن ثمة ضوءٌ في الغرفة سوى ذلك الضوء الآتي من القمر، ولكنه قطع ورقة من مفكرةٍ صغيرةٍ يحتفظ بها لتدوين ملاحظاته عن الطيور، ودون عليها رسالة. كتب في الرسالة: «نحن على متن السفينة تشالدار، وهي سفينة الأعداء. توقعوا هجومًا وشيكًا. لا تقلقوا بشأننا فنحن بخير.» لفَّ الصبي الورقة في قطعة من الحرير قطعها من ربطة عنقه، وربطها حول ساق موراج. ثم فكَّ رسنها وأطلقها عبر الكوة. وانطلقت موراج مثل السهم مخترقة الضباب الذي ينيره ضوء القمر.

حادث بيتر جون نفسه قائلًا: «فرصة النجاح ضئيلة، ولكنها تستحق المحاولة. إنها تتضور جوعًا، وإذا لم تقتل حيوانًا في القريب، فستعود إلى المنزل. وإذا ما رآها أحد في المنزل، فالسيد هارالدسن يملك تلواحًا إضافيًّا ويعرف كيفية استخدامه. وإذا ما وصلته الرسالة، فسأكون على الأقل قد نبهته لما يدور.»

أطار التصرفُ الذي أقدم عليه النومَ من عينيه وأبهجه للحظات. لم يتمكن من النوم على السرير المعلق، فجلس على كومة البطاطين وحاول أن يفكر. ولكن، لم تكن أفكاره جيدة، فلم يتمكن من وضع أي خطط. كان باب غرفته موصدًا، ومفتاحها في جيب مارتل. وكانت أنَّا محبوسة أيضًا في الطرف الآخر من السفينة. كانا محتجزَين، مثل حقيبتَين عاجزتين يمكن للعدو جرُّهما في أي اتجاه يريد. الغريب في الأمر أن القبطان لم يبدُ له بالقوة الخارقة التي تخيلها. فقد تخيله إحدى قوى الطبيعة المهلِكة، مثل عاصفة ثلجية

أو زلزال. ولكنه ظل يخشى كاريراس ومارتل، فهما شريران حقيقيان. وعندما تذكر حاجبَي مارتل الشبيهين بحدوة الحصان وصوته الساخر الخافت، اقشعر بدنه في خوف حقيقي. كان دينجرافيل أسدًا جائعًا، أما مارتل فثعبان حاقد وخبيث.

لم يتبين لِكم من الوقت ظل جالسًا على البطاطين، ولكنه اعتقد أنه لا بد أن ساعات قد مرت. وزحف النوم على عينيه ببطء، فقد أُنهك جسده وعقله وأعصابه ... ثم حدث أمر جعله يستيقظ بشكل كامل. مر شيء أمام الكوة ببطء وهدوء شديدين حجب قرص الضوء الداخل منها. نظر خارج الكوة ورأى، لدهشته، أن أحد قاربَي الكاياك أصبح يطفو الآن على الماء من تحته ولا يزال مربوطًا بحبل من أعلى.

وبينما كان يحدق في القارب، هبط شيء آخر أمام عينيه. كان هذا الشيء هو قارب الكاياك الآخر، الذي هبط ببطء فوق القارب الآخر في البداية، ثم استقر بجواره.

مد يده ليمسك بأحد الحبال التي أنزلت القاربين، ووجده مشدودًا. قبض بيتر جون على الحبل وأخرج ساقيه عبر الكوة، ولف جسده حوله وانزلق عليه إلى أسفل. وأصبح فجأةً جالسًا في القارب ينظر إلى أعلى نحو السفينة الضخمة المعتمة.

ثم حدثت معجزة أخرى. كان ثمة جسم بشري ينزلق على حبل من سطح السفينة تشالدار، ورأى أن أنَّا تبدل يديها الواحدة تلو الأخرى هابطةً الحبل بخفة سنجاب. رأته أنَّا، وقفزت في القارب الثاني، وأمسكت بالمجداف. تم الأمر برمته في هدوء تام وكأنهما في حلم. كان ثمة شخص على سطح السفينة في الأعلى يساعدها، فقد أُلقي الحبل المشدود خلفها وأحدث حفيفًا خافتًا عند اصطدامه بالمياه.

أرسلت أنَّا قبلة في الهواء للشخص الذي في الأعلى، وأمسكت بمجدافها، وبضربة بطيئة خافتة من مجدافها، انطلق قاربها إلى داخل السديم الذهبي. وعندما حاول بيتر جون بشكل أخرق أن يفعل مثلما فعلت، التفتت نحوه غاضبة وهمست قائلة: «بهدوء أيها الغبي. لا تنثر المياه حولك وإلا فقدت حياتك. تمسَّك بقاربي وسأجرُّك.»

وبعد بضع ضربات بالمجداف، أصبح القاربان بعيدين عن مجال رؤية السفينة تشالدار.

الفصل الرابع عشر

الإوز ذو القدم الوردية

انطلقا لمسافة ربع ميل قبل أن يتحدث بيتر جون. فسأل منفعلًا: «كيف فعلت ذلك؟»

بطَّأت أنَّا من سرعتها وتركت قاربها ينزلق إلى الخلف إلى جوار قاربه.

«لم أفعل شيئًا. بل فعل الرجل؛ ذلك الرجل ذو الحاجبين الغريبين، الرجل الذي دعاه القبطان باسم مارتن أو شيء من هذا القبيل.»

أطلق بيتر جون همهمة تدل على الدهشة.

وقال: «إنه مارتل، الأسوأ بينهم، لقد أخبرني أبي بذلك. ثمة خدعة في الأمر يا أنَّا. لا يمكن أن يُضمِر لنا خيرًا.»

«لقد سمح لنا بالهرب على أية حال، وهذا هو الخير الذي أريد. كنت قد غفوت على تلك الأريكة البشعة عندما أيقظني وقال إنه من الأفضل أن أهرب، فهذا المكان غير مناسب للصغار. وطلب مني أن أتبعه إلى سطح السفينة، وظللنا نسير في الظل حتى لا يرانا أحد. ولم يكن ثمة أحد على أية حال، ولم يكن ثمة ضوء سوى الأنوار المعلقة على حبال الأشرعة. كان قد أنزل قاربَي الكاياك في البحر بالفعل، وقال إنك ستراهما، فقد أنزلهما بجوار كوة غرفتك، وإذا لم ترهما فسنهبط إلى غرفتك ونوقظك. وعندما رآك جالسًا في أحد القاربين، قال إن هذا ما توقعه لأنك صبي ذكي.»

صاح بيتر جون قائلًا: «إنها خدعة. مارتل هو المجرم الأسوأ في العصابة. إنه يريد منا أن نهرب حتى يقبضوا علينا مجددًا ويصبح لديهم مبرر للتنمر علينا.»

قالت أنَّا: «فكرة سخيفة. إذا كانوا يريدون أن يعاملونا بقسوة، فلم يكن ثمة ما يمنعهم. أعتقد أن الرجل حليف لنا حقيقةً. إنه نوردي.»

«إنه ليس كذلك. إنه بلجيكي.»

«لقد تحدث باللغة النوردية بطلاقة مثل أبي تمامًا. كما أنه يعرف الجزر. كان في جولة بالقارب عصر اليوم وقال إن الحيتان قادمة. وقال إنهم سيتجمعون عند ستور روك، وصيادو الحيتان دائمًا ما يتجمعون. لا أعلم لمَ أخبرني بذلك، ولكن بدا لي أنها معلومة مهمة، فقد كررها عدة مرات. النورديون فقط هم من قد يعرفون مثل هذه الأمور.»

«ربما كان يعرف نورلاندز، ولكنه بلجيكي وهو المجرم الأسوأ في العصابة. أخبرني أبي بذلك. ماذا قال أيضًا؟»

«قال إنه يجدر بنا أن نجدف بأقصى سرعة ممكنة، وألا نعود إلى المنزل مباشرة. وإذا كنا سنتبع مسارًا، فمن الأفضل أن نتجه نحو الجزء الجنوبي من الجزيرة، إلى بيردمارش. يبدو وكأنه يعتقد أن القبطان سينطلق في إثرنا. أعتقد أنه كان يضمر لنا خيرًا يا بيتر جون، وعلى أية حال، لقد أصبحنا أحرارًا مجددًا.»

قال الصبي: «لن نظل أحرارًا لفترة طويلة.» ثم أخرج بوصلته وتوقف عن التجديف للحظات لتثبيتها. ثم قال: «أنا لا أثق به على الإطلاق يا أنَّا. إن مسارًا نحو الغرب سيقودنا إلى المنزل، وهذا هو المسار الذي سنتبعه. وإذا لم نتمكن من الوصول، فسنفعل عكس ما أملاه علينا مارتل وسنذهب شمالًا.»

قالت الفتاة: «لا يهمني أين سنرسو، طالما كان ذلك على الجزيرة.»

رفع الصبي يده وأشار إليها أن اصمتي وبدأ يتنصت.

«إذا ما اكتشفوا فرارنا، أو أخبرهم مارتل بأمر فرارنا، فسوف يلحقون بنا في ظرف عشر دقائق في قاربهم السريع. فهل تسمعين شيئًا يا أنَّا؟»

تقطَّع الضباب صانعًا ممرات وقطاعات في الماء الذي ينعكس على سطحه ضوء القمر من حولهما على شكل نجمة. لم يكن ثمة صوت، ولا حتى صوت الأمواج أو صياح النوارس.

حثَّت أنَّا بيتر جون قائلة: «هيا أسرع. كان يجب أن نكون قد قطعنا ربع المسافة عبر القناة الآن، إن كل لحظة مهمة. جدف في المياه بطول أكبر يا بيتر جون، مثلما أفعل، ولا تجدف وكأنك تصنع قوالب الزبد.»

لم ينبس أيٌّ منهما بكلمة طوال نصف ساعة. لم يكن الصبي يملك مهارة الفتاة التي وفرت عليها بذل جهد كبير، فأضاع الكثير من قوته دون داعٍ على الكثير من الضربات بالمجداف، وسرعان ما آلمته كتفاه، وانقطعت أنفاسه. كان الضباب مكدسًا في أماكن

متفرقة بغرابة. فللحظات يصلان إلى بقعة من البحر خالية من الضباب، وللحظات بعدها يصلان إلى منطقة كثيفة الضباب لدرجة أن بيتر جون كان مضطرًّا إلى وضع بوصلته على ركبته، واقتربت أنَّا بقاربها منه لتسترشد به. تذكرت أنَّا في وقتٍ ما أنهما تركا موراج خلفهما، وأنها تشفق على أول يدٍ تمسها.

أجابها بيتر جون: «لا، لم نتركها. لقد أطلقت سراحها عبر الكوة، وربطت رسالة في حلقة ساقها. إذا لم تصطد أي حيوان لتأكل، فسوف يجدونها في المنزل.»

سألت أنَّا: «أي رسالة؟»

«رسالة فحواها أننا بخير، ولكن يجدر بهم أن ينتبهوا لهجوم وشيك.»

عندما وصلا إلى أحد البقاع حيث الهواء الصافي، وصل إلى أذنيهما صوت واضح لقارب سريع آتٍ من خلفهما.

قالت أنَّا: «لقد بدأت المطاردة. أدعو الله أن يزداد الضباب كثافة. لقد كنتُ محقةً بشأن مارتل. لقد أخبرني بألا أذهب إلى المنزل مباشرةً، وهذا ما فعلناه، ومن الطبيعي أن يلحقوا بنا … إلى أين تتجه الآن؟»

سقطت البوصلة على أرضية القارب وغيَّر بيتر جون اتجاهه نحو الشمال الغربي.

قالت أنَّا: «نصحنا مارتل بأن نذهب جنوبًا.»

رد عليها بيتر جون قائلًا: «لهذا السبب سنذهب شمالًا.»

لا سبيل للجدال عندما تكون في منتصف قناة بين جزيرتين في ساعات الصباح الأولى والعدو وراءك يقترب منك. فتبعته أنَّا في إذعان، ورأت أنهما كلما تقدَّما في مسارهما الجديد أكثر، اقتربا أكثر من منطقة تزداد فيها كثافة الضباب. سمعا صوت محرك آتٍ من يسارهما، ولكنهما لم يتمكنا من رؤية شيء عندما تلفتا حولهما. كانا قد دخلا مرة أخرى إلى منطقة كثيفة الضباب، وعاد بيتر جون لاستخدام البوصلة مرة أخرى. منح الخوفُ كلًّا من أنَّا وبيتر جون، وشعورُهما بأنهما ملاحقين، شعورًا جديدًا بالحماسة، انزلق القارب بإصرار عبر المياه. كان القمر يأفل، ولم يعد ضوءُه الذهبي يغير من لون ضباب البحر الذي أصبح باردًا ورماديًّا. سيبزغ الفجر قريبًا.

أصابهما فجأةً فزع شديد. توقف صوت المحرك أمامهما مباشرةً. فتوقفا وكتما أنفاسهما، وظلا يتنصتان، فلم يكن لأعينهما فائدة في مثل هذه العتمة … اقترب الصوت منهما، وسرعان ما أصبح على مسافة تقل عن عشرين ياردة منهما، ولكنهما لم يريا شيئًا. ثم بدأ الصوت يتحرك ببطء نحو الغرب.

قال بيتر جون: «كان هذا قاربهم الثاني. فصوت محركه مختلف عن القارب الآخر.»

قالت أنَّا بنبرة نصر في صوتها: «من كان محقًّا إذن؟ أخبرتك بأنه يجدر بنا أن نثق بذلك الرجل مارتل، ولكنك قلت إنه لا يجدر بنا أن نفعل. لقد أخبرنا بأمرين وخالفناهما، وكانت النتيجة أننا كنا على وشك أن يُقبَض علينا.»

لم يمرَّا بأي عقبات أخرى. كان الضباب يزداد كثافةً كلما اقتربا من الجزيرة أكثر، ولكنه أصبح أخف قليلًا عندما أخبرهما تداخل الأمواج بأنهما قريبان من الشاطئ. عند هذا الجزء من الجزيرة، كانت الجروف تصعد عموديًّا من شاطئ صخري ضيق، ولكن الصغيرين كانا قد زارا هذا المكان سابقًا، وكانا يعلمان أنهما سيتمكنان من إرساء القاربين في أحد الخلجان الصغيرة التي نحتتها مياه الجداول الساقطة من أعلى الجروف. عثرا على أحد هذه الخلجان، حيث كان الشاطئ الرملي على شكل هلال عند قاعدة أخدود عميق بين الصخور. سحبا قاربَي الكاياك إلى الشاطئ وأخفياهما خلف بعض الصخور الضخمة. ثم أمسكا أحدهما بيدَي الآخر وبدآ يتسلقان الوادي الشديد الانحدار الذي كان صخريًّا ومن الصعب تسلقه، ولكن ليس مستحيلًا. بالقرب من القمة، عثرا على بقعة مكسوَّة بالعشب والسرخس قررت أنَّا أن تجلس فيها قليلًا.

وقالت: «حمدًا لله على نعمه. إذا ما حصلت على بعض الطعام، فسأكون سعيدة. سأنام قليلًا، ويجدر بك أن تفعل المثل يا بيتر جون، فالله وحده يعلم ما سنلاقيه غدًا.»

لم يكونا يملكان ساعة، ولم يتمكن بيتر جون، الذي كان قادرًا على معرفة الوقت عبر تحديد أماكن النجوم، من فعل ذلك في تلك البقاع الشمالية. غرقا في النوم في ظل صخرة، ولم يستيقظا إلا عندما سقطت أشعة الشمس على وجه أنَّا. وكان الوقت قد قارب الظهيرة.

كان الضباب قد اختفى، وكان النهار مشرقًا وحارًّا، ولكن الرؤية كانت ضعيفة. كانت جزيرة هالدر، التي كانا يريانها بكامل تفاصيلها، عبارة عن مخروط أزرق اللون لا تظهر أيٌّ من تفاصيله، وكانت القناة الفاصلة بين الجزيرتين تبدو وكأنها هوة بلا قرار، فلم تكن تعكس أي لمعان على سطح المياه.

قالت أنَّا التي تعرف طقس نورلاندز جيدًا: «سيظل الجو معتدلًا حتى الثالثة. ثم أعتقد أن الرياح ستهب مرة أخرى من الشرق، وستكون قوية.»

ثم وقفت لتتمطى، إلا أن بيتر جون أمسك بتنورتها وجذبها لتجلس مجددًا. وقال آمرًا: «لا يجب أن نُظهر أنفسنا. تذكري أنهم في إثرنا. انتظري هنا حتى أستطلع محيطنا.»

زحف بيتر جون إلى خارج البقعة الخفية التي كانا يجلسان فيها، ورقد على بطنه عند حافة صخرة حيث كانت الرؤية مفتوحة نحو الشرق. ثم عاد بعد بضع ثوانٍ. وقال هامسًا: «لقد اختفت السفينة تشالدار. اختفت بلا أثر رغم أني قادر على رؤية مساحة مفتوحة من البحر تبلغ عشرين ميلًا. لا بد أننا في ساعة متأخرة من النهار، فأنا أتضوَّر جوعًا. هل أنتِ جائعة؟»

«أكاد أموت جوعًا، ولكن من الأفضل ألا نتحدث عن ذلك. لن نحصل على أي طعام حتى نعود إلى المنزل. فكيف سنصل إلى هناك؟ حددت اتجاهنا بالنسبة إلى جزيرة هالدر، ومن المفترض أن نكون على بعد ميلين شمال المنزل. ثمة طريق يؤدي إلى المنزل على قمة الجروف، وهو يكشف القناة في معظمه، ولكن بما أن السفينة تشالدار ليست في القناة، فهذا لا يهم. أعتقد أنها انتقلت إلى مكان ما عند الجانب الغربي من الجزيرة.»

سألها بيتر جون: «ماذا يوجد بين المنزل والجانب الغربي؟» كان هذا هو الجزء الوحيد من الجزيرة الذي لم يستكشفاه.

«يوجد تل سنوفيل. وهو تلٌّ صغير مقارنة بتلال ليفرلو. ويوجد أيضًا مستنقع نطلق عليه اسم سهل الإوز؛ لأن الإوز ذا القدم الوردية يتكاثر هناك. ثم هناك البحر؛ منطقة ساحلية خطرة لا يوجد بها إلى مكان واحد يصلح للرسو ... فلنسرع بالعودة إلى المنزل. إذا كان المجرمون ينوون الهجوم اليوم، فلا أرى مانعًا من أن يبدءوا مبكرًا، فلم يعد ثمة ظلام ينتظرون أن يخيم.»

تسلق الصغيران نحو قمة الأخدود التي تمتد إلى قمة الجرف المكسوة بأعشاب أكثر كثافة. ولكن هبط بيتر جون من على القمة، فقد كان متوجسًا من أن ينكشف مكانهما، وأصر على أن يتحركا خلف سواتر وألا يظهر ولو جزء يسير منهما في العراء. وصلا إلى بحيرة جبلية صغيرة غطت الطحالب القسم الأكبر من سطحها، وتذكرا أنها كانت البركة الوحيدة التي لا توجد بها قوارب. كان الطريق المؤدي إلى المنزل يمر بحافتها الغربية.

وكان الطريق مكشوفًا جدًّا؛ ولذا نظر إليه بيتر جون في عدم رضا.

ثم قال مقترحًا: «أليس من الأفضل بالنسبة إلينا أن نمر عبر حافة الجرف حيث توجد أماكن أكثر للاختباء؟»

«يمكنك أن تفعل ذلك إذا أردت، ولكني لن أفعل ذلك. لا يمكن أن يكون القبطان وجماعته قد اقتربا من هنا بعد، كما أني أريد العودة إلى المنزل في أسرع وقت. سيقتل القلق ذوينا. ويجب أن أفك عضلاتي، فقد أصبحت متصلبة مثل مدك البندقية. سأسابقك يا بيتر جون.»

هزَّت أنَّا خصلات شعرها الأصفر، وقبل أن يتمكن الصبي من منعها كانت قد انطلقت مسرعة على الطريق. ولم يكن بيده شيء سوى أن يتبعها. واجه الصبي صعوبة في اللحاق بها، وأنساه الجهد المبذول أفكارًا أخرى كانت تتصارع في رأسه. وعندما وصلا إلى قمة التل المطل على المكان الذي يوجد به المنزل على مسافة ميل واحد، انطلقا جنبًا إلى جنب بأقصى سرعة.

ثم رأى الصبي شيئًا جعله يتسمر في مكانه ويقبض على ذراع أنَّا ويجذبها لترقد على الأرض ... فخلف ربوة صغيرة على بعد ثلاثمائة ياردة، كان ثمة رجل رابض.

لم يسمعهما الرجل، فقد واصل التدخين ومراقبة المنزل بنظارةٍ مُقرِّبة. لم يرياه إلا من ظهره، ولكن كان من الجلي أنه أحد بحارة السفينة تشالدار، واستنبطا ذلك من صديريته الزرقاء وسراويله الصوفية الزرقاء الواسعة. كان على دراية بتضاريس المكان، فقد كان موضعه يمكِّنه من رؤية أي محاولة للوصول إلى المنزل من جهة الشمال.

رقد بيتر جون واضعًا يده على رأس أنَّا المطأطأ لبعض الوقت وأنفه ملاصق لرقعة من الأرض مكسوة بعشبة القمل. كان يفكر بعمق ويدرس محيط المنزل. كانت فرصتهما الحالية الوحيدة للوصول إلى المنزل إما عبر الطريق الغربي أو الجنوبي. ولكن تل سنوفيل يقع غرب المنزل حيث لا توجد إلا سواتر تكفي بمشقة لإخفاء طيور القرقف الأزرق. كان الاقتراب من المنزل من الطريق الجنوبي أفضل، ولكن من أجل الوصول إلى جنوب المنزل، كان من الضروري الدوران من خلف تل سنوفيل في دائرة واسعة. ثم طرأت عليه فكرة مقلقة. إذا ما ذهبت السفينة تشالدار إلى جنوب الجزيرة، ألن يكون هذا الجانب برمته تحت المراقبة؟ هذا المراقب أحد بحارة تشالدار. إذا وزع العدو طلائعه حول محيط المنزل، ألا يكون هو من يسيطر على الأرض الوسيطة؟

ولكن لا توجد فرصة أخرى لهما سواها. زحف الاثنان بحذر شديد عائدين أدراجهما إلى قمة التل الذي عبراه للتو، وخرجا عن الطريق، وتحركا بسرعة معقولة عبر المستنقعات التي تُعَد منبع جدول المياه الذي يغذي البحيرة. لم يقابلهما أي أحياء فيما عدا مجموعة من الأحصنة النوردية القزمة الوديعة مثل الجراء، والتي اقتربت منهما ليربتا على أنوفها، ثم عادت إلى الرعي بمجرد انصرافهما. ولكنهما صعدا أخيرًا إلى امتداد تل سنوفيل بحرص شديد، بعد أن أدركا الآن أن الأعداء يراقبون المنطقة والمنزل، مختفِيَين طوال الوقت بين رقعتين من نبات السرخس ليتمكنا من رؤية الجانب البعيد.

لم يكن ثمة أثر للسفينة تشالدار. كان التل ينحدر انحدارًا حادًّا وصولًا إلى الصخور عند حافة البحر. وكان يبدو أن هناك خليجًا تختفي معالمه خلف تحدب الجروف، وكان

شريطًا من الدخان يتصاعد منه. وجنوبًا، كانت الأرض منبسطة، حيث تلمع فيها برك من المياه بين الأعشاب والطحالب. وخلفها كان ثمة تل يحجب رؤية ما خلفه. لم تكن ثمة دلائل على وجود أحياء سوى العصافير البيضاء، وهي طيور تعيش في سهل الإوز، وسرب من النوارس الصارخة المتجمعة حول جثة خنزير بحر جُرفت إلى أحد الشعاب المرجانية، وعمود من الدخان.

قالت أنَّا في ارتياح: «جيد. كانوا هنا صباح اليوم، فهذا الدخان هو ما تبقى من نار إعداد الإفطار. لقد أنزلوا هذا الرجل إلى الجزيرة ليراقب المنزل، ثم انطلقوا على متن السفينة تشالدار ليؤدوا مهمة أخرى. ربما عادوا إلى جزيرة هالدر لكي يضللونا. وسيعودون مرة أخرى في المساء. لا يمكننا العبور من فوق تل سنوفيل، فسيرانا المراقب، ولكن يمكننا الدوران من حول سهل الإوز والوصول إلى المنزل عبر طريق خزان المياه. لنسرع، فقد أصابني الجوع بالضعف.»

كادت أنَّا تسير بجرأة هابطةً التل، إلا أن بيتر جون كان يملك ما يكفي من التعقل أن جعلها تحافظ على تخفيها. لم يكن من الصعب فعل ذلك طالما ظلا يهبطان على المنحدرات الوعرة، فكان أي طريق ينتقيانه يمر عبر ما يمكنهم الاختباء خلفه من نباتات وصخور. ولكن قبل أن يصلا إلى سهل الإوز، وجدا نفسَيهما في مساحة ذات عشب وصخور قليلة الارتفاع، حيث سيكونان ظاهرين مثل غرابين في سهل جليدي. حتى أنَّا انتبهت لذلك.

فهمست قائلة: «دعنا نعبر هذه المساحة عدْوًا لكي نتخطاها.»

لا شك في أن هذه الخطة كانت الأفضل، ولكنها فشلت. كانا قد قطعا عشر ياردات بمشقة عندما شقت الصمت صافرةٌ. ظهر شخص على حافة الجرف في اتجاه البحر، ثم ظهر آخر. وما أفزع بيتر جون أنه عندما أشاح ببصره في الاتجاه المعاكس، كان ثمة رجل ثالث على قمة تل سنوفيل.

فقال مزمجرًا: «إنهم ثلاثة.»

صححت أنَّا العدد قائلة: «بل أربعة. ثمة رجل آخر خلفنا، لا بد أننا مررنا بالقرب منه.»

رأى بيتر جون حافة صخرية تهبط من تل سنوفيل، وأدرك أنه إذا تمكنا من الوصول إليها والاختباء خلفها، فلن يتمكن المراقبون من رؤيتهما، حتى ذلك الرجل عند قمة التل. كانت الحافة الصخرية تقطع سهل الإوز صانعةً ما يشبه ممرًّا مرتفعًا عبره. لم يكن

ثمة ما يحتمون به في السهل، ولم يكن أي شخص يحاول الاختباء بين النباتات القصيرة والبرك الضحلة لينجح في ذلك. ولكن السبق بدقيقة أو اثنتين سيشكل فارقًا كبيرًا. لم يحاول الصغيران التخفي وهما يعدوان بأقصى سرعة إلى ما خلف الحافة الصخرية، وخاضا في سهل الإوز، واختفيا خلف بعض الصخور الخضراء.

قالت أنًّا وهي تلهث: «لقد اختفينا عن ناظرهم، ولكنهم لن يستغرقوا وقتًا طويلًا في هبوط التل والإمساك بنا. فلنواصل العدْو. ربما استطعنا أن نسبقهم ونصل إلى مستنقع الطيور قبلهم. ويمكننا أن نختبئ هناك.»

قال الصبي: «هذه ليست خطة جيدة. أذا ما اتجهنا جنوبًا، فلسوف نعود إلى مجال رؤيتهم بعد عشرين ياردة، والرجل فوق التل لن يحتاج سوى لأن يهبط من مكانه ليمسك بنا. وكذلك الرجل الذي كان خلفنا. لقد انتهى أمرنا يا أنًّا، إلا إذا اعتقدوا أننا عدنا أدراجنا.»

«لا يمكن أن يعتقدوا ذلك. فقد رأونا نأتي إلى هنا.»

«لا سبيل أمامنا إذن. ربما كان يجدر بنا أن نبقى على متن السفينة تشالدار.»

ناحت الفتاة قائلة: «أوه، بيتر جون، لقد أفسدنا كل شيء.»

فجأةً، اتسعت عينا الفتى على اتساعهما عندما رأى مشهدًا غريبًا. فأمامهما مباشرةً كان ثمة فرجة في الممر المرتفع الذي صنعته الحافة الصخرية الآتية من التل، وتمكن من رؤية جزء من المستنقع الممتد نحو الشمال. ظهرت عبر هذه الفرجة الرءوس الحمقاء والأعناق المنتصبة لسرب صغير من الإوز ذي الأقدام الوردية. كانت فيما مضى طيورًا صغيرة خرجت من بيضها في سهل الإوز، وقضت فترة من حياتها على الجزر الصخرية الصغيرة، وعادت الآن، كما فعل أسلافها، إلى مسقط رأسها لفترة قصيرة. كانت طيور الإوز تثرثر فيما بينها، وبدا أنها متحمسة لوجود شيء جديد أمامها، وكانت تأمل في معرفة ماهيته.

لحسن الحظ، تذكر بيتر جون معلومة تعلَّمها من صيادي الطيور البرية عندما كان في هانام في شهر يناير. طيور الإوز ذات الأقدام الوردية ليست طيورًا من السهل تخويفي. وهي ترى أن واجبها ليس أن تحافظ على حياتها، بل أن تعرف، وربما كانت أكثر المخلوقات فضولية وحُبًّا للمعرفة على وجه الأرض. قال سامسون جروس إنك إذا كنت تريد الاقتراب من طيور الإوز ذات الأقدام الوردية، فأظهر لها نفسك، ومن المرجح أنها ستقترب منك لتكتشف ماذا تكون. وهذا ينطبق على طيور الإوز ذات الأقدام الوردية صغيرة السن، فالطيور الأكبر سنًّا أكثر حكمة من ذلك.

لدهشة أنَّا، نهض الفتى واقفًا بينما وضع يده اليمنى عليها ليمنعها من النهوض ... ورأت طيور الإوز تتوقف وتتحدث فيما بينها. كانت أعينها كلها مثبتة على بيتر جون، وبعد لحظات من التردد، بدءوا يتقدمون نحوه. بدا عليها أنها واعية بصورة غير معتادة، فلم تواصل النظر في اتجاهه. كان بعضها يتوقف لثوانٍ ليأكل شيئًا، بينما كانت كلها تدير رءوسها في جميع الاتجاهات. ولكنها كلها كانت تتقدم بثبات نحو الجنوب، كما لو أن ثمة قوة دافعة تدفعها في هذا الاتجاه. وفي غضون خمس دقائق، كانت قد تحركت لمسافة عشر ياردات على الأقل.

كانت طيور الإوز ذات الأقدام الوردية في نطاق رؤية المراقبين، ولكن لم يكن بيتر جون كذلك. هل سيستنتج المراقبون ما يريده بيتر جون؟ لا بد أن يفعلوا الآن، لأن الطيور إذا ما اقتربت أكثر من اللازم، فقد تثور وتتراجع إلى الخلف وينتهي كل شيء. بالنسبة إلى من لا يعرف عاداتها، لا بد أن يكون الاستنتاج واضحًا. لا بد أن الصغيرين خلف الإوز، ووجودهما هناك هو ما جعل الطيور تتحرك نحو الجنوب. ومن ثَم سيكون عليهم أن يبحثوا عن الصغيرين في الجزء الشمالي من سهل الإوز. لقد رأوهما يختفيان خلف الحافة الصخرية، ولكن لا بد أنهما زحفا عائدين وأصبحا خلف الإوز.

كان قلب بيتر جون يقفز في صدره انفعالًا بينما يقف محدِّقًا في الرءوس المتمايلة والأعناق الطويلة لطيور الإوز الحمقاء ذات الأقدام الوردية، التي يعتمد عليها كل شيء بالنسبة إليه وإلى أنَّا. وربما أصبح هو نفسه في نطاق رؤية أحد المراقبين الذي غيَّر موقع مراقبته. مجموعتان من البشر لا يمكن لإحداهما رؤية الأخرى، تراقبان بعض المخلوقات المجنحة السخيفة بانتباه شديد. إنها طريقة جديدة لمعرفة المستقبل.

بعد ذلك، تلقت أُذنا الفتى ما بدا وكأنه استجابة لدعواته. انطلقت صافرة من على سفح التل، وأُجيبت بصافرة أخرى آتية من جهة البحر. لقد استنتجوا ما يريد من حركة الإوز ذي الأقدام الوردية ... بعد لحظات، جاءه التأكيد على ذلك، فقد مر شيء ما من شمال الإوز جعله يجفل. فقد توقفوا عن تقدمهم البطيء، وبدءوا ينتشرون يمنة ويسرة. يبدو أن المراقبين ذهبوا للإمساك بالهاربين ناحية الطرف الشمالي من المستنقع.

لم يكن ثمة وقت لإضاعته، فعندما يكتشفون أن بحثهم بلا طائل، سيتجهون حتمًا نحو الجنوب. جرَّ بيتر جون أنَّا من الوحل الذي كانت تجلس فيه وكأنها بطة برية، وخرجا من المستنقع بصعوبة، وجرَيَا وكأن حياتهما تعتمد على ذلك على طول الجوانب الأشد وعورة من التل. ولم يتوقفا عن العدْوِ حتى دارَا حول هضبة الجزيرة الصخرية،

وأصبحا يطلان على مستنقع الطيور والأراضي القاحلة الممتدة من خلفه. لم ينظر بيتر جون خلفه إلا مرة واحدة ورأى طيور الإوز ذات الأقدام الوردية وقد فقدت هدوءها وأُجبِرَت على الطيران في اتجاه البحر. بمجرد وصولهما إلى منتصف المستنقع، كانت أنَّا تعرف مساراته، فشعرا ببعض الاطمئنان، وتوقفا ليستردا أنفاسهما. ألقت أنَّا نفسها على رقعة مُعشوشِبة ولم تتمكن من منع نفسها من تأنيب بيتر جون. فقالت: «لقد كنت محقة بشأن ذلك الرجل مارتل. إذا ما اتجهنا جنوبًا كما أخبرنا، لم نكن لنتعرَّض لهذا الموقف المرعب. بل ربما كنا وصلنا إلى المنزل وجلسنا نتناول الإفطار.»

وبعدما التقطت أنفاسها، تحدثت مجددًا.

وقالت: «لقد كنت بارعًا جدًّا يا بيتر جون. لن أسخر منك مجددًا أبدًا فيما يتعلق بمعرفتك بالطيور. كنت أعتقد أنك جُننت حتى أدركت ما تخطط له. كان الأمر أشبه بالمعجزة، وأنا سعيدة الآن. سنفوز عليهم، لا تقلق.»

قال الفتى في كآبة: «كم أتمنى لو أعرف كيف سنفعل ذلك. لقد انسللنا من بين أيديهم، لكن لا يزال علينا الوصول إلى المنزل ... إني لأتساءل عما إذا كان ذوونا يعلمون ما يحدث ... وماذا سيحدث بعد ذلك؟ إن المجرمين يفوقوننا عددًا بنسبة أربعة إلى واحد، كما أنهم ليس لديهم ما يخسرونه.»

قالت أنَّا: «لا يهم، سنفوز. ستحدث معجزة أخرى، وسترى.» نهضت أنَّا وتشممت الهواء. لم يكن باستطاعتهما رؤية القناة من حيث يجلسان، ولكن كان بإمكانهما رؤية الجزء الجنوبي من جزيرة هالدر. قالت أنَّا: «لا يمكننا أن نرى مرسى السفينة تشالدار. ولا أعلم إن كانت قد عادت. انظر إلى السماء هناك يا بيتر جون. أخبرتك بأن الطقس قد ينقلب بعد الظهر، وسيفعل ذلك بكل تأكيد. ستهب عاصفة رعدية عاتية على هالدر، ثم ستهب الرياح شديدة القوة من جهة الشرق ... يا إلهي، الجو حار، وثمة الكثير من العناكب الطويلة القوائم. هذا يعني أن الحيتان قادمة. هذا ما قاله ذلك الرجل مارتل. ربما كان محتالًا، ولكننا كنا سنصبح في حالٍ أفضل إذا ما استمعنا لنصائحه صباح اليوم.»

كاد بيتر جون يشعر بالغضب. لم يكن ثمة داعٍ للإسهاب في وصف نوايا مارتل الحسنة التي كان يعلم يقينًا أنها على النقيض من ذلك تمامًا، ولم يكن يرغب في سماع المزيد من الثرثرة عن الحيتان الطيارة بينما العالم ينهار من حولهما. قال بيتر جون: «فلننطلق. مهمة الوصول إلى المنزل شاقة من هذا الجانب أيضًا.»

تركت أنَّا رأسها يسقط مرةً أخرى على العشب.

وقالت: «أشعر بنعاس شديد. ربما بسبب العاصفة القادمة. لقد فقدت كامل طاقتي ... قال مارتل إن الحيتان ستتجمع عند ستور روك. وهذا المكان يبعد عن الطرف الجنوبي لهذه الجزيرة بحوالي سبعة أميال فقط؛ أي عند منتصف المسافة بينه وبين كالسو.»

نهض بيتر جون ساخطًا ونظر إلى الفتاة التي ظلت راقدة وعيناها نصف مغمضتين. لم يكن ثمة شك في أنها كانت تبدو مرهقة جدًّا، ومختلفة أيضًا بشكلٍ ما. كانت تبدو شبيهة بوالدها؛ فقد شحب وجهها مثل وجهه، والتمعت عيناها، عندما فتحتهما، بنفس بريق عينيه الضاري. وكان عقلها لا يزال يفكر في حِيتانها السخيفة.

فقال: «انتظري هنا وارتاحي، سأذهب أنا وأستطلع. ربما كانت هناك بعض الأراضي الوعرة التي علينا قطعها، حيث سيكون عبور شخص واحد لها آمَن من عبور شخصين.»

قالت ناعسة: «حسنًا. عُد قبل أن تصل العاصفة، فأنا أكره التواجد وحدي عندما يطلق الرعد هَزِيمَه ... لم أكن أعلم أن ثمة هذا العدد الكبير من العناكب طويلة القوائم في العالم.»

كان مزاج بيتر جون بين الغضب والاكتئاب، فبدأ يقفز فوق الصخور المتناثرة في مستنقع الطيور حتى وصل إلى الشاطئ، وسار نحو الشمال على حافة الساحل المكسو بالحصى. كانت جزيرة هالدر تبدأ في حجب نفسها خلف ستار قرمزي بلون العنب اليانع، ولكن كانت القناة واضحة المعالم، ولم يكن ثمة أثر للسفينة تشالدار على الساحل المقابل. كان الجو خانقًا وساكنًا، ولكنه كان يشعر وكأن الطبيعة تكدس غضبها وسرعان ما ستطلقه علينا.

كان الطريق يبدو له بالأمس قصيرًا، ولكنه اليوم يبدو له وكأنه لا نهاية له. تمكَّن خلال سيره من رؤية المرفأ ومجموعة الأكواخ التي تقع جنوبه، وكان كل شيء هادئًا. سار بيتر جون على طول القناة على طريق مجاور للجدول تسلق إليه من الشاطئ، ووجد نفسه فجأة يطل على الجرف حيث يوجد المنزل.

كان الوضع هادئًا هناك أيضًا، ولكنه رأى العديد من الأشياء التي تنذر بالشر. كان ثمة مراقبون منتشرون حول المنزل؛ واحد عند الطرف القريب من المرج الرئيسي، وواحد على التل خلف المنزل، وواحد فوق الخليج على الطريق الصاعد من المرفأ. وكان المراقبون مسلَّحين. كانت مهمتهم هي منع دخول أي أحد إلى المنزل أو الخروج منه. بينما كان

يحدق فيما يحدث، رأى المراقب الأقرب منه حركةً في خلفية المنزل وأطلق طلقةً تحذيرية، وسمع بيتر جون الرصاصة تصطدم بالسقف الحجري لأحد المباني الملحقة بالمنزل. لم يكن هؤلاء المراقبون سوى كلاب تحرس المكان حتى يصل الصيادون.

أول ما فكر فيه بيتر جون هو مغافلة الحصار والدخول إلى المنزل. كان يؤمن بأنه قادر على فعل ذلك، فقد كان يعرف الأراضي المحيطة بالمنزل أكثر مما يفعلون. ولكنه إذا تمكَّن من الدخول، فلن يتمكن من الخروج مجددًا، وبذلك ستُترك أنَّا وحدها. إذا كان سيدخل المنزل، فلا بد أن تكون أنَّا معه.

لم يكن ثمة وقت لتضييعه، فاستدار على عقبيه وعاد أدراجه نحو مستنقع الطيور مجددًا، ولكنه لم يسلك طريق الشاطئ، بل سلك الطريق المختصر عبر التل. رأى خلال نظرته الأخيرة خلفه السفينة تشالدار وهي تلتف حول الجروف الموجودة شمال المرفأ. كان يشعر بالكثير من الاكتئاب والعجز. لا بد أن المتواجدين في المنزل أصبحوا يعرفون الخطر المحدق بهم الآن، ولكن ما الفائدة التي منحتهم إياها هذه المعرفة؟ كانوا ثلاثة رجال في مواجهة دزينة أو أكثر، بدا له عدد أفراد طاقم السفينة تشالدار كبيرًا جدًّا، ولم تبدُ على أفراده سيماء البراءة. إذا ما انضم وأنَّا إلى الدفاع عن المنزل، فلن يمثلا إلا عبئًا إضافيًّا ... أين اللورد كلانرويدن؟ كان بيتر جون يرى أن ساندي هو حجر الأساس الذي يقوم عليه هذا الأمر برمته، الرجل الذي وضع الخطة كاملة، الجندي الخبير الوحيد بين مبتدئين. وأورثه غياب ساندي شعورًا مقيتًا بالارتباك والعجز.

قبل أن يصل بيتر جون إلى مستنقع الطيور، انقلب الطقس بعنف. عبرت السحابة القرمزية القناة آتية من جزيرة هالدر، وأصبحت فترة العصر مظلمة مثل غسق الشتاء. لم يكن ثمة برق، ولكن هطل فجأة من الظلمة وابلٌ من البَرَد. كان هطول البَرَد قويًّا لدرجة أنه طرح الفتى أرضًا، ورقد على الأرض متكورًا على نفسه ليحمي الأجزاء المكشوفة من بشرته من هذه الحبيبات المنهالة عليه.

استمر الحال على هذا المنوال لحوالي خمس دقائق. ولكن، رغم توقف هطول البَرَد، لم تصفُ السماء. وأصبحت الأرض بيضاء وكأن الشتاء قد حل فجأة، وهبت رياح في مثل برودة البَرَد من جهة الشرق. خاض بيتر جون مستنقع الطيور إلى حيث توجد أنَّا التي لم تستطع مواصلة السير في عصر ذلك اليوم الصيفي الحار ... لقد اختفت الفتاة. رفع بيتر جون صوته مناديًا عليها، ولكن دون رد.

لم تتبعه أنَّا، ففي هذه الحالة كان سيلتقيها. ولم يكن من المرجح أن الأعداء وصلوا من سهل الإوز وأمسكوا بها. فمن جهتَي الشرق والغرب، كانت ثمة بحيرات لا يمكن

عبورها. ليس أمامها سبيل إلا التحرك جنوبًا وصولًا إلى الكثبان الرملية التي تمتد حتى طرف الجزيرة. تسبب البَرَد في طمس آثار أقدامها في العشب، ولكن بعد بضع ياردات، كان ثمة أثر عميق متروكًا في الطين كما لو أن شخصًا قد انزلق. وبعد مسافة قصيرة، كان ثمة أثر آخر لقدم في الطين. تتبع بيتر جون الآثار حتى خرج من المستنقعات ووصل إلى المنحدرات المكسوة بنبات الزعتر.

انتبه فجأة إلى أنه يسمع صوتًا آخر إلى جانب صفير الرياح. كان الصوت آتيًا من أمامه، وكان خليطًا غريبًا من صياح فرح وصوت تكسر الأمواج على الصخور. ظن في البداية أنه صوت شجار طيور النورس على جثة خنزير بحر. ثم سمع نبرةً فيه تدل على أنه صوت إنسان، لا بد من أنه صوت إنسان؛ كان صوتًا عميقًا يعطي أوامر لآخرين، نبرة صوت لا يمكن أن تصدرها أي حيوانات. تحرك متعثرًا فوق التل الأخير، وأطل على الخليج الكبير حيث تصب واحدة من بحيرات مستنقع الطيور مياهها، وعلى شبكة الخلجان الأصغر مساحةً التي تشكل الطرف الجنوبي للجزيرة.

كانت شواطئ الخليج مكتظة بأناس، وكانت مياه الخليج نفسه، وكذلك الخلجان الصغيرة مختفية تحت الكثير من القوارب. وعند مدخل كل خليج، كان ثمة تجمع من رجال خشنين يستخدمون رماحًا تقطر دمًا. كان مشهدًا بشعًا لا يمكن تصوره في أسوأ الكوابيس، ولكنه كان منظمًا. كان ثمة رجال يقفون على الشاطئ يحملون أوراقًا ويدونون أرقامًا ... تساءل عما يحدث مرتبكًا للحظات، ولكن سرعان ما بزغت الإجابة في رأسه. لقد تحققت حكايات أنًّا. لقد وصلت حملة صيد الحيتان.

لم يدرك في البداية أن هذا يعني الخلاص. فقد سلبته غرابة المشهد لبه ولم يستطع التفكير بالشكل الطبيعي. كل ما كان يفكر به هو أن أنًّا هناك في الأسفل، وعليه أن يعثر عليها. ولكن بينما كان يسرع هابطًا المنحدر، بدأ المشهد يتغير أمام عينيه. ترك الرجال ما يفعلون وتحركوا إلى موقع يوجد في منتصف الطريق المؤدي إلى الخليج الكبير. وبدأت القوارب تأتي من الخلجان الصغيرة إلى المكان نفسه. وفعل الأناس الذين يحملون أوراقًا في أيديهم المثل — وصاح أحدهم قائلًا شيئًا بدا وكأنه أمر. وقبل أن يصل بيتر جون إلى تلك النقطة، كان ثلاثة أرباع الناس على الأقل قد تحركوا إلى هناك ... وعندما اقترب أكثر، رأى مجموعة من الناس يصنعون منصة بأذرعهم، ورُفِع شخص ما إليها.

كانت أنًّا، ولكنها لم تكن أنًّا التي يعرفها. كان العشب والحصى من حولها مخضبًا بالدماء؛ رجال ذوو لحى كثة مثل الغيلان وأعين ضارية، يعتمرون قبعات مخروطية، ويحملون في أيديهم رماح صيد حيتان مخضبة بالدم، وبضع نساء يشبهن الهاذيات، وفي

الخلفية توجد القناة المكدسة بأجسام الحيتان الميتة أو المحتضرة. وقفت أنًّا على المنصة المصنوعة من البشر وكأنها فتاة من الفايكينج تقف وسط حلقة من حراسها، وداعبت الرياح شعرها وتنورتها، وقد التصقا بجسدها، وكان صوتها حادًّا وآمرًا. بدت كأن شيئًا ورثته عن أسلافها قد استيقظ في داخلها، قدرة قديمة على السيطرة، واستيقظ شيء ما أيضًا داخل مستمعيها، استجابةً لندائها الموروث عن الأسلاف.

كانت تتحدث باللغة النوردية التي لم يفهم منها كلمةً واحدة. عرف فيما بعد أن ما كانت تقوله هو أن القراصنة يهاجمون منزلها ووالدها، وأنها تستدعي رجال الجزر للدفاع عنهما. لقد لعبت على الوتر الحساس وذكرتهم بشيء تردد كثيرًا في تراثهم، ذكرتهم بالخطر الذي يتعرضون له من قبل الأغراب؛ الرحالة الشماليون والاسكتلنديون، والقراصنة الجزائريون، الذين طردوا أهل المنطقة من أراضيهم إلى الكهوف في التلال. النورديون ليسوا أهل حرب، ولكنهم يملكون نزعة القتال في داخلهم إذا ما مُسَّ الوتر الصحيح. علاوة على ذلك، كانت الدماء في عروق هؤلاء الرجال لا تزال فائرة بفضل صيد الحيتان ...

وقع بصرها على بيتر جون، وبدا أنها تستخدمه في التأكيد على استغاثتها. تحدث رجل مُسِن وجاء الرد على كلماته في صورة صيحات حماسية. كُلِّفت مجموعة محددة من الرجال بالاستمرار في مراقبة الحيتان؛ فانسحبوا بعيدًا عن الحشد عندما دُعيت أسماؤهم ... وفجأة قفزت أنًّا من على المنصة. وأمسكت بيد بيتر جون وانطلقت نحو الشمال، وانطلق خلفهما حوالي مائة من سكان الجزر يزأرون كالأسود، وفي يمين كل منهم رمح صيد حيتان مخضَّب بالدماء.

الفصل الخامس عشر

تطهير الشر بالنار

تسببت تعاستي الشديدة في أن يجافيني النوم عندما لم نتمكن من العثور على الصغيرين. فبحلول موعد العشاء، كنت أشعر بالقلق، وبحلول منتصف الليل، كنت أشعر بغضب شديد، ولكن عندما بزغ الصباح من دون أن نعرف شيئًا عنهما، غرقت في نوعٍ من السبات المتبلِّد المؤلم. لم أرتح أو هارالدسن أو لومبارد طوال عشر ساعات، وجررنا الخدم المسنين خلفنا حتى كلَّت أقدامهم. كان أول ما فكرت فيه هو قاربَا الكاياك، وتأكدنا من عدم وجودهما في المرفأ. كان جريجارسن، المسئول عن القارب السريع الذي لم يعد ذا فائدة، واثقًا من أن الصغيرَين أبحرا بالقاربَين في الصباح، ولكنه كان يعتقد أنهما عادَا. كان البحر هادئًا كبحيرة، فلم تكن ثمة مدعاةٌ للقلق من أنهما واجها طقسًا سيئًا. كانت مهمتي أن أستطلع ساحل الجزيرة، ولكني لم أعثر على أي أثر للقاربين على طول الجانب الشرقي من الجزيرة، واضطررت إلى تأجيل البحث في الجانب الغربي من الجزيرة حتى اليوم التالي. بحث لومبارد عند بحيرات صيد الأسماك تحسبًا لوقوع أي حادث هناك. أما بالنسبة إلى هارالدسن، فلم أكن أعلم ماذا يتوقع من التسكع على غير هدًى مثل كلب تائه. بدا وكأنه قد أصابه الجنون، وبالكاد تحدث إلينا.

عندما عدت إلى المنزل في حوالي الخامسة والنصف، كانت الأنوار المعلقة على حبال أشرعة السفينة تشالدار على الجانب الآخر من القناة قد أطفئت للتو. راودتني فكرة أن الصغيرين ربما توجها إليها، ولكني نفضتها عن رأسي على الفور. فلم يكن بيتر جون أو أنًّا من نوعية الصغار الذين يحكمون على ذويهم بقضاء ليلة كاملة من القلق بدون داعٍ.

عند أحد أركان المرج، حيث نُصبت تعريشات لحماية مساحة خضراء، عثرت على هارالدسن في حالٍ سيئة. ولكن لم يبدُ عليه الجنون مثلما بدوت أنا. بل بدا كأن عقله قد انعزل عن العالم الخارجي تمامًا. لم تكن عيناه تريان ما حولهما وكأنهما عينَا كلب

عجوز يجلس متكاسلًا أمام الباب. كان في حالة غريبة من «المس» منذ أن وصل إلى الجزيرة، ولكن بدا أن اختفاء أنَّا قد قضى على ما تبقى من عقله.

كان يحدق بتركيز شديد في شيء ما يهتز عند قمة التعريشات، كان يحدق بعجز دون أن يفعل شيئًا. كان طائرًا عَلِقَ بطريقة ما عند قمة الأسلاك، وكان يرفرف بجناحيه في هياج وهو مقلوب رأسًا على عقب عالقًا في طرف أحد الخيوط، وبدا جليًّا أنه سيلقى حتفه بالسكتة الدماغية. أدركت أنها موراج عالقة في رسنها.

لم يستغرق مني تخليصها الكثير من الوقت، ولكني تلقيت عضات وحشية أثناء ذلك. رأيت الورقة الملفوفة حول ساقها، وتمكنت من فكها بشيءٍ من الصعوبة. كان أول ما شعرت به عندما قرأت الورقة هو شعور عميق بالامتنان. فبأي حالٍ من الأحوال، لا زال الصغيران حيَّين.

كانا على متن السفينة تشالدار. نظرت إلى السفينة الصغيرة على الجانب الآخر من القناة. كانت تطلق الدخان من مدخنتها، وكانت تتحرك خارجةً من مرساها في اتجاه الشمال. ولكنها ستعود. قالت الرسالة إن هذه السفينة هي قاعدة أعدائنا، وأنهم سيهاجموننا في ذلك اليوم.

أخرجتني تلك الأخبار من حالة الكآبة البليدة إلى فورة الحركة. صحت في هارالدسن كما لو كان أصم. قلت صائحًا: «لقد اختطفوا الصغيرين. إنهما على متن السفينة تشالدار! الله وحده يعلم كيف حدث ذلك، ولكنهم اختطفوهما. لقد قطعوا خط الهاتف وعطلوا القارب السريع، وسيهاجموننا اليوم … هل تسمعني؟ الصغيران في أمان حتى الآن. ولكن يجب علينا أن نستعد لصد هجومهم. لا تنظر إليَّ كالأبله يا رجل. أصبح لدينا الآن هدف علينا أن نعمل من أجله.»

دفعته نحو المنزل حيث وجدنا لومبارد فاتحًا عينيه بمشقة. نقبت عن بعض الطعام في المنزل الذي أصاب أهله الوهن، ولكني تذكرت أننا لن نستطيع أكل أي شيء، فقد شربنا الكثير من أكواب الشاي. وظللت طوال الوقت أناقش أمر دفاعاتنا الضعيفة حتى أبعد فكري وفكر من حولي عن التكهنات السيئة … كان تنظيمنا سيئًا جدًّا. فلم يكن أيٌّ من الخدم المسنين بارعًا في إطلاق النار؛ فالنورديون يعلمون أقل القليل عن الأسلحة النارية. الرجل الوحيد الذي ربما كان ذا فائدة هو أبسالون العجوز، صياد الطيور في القرية، ولكنه كان طريح الفراش. كان الرجال القادرون على القتال هم هارالدسن ولومبارد وأنا وجوردي هاميلتون، جميعنا بارعون في إطلاق النار، وكان هارالدسن قناصًا كما

اكتشفت. لحسن الحظ، كنا نمتلك الكثير من الأسلحة والذخيرة. ولكن كان علينا أن ندافع عن منطقة شاسعة، ولم يكن المنزل معدًّا للدفاع عنه؛ إذ يمكن الوصول إليه عبر الكثير من النواحي. كان مقدرًا لنا أن نكون الجبهة الأقل عددًا، كما كنا عاجزين عن التصرف بسبب إمساك العدو بالصغيرين رهينتين. ومما أخبرني به ساندي عن دينجرافيل، أدركت أنه لن يتورَّع عن استغلالهما ...

ساندي! جاء تذكُّري له كلكمة في وجهي. ماذا حدث له؟ ها نحن أولاء غارقون حتى آذاننا في معركة من ترتيبه، ولا نعلم أي شيء عنه! تخيلته وقد تعرض لحادث في مكان ما على الطريق، ويحاول جاهدًا أن يبعث رسالة إلى جزيرة أصبحت في الوقت الحالي معزولة عن العالم بصورة تامة.

حاولت أن أفكر بهدوء وأن أتخيل كيفية الهجوم علينا. لقد خرج أعداؤنا لإنهاء الأمر، ولن يتعاملوا بلطف. ماذا يريدون؟ يريدون احتلال المنزل ونهبه كما يحلو لهم. نعم، ولكن ثمة المزيد يمكن الحصول عليه من هارالدسن. فهو الهدف المهم حقيقةً. يجب أن يضعوا أيديهم عليه، وأن يجبروه على فعل ما يريدون. وبالنسبة إليَّ وإلى لومبارد، يجب أن يُخرسونا. إما أن يقتلونا أو يخفونا عن العالم في مكان ما إلى الأبد. أو يرْشونا. راودتني فكرة مقيتة أنهم سيحاولون رشوتي والسعر هو بيتر جون.

لم أتخيل أبدًا احتماليةً أشد بشاعة من تلك، كما أن فكرة تورط الصغيرين في الأمر جعلت قلبي ينقبض. لا شك في أن العدو سيفرض شروطًا ... تسليم هارالدسن والمنزل ... وأن أوقع ولومبارد اتفاق إذعان من نوعٍ ما. وإذا ما رفضنا هذه الشروط، فسيهاجموننا. يمكننا أن نماطلهم لبعض الوقت، وأن نسبب لهم قدرًا من الضرر، ولكن من المحتم أن يتغلبوا علينا في نهاية المطاف ... هل ثمة أمل؟ لا سبيل سوى إطالة الأمر قدر الإمكان على أمل حدوث أمر ما يقلب الطاولة. حاولت تخيل ساندي يسرع لنجدتنا، ولكن هذا لم يواسني أو يطمئنِّي. إذا كان سيفعل أي شيء، لكان قد وصل إلى هنا منذ أمد بعيد.

كان السبيل الوحيد للنجاة من هذه المعركة هو منعهم من الوصول إلى هارالدسن. فهم لن ينتصروا إلا إذا أمسكوا به. لذا، لا بد أن يخرج من المنزل ويختبئ. هل ثمة مكان يصلح لإخفائه؟

لقد كان أكثر تعقُّلًا مما توقعت. فقد أجبر عقله على العودة من شروده، وعادت عيناه تشبهان عينَي كائن عاقل. فهم هارالدسن وجهة نظري. كنت أخشى أن تجعله رغبته في القتال يرفض أن يستبعد من المعركة، ولكن يبدو أن خسارة أنَّا أضعفت عزيمته. واتفق

معي على أن فرصة نجاتنا الوحيدة هي تأخير وقوعه بين أيديهم لأطول فترة ممكنة … كان ثمة مكان واحد فقط يصلح للاختباء لا يعرفه أحد إلا هو وأنَّا. ذكرت سابقًا أنه في الجهة الشمالية من المنزل في نهاية رواق مُعمَّد مسقوف يُستخدم لزراعة نباتات الأُصص، توجد زنزانة حجرية صغيرة تعود لناسك أيرلندي كان من بشَّر بالديانة المسيحية في نورلاندز وقُتِل على يد قراصنة البحر. جدَّد هارالدسن الأب هذه الزنزانة، وبنى فوقها سقفًا، لم يكن من العشب الأخضر مثل بقية المنزل، بل بالقش العادي. اكتشف العمال في أرضية الزنزانة درجات سلم تؤدي إلى البحر وتنتهي عند كهف في جرف عند الجانب الشمالي من المرفأ. حُفظ هذا الاكتشاف سرًّا، فقد كان البديل الوحيد لذلك هو إغلاق المكان برمته — وكان المدخل عبارة عن فتحة أُخفيت بعناية تحت أريكة ثقيلة صنعها هارالدسن الأب من الخشب الذي جرفه البحر.

بدا الأمر وكأن هذا ما يريده هارالدسن تمامًا. قلت لهارالدسن إنه يجدر به أن يذهب إلى هذا المكان على الفور وأن يأخذ معه مصباحًا وسلة من الطعام. وإذا ما وقع الأسوأ وقُتِلنا جميعًا أو اختُطفنا، فلن يكون هجومهم ناجحًا إذا لم يعثروا على هارالدسن. أخبرته بألا يحاول الخروج عند البحر، فمن المؤكد حينئذٍ أن يمسكوا به، وأن يبقى صابرًا في الممر حتى يرحل العدو، ثم يبدأ في تجربة كل ما في إمكانه لنحصل على المساعدة. الأمر الوحيد المهم هو أن يظل بعيدًا عن متناول أيديهم. ولكني أعتقد أنه لم يفهم هذا بسبب ذهنه المشوَّش. فقد نظر إليَّ بعينَين تشبهان عينَي كلب متحمس، ولكنه غبي. زوده آرن بالطعام والإضاءة، ولكن كان آخر ما فعله هو أنه اتجه إلى غرفة نومه وأحضر بندقية صيد خفيفة وبعض أمشاط الخراطيش. وقال: «سأشعر بأمان أكثر هكذا»، ولم أرَ ضيرًا من أن يكون مسلحًا. قد يعثر الأعداء على الممر، وينتهي الأمر برمته بمعركة تدور في باطن الأرض. أوصلته إلى الزنزانة، ورأيت ضوء مصباحه يرتعش أثناء هبوطه الدرج الحجري وكأنه يهبط إلى عمق هاوية، ثم جررت الأريكة فوق فتحة المدخل مجددًا. لن يكون الجو خانقًا في هذا الممر؛ فتيار الهواء يمر به وكأنه إعصار.

تمركزت، بعد ذلك، ولومبارد في مواضع تُمكننا من تحصين المنزل. لم يكن بمقدورنا فعل الكثير، فقد كان المنزل ضخمًا كثير الممرات، ولم يُبنَ ليكون مركزًا للدفاع. أغلقنا النوافذ، وكوَّمنا الأثاث خلف الأبواب، وعند الأجزاء الخلفية من المنزل، حيث المدخل الأضعف، وضعنا متاريس من الآلات المهملة مثل قاطعات التبن والعصارات وحتى نول نساج قديم. لم يكن الخدم المُسِنُّون مفيدين إلا في مراقبة مداخل معينة وتنبيهنا على

الفور. كلفت جوردي هاميلتون، الذي كان بارعًا في إطلاق النار، بمدخل المنزل الأمامي، وكان موقعه عبارة عن جناح صغير عند الطرف الجنوبي من المنزل. كانت مهمته هي عدم السماح لأحد بالاقتراب من بوابة المنزل الرئيسية، وأن يصدَّ أي شخص يدخل إلى الشرفة. وكلفت لومبارد بمؤخرة المنزل. لم يكن يثق في قدرته على استخدام البندقية، وفضَّل أن يستخدم بنادق صيد ذات فوهتين. لم يكن ثمة مجال واسع لإطلاق النار عند الأجزاء الخلفية من المنزل بفضل التل المرتفع، وكان من المرجح أن يكون أي هجوم عليها عبر القتال بالأيدي. اخترت أنا سطح المنزل الذي منحني رؤيةً لمحيط المنزل بأكمله. وتمكنت من رؤية جزء صغير من الجزيرة؛ فقد حجب التل المرتفع رؤيتي في اتجاه الشمال والجنوب والغرب، ولكني كنت أرى القناة أمامي بوضوحٍ تام، الأمر الذي من شأنه أن يمنحني إنذارًا مبكرًا بوصول السفينة تشالدار.

جلست بين الخضرة الغنَّاء على السطح مستترًا خلف المدخنة، ومسدسي في جيبي، وبندقيتان من عيار ٠٫٢٤٠ بجواري، وكنت محبَطًا بدرجة لا أتذكر أني وصلت إليها من قبل. انقبض قلبي عندما فكَّرت في بيتر جون. قالت الرسالة المربوطة في ساق موراج إنهما بخير، ولكني لم أقتنع؛ فقد كانا على متن السفينة تشالدار؛ ما يعني أنهما تحت رحمة الأعداء. لم يكن من المرجَّح أن يرفض دينجرافيل هذه الورقة الرابحة. وسوف يستخدم هذين الصغيرين اللذين لا حول لهما ولا قوة إلى أقصى حدٍّ تسمح به المفاوضات، وإذا رفضت شروطه، فلن يتورع عن إيذائهما ... أتذكر تفكيري إلى أي مدى سيظل رفاق دينجرافيل — تروث وبارالتي والباقون الذين تهمُّهم نوعية الجرائم التي يتورطون فيها — يوافقون على أفعاله. ولكن، لن يلتفت دينجرافيل كثيرًا لرغبات هؤلاء الضعفاء الذين لا بد أنهم أصبحوا عجينة طيِّعة بين يديه الآن ... تمنيت أن أرى السفينة تشالدار تظهر؛ فقد كان هذا يعني بداية النهاية، كما يعني أنه لا يفصلني عن ابني سوى ميل واحد أو نحوه. حاولت أن أركِّز تفكيري على وضع خطة، ولكني لم أستطِع التركيز. يجب أن أنتظر لأرى كيف سيبدأ دينجرافيل الهجوم.

كان صباحًا معتدلًا، ولكنه لم يعد كذلك قبل الظهيرة. كانت الرؤية معتدلة، ولكن كانت القناة لا تزال واضحة، ولم تظهر السفينة تشالدار فيها ... بعد الثانية عشرة بخمس دقائق، عندما فكرت في فحص دفاعاتنا، رأيت الأثر الأول لأعدائنا. رأيت شخصًا مُتخفيًا بشكل جيد يظهر على سفح تل سنوفيل، ويتخذ موضعًا شماليَّ المنزل على بعد نصف ميل تقريبًا. نظرت نحوه بنظارتي المقرِّبة ورأيت أنه يلبس حذاء البحر الطويل

وصديرية البحارة، وأنه مُسلَّح. بدا وكأنني رأيته في الوقت المناسب، فبعد خمس دقائق جعلني صخب مفاجئ أصدره سرب من طيور النورس السوداء الظهر أنظر جهة الجنوب حيث مصدره، ورأيت رجلًا آخر بالهيئة نفسها يواري نفسه خلف خزان المياه مباشرةً ويراقب المنزل والحدائق بنظارته المكبِّرة. كنت أدرك ما يدور من حولي. كان دينجرافيل يوزع مراقبيه ليمنع خروج أحد من المنزل. كان يجب السيطرة على الأراضي قبل وصول القوات ... نظرت عبر نظارتي المكبِّرة نحو تل سنوفيل. كان ثَمة رجلان جاثمان فوق قمته.

ثم راودتني فكرةٌ منحتني لحظات من الهدوء. لماذا اتَّخذَ كل هذه الإجراءات الاحترازية؟ لا بد أنه اعتقد أننا لسنا عاجزين فحسب، بل غافلون أيضًا. ربما نبَّهَنا تعطلُ الهاتف والقارب السريع إلى أن شيئًا غريبًا يحدث، ولكن لم يكن ثَمة سبب يجعلنا نفترض أن العدو أصبح قريبًا. أو أن السفينة تشالدار هي قاعدتهم. ولكن أنَّا وبيتر جون كانا يعلمان! هل فرَّا منهم؟ هل يعتقد دينجرافيل أنهما في المنزل الآن؟ رفضت هذا الأمل الواهي. كيف قد يتمكن الصغيران من الهرب من بين براثن رجال لم يتركوا شيئًا للظروف؟ أو لماذا قد يتخيل هؤلاء الرجال أننا يمكن أن نهرب في حين أنه لا يوجد مكان يمكننا اللجوء إليه؟

لم يحدث أي شيء طوال ساعة أو اثنتين. هبطت من مجثمي وجُلتُ في أرجاء المنزل. لم يرَ جوردي هاميلتون شيئًا؛ فقد كان في مكان منخفض جدًّا لا يمنحه رؤية جيدة لمسافة طويلة. لم يكن لدى لومبارد أيضًا مجال رؤية واسع، وكان المراقبون الجاثمون على قمة تل سنوفيل خارج نطاق رؤيته. تركت جوردي يلتهم بنَهمٍ غداءً مكوَّنًا من الخبز والجبن والبيرة، وتباحثت وضعنا مع لومبارد، ثم عدت إلى برج مراقبتي. لاحظت أن الطقس يتغير. فقد بدأت السماء تظلم من ناحية الشرق فوق جزيرة هالدر، وبدأ سطح مياه القناة الهادئ تُعكره اضطرابات بسيطة غريبة، وعلى الرغم من أن الجو كان لا يزال مستقرًّا، فإني كنت أشعر وكأني في غرفة حارَّة بجوار صندوق ثلجي — كما لو أن أمرًا جسيمًا ومريرًا على وشْك الحدوث.

قبل الثالثة بقليل، حدث تطورٌ في الأحداث. سمعت صوت طلقة من خلفي، وعندما نظرت من فوق حافة السطح رأيت بعض شظايا حجرية متناثرة من إحدى زرائب الأبقار. أسرعت هابطًا من على السطح لأستطلع الأمر، واكتشفت أن الطلقة أُطلقت على لومبارد. كان قد تذكر أن موراج محبوسة في سقيفة الجبن، وأنها ربما كانت شديدة

العطش. فتوجَّه إلى هناك ليعطيها بعض الماء، ورآه أحد المراقبين فأطلق عليه طلقة تحذيرية جعلته يعود إلى مخبئه. كان المحاصِرون يأخذون عملهم على محمل الجِد.

بعد بضع دقائق، جاءنا الخبر الأول من الكلاب. عند الجرف الذي في اتجاه البحر شماليَّ المرفأ، رأينا مقدمة السفينة وهي تقترب. لم أكن قد رأيت السفينة تشالدار عن قرب مسبقًا، ولم أميزها في البداية. كانت تبدو وهي تقف في مرساها في جزيرة هالدر أصغر من الحقيقة. ولكني استخدمت نظارتي المقرِّبة لأقرأ اسمها. لم تكن ترفع أي أعلام؛ فقد أُزيل العَلم الدنماركي من على صاريتها …

لم أرَ السفينة وهي ترسو وتنزل قواربها إلى البحر. فبمجرد عبورها مدخل الخليج، تحوَّل الاكفهرار الذي يجثم على القناة إلى عاصفة عاتية. كدت أسقط من مجثمي لولا احتمائي بالمدخنة. وفي خلال دقيقة أو نحوها، تحوَّل العشب على سطح المنزل إلى اللون الأبيض بسبب كرات البَرَد التي في حجم بيض العصافير التي سقطت من السماء. واكتست الحديقة والشرفة وسفح التل بالثلج. ومع البَرَد، جاءت رياح قارسة تشقُّ جسدي كسكين. مرَّ نحوُ نصف ساعة قبل أن يمر الإعصار، وتمكنت من النظر في اتجاه البحر والرؤية بعد الرياح الشديدة التي أعمتني.

رأيت السفينة تشالدار وكانت مكسوَّة باللون الأبيض وكأنها قد انجرفت وهُجرت في الثلج القطبي، وكانت ترتجُّ بقوة وسط البحر الذي أصبح هائجًا وثائرًا فجأةً. كان السلم على ميمنتها مُدلًّى، ولكن لم يكن ثَمة أثر للقوارب. لا بد أنها رست على الشاطئ. تخيلت أني رأيت ثوبًا نسائيًّا يُرفرِف على سطحها … ثم نظرت إلى مقدمة المنزل حيث يوجد طريق يصعد من المرفأ حتى الشرفة. وفي اللحظة نفسها، رأيت رءوسًا تظهر على حافة الشرفة، وسمعت صوت جوردي هاميلتون يصيح مُهدِّدًا. فاختفت الرءوس من أمام ناظري. وجدت بقعةً أفضل للرؤية في ركن المدخنة وأمسكت بإحدى البندقيتين. فكرت في أنه يجدر بي أن أبدأ العمل الآن.

لم تكن جماعة السفينة تشالدار من الحمقى. لا بد أن بعضهم اتجه جنوبًا تحت الجرف حيث يتمركز مراقبهم بجوار خزان المياه، وعرفوا منه أماكن تمركز رجالنا. تمنيت لو أن جوردي حافَظ على سرية موقعه، ولكن من المؤكد أنه أظهر نفسه أمام المراقب الذي أخبر الوافدين الجدد بمكانه. على أي حال، كان ما سمعته لاحقًا صيحةً أشبه بخُوار ثور آتية من ناحية خيمة جوردي الصغيرة، ولمحت صراعًا فوضويًّا يحدث انتهى بصمت مفاجئ. لقد تغلَّبوا على الجندي الاسكتلندي، وها قد قلَّ عدد المدافعين الثلاثة واحدًا …

لم يتأخر الحدث التالي كثيرًا. فجأةً أصبحت الشرفة مزدحمة، ولم يواجه الوافدين الجدد أحد. لم يقلل دينجرافيل من قدر خصومه، فلِكَي يواجهنا نحن التعساء الثلاثة، أحضر معه على الأقل عشرين رجلًا. لم أحسب عدد الرجال الذين أراهم في الأسفل، ولكن كان عددهم كبيرًا، كما أن هناك مراقبين عليَّ وضعهم في حسباني. كان من الجلي أنهم يعرفون كل شيء عنا، وبدا أنهم يتصرفون بحريةٍ الآن بعدما تولَّوا أمر جوردي هاميلتون. كانوا يتبعون خطة موضوعة مسبقًا تعتمد على المعرفة الدقيقة بالمكان؛ فقد اتجه بعضهم نحو خلف المنزل، واتجه البعض الآخر نحو الرواق المؤدي إلى زنزانة الناسك، ولكن بقي أكثرهم عند قاعدة السلم المؤدي إلى مدخل المنزل الرئيسي. كانوا قد قسموا أنفسهم في مجموعتين تاركين ممرًّا ضيقًا بينهما، وبدا أنهم ينتظرون شخصًا ما.

سرعان ما ظهر مَن ينتظرونه. فعبر الممر الضيق، ظهر ثلاثة رجال. كنت واثقًا من معرفتي بالرجال الثلاثة؛ إذ كنت لا أزال أذكر أوصاف ساندي لهم. كان دينجرافيل هو ذلك الرجل طويل القامة الذي يرتدي قبعة البحارة والملابس الصوفية الرمادية، كان قد أطلق لحيته مجددًا وبدا أشبه بضابط بحري، إلا أن مِشيته الخفيفة النشيطة لم تكن مشية رجل اعتاد الإبحار. أما الرجل النحيل الأسود الشعر ذو الوجه الطويل الحادِّ القسَمات، فكان كاريراس الإسباني. ومن دون أدنى شك، كان الرجل النحيل، الذي يرتدي الحُلة الزرقاء المتسخة والقبعة المنسدِلة قليلًا على إحدى عينيه، هو مارتل البلجيكي.

كان انطباعي عن بقية الرجال عامًّا وغامضًا؛ فقد كانوا قساة وخشنين وعديمي الرحمة، لكن منظمين جدًّا. ربما كانوا مجرد عصابة من المجرمين، ولكنهم كانوا يطيعون الأوامر وكأنهم كتيبة من الحرس الملكي. ولكن ترك القادة الثلاثة أقوى وأوضح تأثير على عقلي. كانوا على بعد ثلاثمائة ياردة تقريبًا مني، ولكن كانت شخصياتهم طاغية وكأنهم معي في الغرفة نفسها. وصلني منهم انطباع لا يُقاوَم بحيوية مُفرِطة ولكن شريرة، شر مستطير. كان الشر يظهر جليًّا من قوام دينجرافيل المشدود، ومن طريقة وُقوفه التي تشبه وقفة نمر متحفز. كما كان الشر يشع من وجه كاريراس الأبيض القاسي. وكان الشر يشع بوضوح أكبر من هيئة البلجيكي مارتل الرشيقة اللئيمة. كان الأخير هو أكثر من كرهت. كان دينجرافيل هو الشيطان نفسه، وكان كاريراس شريرًا عاديًّا، أما مارتل فبدا كأحد مقاتلي الأباتشي، وفأر مجارير، ولص خبيث في الوقت نفسه.

كانوا يريدون التحدث إلينا. عندما خرجت من مخبئي خلف المدخنة، رأوني على الفور، ووجدت عشرين سلاحًا موجهًا نحوي. فألقيت بندقيتي ورفعت يديَّ إلى أعلى.

صحت بصوتٍ عالٍ ليسمعوني وسط الرياح الشرقية القوية: «هل تتكرمون أيها السادة وتخبرونني بما تريدون؟»

وجاء الرد من دينجرافيل. انحنى دينجرافيل أمامي وفعل رفيقاه المثل.

وقال بصوت مرح سمعته بسهولة إذ نقلته الرياح: «السير ريتشارد هاناي، أليس كذلك؟ نريد التحدث إلى السيد هارالدسن. ولكني أريد التحدث إلى اللورد كلانرويدن أولًا، توفيرًا للوقت والجهد.»

صحت قائلًا: «آسف. السيد هارالدسن ليس هنا. لقد غادر الجزيرة.»

رأيت من موقعي ابتسامة ترتسم على محيَّاه، وكذلك فعل رفيقاه. كانوا يعلمون يقينًا أني أكذب.

قال دينجرافيل: «يا للأسف! حسنًا، ماذا عن اللورد كلانرويدن؟»

هل يعرفون أن ساندي لم يأتِ؟ أم إنه سؤال مخادع للإيقاع بي؟ أم إنهم يعتقدون بالفعل أنه في المنزل؟ على أي حال، لم أكن لأعطيهم ما يريدون.

قلت: «إذا كان لديك ما تريد قوله، يمكنك أن تقوله لي. هيا قل ما لديك؛ فالبرد قارس.»

قال دينجرافيل: «إن أسطح المنازل ليست مكانًا مناسبًا للاجتماعات. ألن تنزل من مُستقرِّك يا سير ريتشارد؟ البرد قارسٌ اليوم كما قلت للتو، ويمكننا التحدث داخل المنزل.»

قلت: «حسنًا، سأنزل.» وعندما نظرت إلى الرجال الثلاثة، راودتني فكرة مفاجئة. كنت أنوي أن أطلب أن يكون دينجرافيل مبعوثهم عندما لاحظت أن مارتل يقف في موضع غريب مُمررًا ذراعه اليسرى أمام صدره لتقبض يدها على العضلة ذات الرأسين في ذراعه اليمنى. كنت قد رأيت هذا السلوك من قبل، فأيقظ في داخلي تخمينًا جامحًا. ربما كان يقصد بهذه الوضعية أن يعطيني إشارة. كان عقلي يائسًا، فقد بدت لي رغبتهم في الحديث دليلًا أكيدًا على رغبتهم في أن يُمْلوا علينا شروطًا تتعلق بالصغيرين، ولكنه لم يكن مُتبلدًا لدرجة ألا يلاحظ هذه الإشارة الصغيرة.

خاطبت دينجرافيل قائلًا: «يمكنك أن تتحدث أنت مع اللورد كلانرويدن. أما أنا فسأتحدث إلى ذلك الرجل الواقف على يسارك. اجعله يتقدم وسوف أسمح له بالدخول.»

قال دينجرافيل وقد علا صوته فجأة: «إن كان في الأمر خدعة، فستدفع ثمن ذلك من دمك. هل تفهم؟»

«نعم أفهم. سأترك الباب مفتوحًا حتى يمكنك رؤيتنا، ويمكنك أن تطلق النار عليَّ إذا ما شعرت بأن ثمة أمرًا غريبًا يدور.»

هبطتُ الدرج وشعور مقيت بالخواء يملأ صدري. كان آرن العجوز مكلفًا بحراسة المدخل الرئيسي للمنزل فبنى متراسًا قويًّا من الأثاث استغرق مني بضع دقائق لإزالته. عندما فتحت الباب وضربت الرياح الشرقية وجهي، رأيت أن الرجال الثلاثة قد اقتربوا — أصبحوا قريبين من قاعدة الدرج. أشرت إلى مارتل.

وقلت: «انتَظِرا هنا. سأدخل وهذا الرجل إلى الرَّدهة اتقاءً للرياح. وسنكون في مرمى بصركما.» استدرت وعُدت إلى داخل المنزل. سمعت صوت خطوات على الحجارة وتنبَّهت إلى أن مارتل قد تبعني. كان قلبي يخفق بقوة، فقد كنت متيقنًا من أن كلماته الأولى ستتعلق بالصغيرين وبالثمن الذي نحن على استعداد لدفعه مقابلهما.

استدرت لأواجهه. وسألت: «حسنًا؟ ماذا تريدون؟»

ثم لم أدرِ ماذا عليَّ أن أقول.

قال الرجل الذي يُدعى مارتل: «ديك، صديقي، لقد صعَّبنا الأمور على أنفسنا جدًّا.»

الله وحده يعلم كيف تمكَّن من فعل ذلك. لم يكن تنكرًا عاديًّا، فلم يكن يضع شاربًا مستعارًا أو صبغ شعره أو أي شيء من هذا القبيل. ولكنه تمكَّن من جعل نفسه يبدو منحطًّا ببراعة — هذه هي الطريقة الوحيدة للتعبير عن الأمر. كان مظهره بالكامل — حاجباه المائلان، عيناه الثاقبتان، فمه الماكر، كتفاه المنحنيتان — لئيمًا وشريرًا؛ لأنه كان يريد أن يبدو هكذا. ولكن عندما نظر إليَّ مباشرةً بذلك البريق المألوف في عينيه وتلك الشِّفاه المجعدة الشيطانية، رأيت أقرب صديق لي في العالم بأسره.

وبدت لامبالاته المعروفة عنه في عينيه للحظة. ثم بدت الجِدية في عينيه.

وقال: «يجب أن ننهي حديثنا بسرعة؛ فلا يوجد أمامنا كثير من الوقت. لقد أفسدت بعضًا من خططهم، وأعتقد أني فعلت ذلك ببراعة. أولًا: فلتُرِحْ بالك. بيتر جون والفتاة آمِنان ... حتى الآن على أي حال.»

قلت في سعادة: «حمدًا لله!» وضعت كلماته عن كتفيَّ حملًا ثقيلًا وعادت إليَّ ثقتي. إلا أن كلمات ساندي التالية أصابتني بالحيرة.

«لقد حققت أغلب ما كنت أصبو إليه؛ فقد جعلت بارالتي وجماعته يشعرون بالرعب. ولن يرتكبوا مزيدًا من الجرائم التعسفية! وهم الآن جالسون في السفينة تشالدار غارقين

في عرَقهم مذعورين … لقد جمعت ضدهم أدلةً كافية ستجعلهم مستقيمين لما تبقَّى من حياتهم، ووقعت يداي مصادفةً على أدلة تودي بدينجرافيل وأغلب عصابته إلى حبل المشنقة. هل تعلم أننا حتى هذه اللحظة لم نكن نملك شيئًا ضده قد تقتنع به أي محكمة؟ لذا، كان عليَّ أن أجعله يُورِّط نفسه بنفسه. هل تفهم؟ كان عليه أن يهاجم هارالدسن في جزيرته، وأن يستعرض قوته لمرةٍ واحدة أخيرة. حسنًا، اعتقدت أني تمكنت من توريطه. وكنت أعتمد على أن يوفي هارالدسن بوعده وأن يجهز عددًا كبيرًا من سكان الجزيرة الشباب ليدافعوا عنه. كنت أعرف خطط دينجرافيل، كَوْني ضابطه الأول؛ ومن ثَم أُفسدها. ولكن، يا للعَجب! عندما وصلت إلى هنا، لم أجد أحدًا في الجزيرة سوى العجائز، كان المكان برُمَّته غير محمي وكأنه حوت قد جنح للشاطئ لينتحر.» توقف ساندي عن الحديث وتشمم الهواء وقال شيئًا غريبًا. قال: «هذا طقس مثالي لصيد الحيتان. يا إلهي، سنكون محظوظين إن كان كذلك.»

ثم سأل: «أين هارالدسن؟» أخبرته بمكانه فأومأ برأسه. وقال: «أتمنى أن يظل حيًّا … اسمع يا ديك. الخطة التي وضعتها تتمحور حول تشجيع دينجرافيل على مهاجمتكم حتى يدين نفسه. ولكن قبل أن يسبب أي ضرر، سيصل رجالكم ويوقفونه. حسنًا، هذا لن يحدث، فلا رجال لديكم. لقد تحدثت إلى المدمرة الدنماركية التي تحرس سواحل الصيد. إنهم آتون إلينا، ولكنهم آتون من ويستمانس، ولن يتمكنوا من الوصول قبل منتصف الليل. وهذا سيمنح دينجرافيل الوقت الكافي ليسبب ضررًا كبيرًا. حاولت أن أؤجل الهجوم، وتمكنت من تأجيله حتى هذه اللحظة — كان من المفترض أن يحدث الهجوم صباح اليوم — لأني جعلتهم يبحثون عن الصغيرين. ولكن لا مناص من حدوثه الآن. ثَمة سبع ساعات أو ثمانٍ حتى منتصف الليل، وهذا وقت يكفي لأن يذبحنا دينجرافيل جميعًا إذا أراد. وإذا ما أمسك بهارالدسن، فسوف يجعله يعاني بشدة. إذا كان الأمر يتعلق بك ولومبارد فقط، فربما كان يرضيه نهب المنزل. لِكَمْ من الوقت يمكنكم أن تصمدوا؟»

قلت: «ساعة واحدة على ما أعتقد. إننا لا نملك أي قوة بشرية لصدهم. كما أنهم متمرسون، ولن يمنحونا الفرصة لاقتناصهم الواحد تلو الآخر.»

قال ساندي: «لا لن يفعلوا. إذا ما تمكنتم من الصمود لثلاث ساعات، فربما نتمكن من تنفيذ الخطة … سأعود وأخبر دينجرافيل بأنك لن تستسلم. سأقول إنك لن توافق على أي شروط من دون إذن هارالدسن، وإنه ليس موجودًا على الجزيرة، وإنك ستبذل أقصى ما في وسعك لتدافع عن منزله في غيابه. سأحاول أن أُعقِّد الأمور على الجانب الآخر.

سأعود إليك في وقتٍ ما، ولكني سأختار هذا الوقت … الوقت الذي أرى أني سأكون فيه ذا فائدةٍ كبيرة. إذا ما اكتشف دينجرافيل أنه قد خُدع وتمكن من الإمساك بي، فسيقتلني، ولن تكون جثتي ذات فائدة تُذكَر لكم.»

بينما كان ساندي يتحدث، قفزت إلى خيالي ذكرى حية لربوةٍ تكسو الأشجار قمتها تحت ضوء القمر الأفريقي حين كنا ندافع عن هارالدسن الآخر، حيث عرَّضت أنا ولومبارد حياتنا للخطر. بدا لي الأمر وكأني قد فعلت كل هذا من قبل، وأني أعرف ماذا سيحدث لاحقًا، وتلك المعرفة المسبقة منحتني الثقة. ولا بد أني ابتسمت؛ فقد رمقني ساندي بحدة.

وقال: «إنك تستخفُّ بالأمر يا ديك. أنت تعرف مدى خطورة موقفنا، أليس كذلك؟ أملنا الوحيد هو وصول السفينة الدنماركية عند منتصف الليل. إذا ما صمدنا حتى ذلك الوقت، فسننتصر. يجب أن أنصرف.» لوَّح ساندي بيده إلى دينجرافيل الذي يقف عند قاعدة السلم واستدار لينصرف. وكانت كلماته الأخيرة كالآتي: «أبعدْ هارالدسن عن المشهد أرجوك. إنه نقطة ضعفنا.» هبط ساندي درجات السلم، وبعد ثانية كنتُ قد أغلقت باب المدخل الضخم من خلفه وأحكمت إغلاق الترابيس. تركت آرن العجوز يعيد تكديس المتاريس وصَعِدت إلى مكمني خلف المدخنة، وكنت أنوي أن أطلق عليهم بعض الطلقات. رأيت ساندي يتحدث إلى دينجرافيل وكاريراس، وقد عاد مرةً أخرى ليبدو ذلك السفاح.

فجأةً، في لحظة هدأت فيها الريح، رنَّ صوتٌ عالٍ، صوتٌ آتٍ من جهة الشمال، من ناحية زنزانة الناسك عند نهاية الرواق.

صاح الصوت قائلًا: «ابتعدوا عن الشرفة. عودوا إلى زرائبكم أيها الخنازير وإلا فسأطلق النار.»

كان هذا هارالدسن — لا يمكن لأذني أن تخطئ هذا الصوت — ولكن بدا وكأنه قد اكتسب نبرةً ومدًى خارقَين؛ فقد ملأ المكان مثل هدير أمواج البحر داخل خليج صغير. كان مُجرِمو دينجرافيل معتادين على اتخاذ سواتر، وفجأة قلَّ عدد العصابة؛ فقد تباعدوا فيما بينهم وزحفوا على الأرض مثبتين أعينهم على الشمال. جميعهم فيما عدا واحدًا … كاريراس. لا أعلم ماذا حلَّ بالرجل. ربما كان يبحث عن ساتر بين درجات السلم والمنزل؛ على أي حال، تحرك الرجل نحو الأمام بدلًا من الخلف. دوَّى صوت طلقة، وقفزت إحدى ذراعيه من مكانها ودار حول نفسه نصف دورة نحو اليسار، ثم سقط على وجهه.

في لمح البصر، كان جميع الرجال جاثمين على الأرض، وزحفوا وهم على هذه الوضعية نحو جدار الشرفة الذي سيحميهم من طلقات البندقية القاتلة. ثم تحدَّث الصوت مرةً أخرى، وفاجأ ما قاله أحد الرجال الجاثمين على الأرض، على الأقل.

فقد صاح قائلًا: «كلانرويدن. عُد ثانيةً إلى المنزل! أسرع يا رجل! افعل كما آمرك. لن يمكنني أن أتولى أمر هؤلاء الحثالة إذا كان في وسطهم صديق لي.»

كيف عرف مَن يكون مارتل حقيقةً، لا أعرف. ولكنه كان تصرفًا غبيًّا، وكاد أن يودي بحياة ساندي نتيجةً له. كانت عبارة «عُد ثانيةً إلى المنزل» هي الخطأ؛ فقد جعلت دينجرافيل يكشف هُوية مارتل، في حين كانت من الممكن أن تبدو محض خدعة. على أي حال، فكَّر ساندي في المثل؛ فقد فزعت عندما رأيته يقف على قدميه من خلف أجمةٍ من أشجار الصفصاف القطبي. كان يعلم أنه في خطر، فاستدار وتحرَّك مسرعًا بشكلٍ جانبي مثل الأرنب. شعرت بصدمة ممزوجة بالخوف؛ فلم أكن أستطيع الوصول إلى الباب الرئيسي في الوقت المناسب، كما أن هناك المتاريس التي وضعها آرن وراء الباب: كانت مقدمة المنزل خالية من أي ساتر، وحتى يتمكن من الالتفاف حوله، سيكون هدفًا سهلًا لبنادق الأعداء. ولكن طلقةً واحدةً فقط أُطلقت عليه، وأنا على يقين أنها لم تأتِ من بندقية دينجرافيل، فلا بد أنه كان واثقًا من أنه سينتقم بكل سهولة. لم تُصِب الطلقة هدفها، وأعتقد أن سبب ذلك هو أن الهارب تعثَّر في جثة كاريراس وسقط لحظة إطلاقها. وفي غضون ثوانٍ، أصبح ساندي خارج نطاق رؤيتي. سيكون آمنًا خلف المنزل في الوقت الحالي، إلا إذا التقى أحد مراقبيهم خارج موقعه.

خرج ساندي من تفكيري في هذه اللحظة أيضًا؛ فقد أصبح انتباهي بأكمله مُنصبًّا على دينجرافيل. استتر دينجرافيل وقواته الرئيسية خلف جدار الشرفة، بعيدًا عن طلقات بندقية هارالدسن، وأدركت بوضوحٍ ما ينوي فِعله. كان من الغباء محاولة حصار هارالدسن من الجانب ومن الخلف. كان باب الزنزانة ونافذتها يُطلان على جهة الجنوب، ويمكن لهارالدسن أن يحرسها في هذا الاتجاه، ولكن ماذا سيفعل لو جاء الهجوم من أعلى عبر السطح المكسو بالعشب؟ يمكن لثلاثة رجال أقوياء أن يزيلوا العشب من على السطح في غضون خمس دقائق.

حشر شخصٌ نفسه بجواري خلف المدخنة. وقال ساندي: «لقد نجوتُ بشق الأنفس. لقد اخترقت الطلقة جيبي. لو لم أتعثر وأنقلب على جانبي، لكنت في عِداد الموتى ... ما الذي ينوي صديقنا فِعله؟ آه، فهمت. حريق. سيحرقون العشب ويخرجونه من مكمنه

بالدخان. هذا أسوأ ما قد يحدث. كان على هذا الأحمق أن يظل مختبئًا في وَكْره بدلًا من أن يحاول أن يكون بطلًا. لقد جُن. هل سمعت صوته؟ هذا صوت رجل مجنون بلا أدنى شك. كما أنه وشى بي، ذلك الأحمق، ولا أعلم كيف تعرَّف عليَّ! دليلٌ آخر على جنونه! لقد انقلبت الأوضاع في غير صالحنا يا ديك. في خلال نصف الساعة، سيُمسِك بهارالدسن، وسرعان ما سيمسك بي، ولن يكون رحيمًا مع أيٍّ منا.»

خيَّم ظلامٌ مؤقَّت بسبب غيمة حرَّكتها الرياح الشرقية، ولم أعد أرى من مكمني على سطح المنزل سوى السماء الملبَّدة بالغيوم والبحر الأسود المضطرب. كانت الشرفة خالية، ولكني تمكنت من رؤية ما يدور خلفها، وراقبت ما يحدث بعينَي مُشاهِدٍ مشدوه في قاعة سينما، وراعني ما رأيت، ولكني كنت أدرك في عقلي الباطن الحيلة المرجوَّة من كل ما يحدث. رفض عقلي أن يتقبل هذا العالم المجنون الذي ضللت طريقي فيه على أنه واقع، رغم أن المنطق أخبرني بأنه واقع كئيب لا شك فيه. لمحت الخيالات الواحد تلو الآخر بين الشُّجيرات القصيرة والأراضي المنخفضة التي تقع شمال وشرق زنزانة الناسك. ثم لفتت صيحة من ساندي انتباهي إلى الزنزانة نفسها. كان ثَمة رجل يقف على سطحها ويسكب شيئًا من دلو. همس ساندي: «بنزين. كان تخميني صحيحًا. سيُخرجونه من مكمنه باستخدام النار.»

اندلع لسان من اللهب تحوَّل على الفور إلى كرةٍ من النار. وحملته هبةٌ من الرياح إلى أعلى مُشكِّلًا لولبًا ذهبيًّا طويلًا. وتحتي مباشرةً، رأيت رجالًا يَظهرون في الشرفة مجددًا. فقد أصبح الوضع آمنًا بالنسبة إليهم الآن، فلم يكن هارالدسن قادرًا على إطلاق النار عليهم من داخل هذا الفرن المحترِق.

كان دينجرافيل ينظر إلى الأعلى نحونا؛ فقد خمَّن أين قد يتخذ ساندي ساتره.

صاح دينجرافيل قائلًا: «لورد كلانرويدن، لقد وفيت بوعدك. أنا سعيد أنك فعلت، فهذا المكان ممل من دونك.»

أظهر ساندي جسده بالكامل.

وقال: «شكرًا لك. أحب أن أفي بوعودي.»

واصَل دينجرافيل حديثه بصوته المرح قائلًا: «لقد نجحت خدعتك الأولى. لقد تمكنت من خداعي بمهارة، وأنا لست ممن يمكن خداعهم بسهولة. عليَّ أن أمدحك على ذلك. ولكني لا أعتقد أنك ستنتصر في النهاية. بعدما نمسك بهذا المجنون، يُسعدني أن آتي إليك بنفسي.»

قلت سابقًا إن صوته مرح، ولكن من المؤكَّد أنه أصبح الآن ناعمًا ولطيفًا بشكل غريب، رغم وضوحه. ولكن كانت ثَمة نبرةٌ غادرة فيه مثل خرخرة القطط. كان يقف ومن حوله طاقمه المتوحش، أنيقًا، ومبتهجًا، وواثقًا، دون ذرَّة من شفقة. ألقى مظهره الخوف في قلبي. لن يمر وقت طويل قبل أن نصبح تحت رحمته، والأمل الوحيد في نجدتنا يبعد عنا ساعات، ساعات طِوالًا. لم أكن قلقًا على نفسي، أو حتى على هارالدسن الذي بدا أنه لم يعد بين الأحياء حاليًّا، ولكني لم أرَ شيئًا في عينَي ساندي سوى الدمار؛ فقد تراهن رجلان على حياتيهما ... والصغيران! ما المخاطر التي يواجهانها على هذه الجزيرة الملعونة وأين؟

فجأةً، تردَّد صدى زئير قوي علا فوق صوت الرياح، وكان صوت دينجرافيل زقزقة عصفور مقارنةً به. كان الزئير أشبه بهُتاف حماسي، كما لو أن زعيمًا من زعماء الفايكينج يصيح وهو يهاجم أعداءه في معركته الأخيرة. خرج هارالدسن من الزنزانة. كانت النار المشتعلة في السقف تُلقي بضوئها على جسده الذي كانت جميع تفاصيله واضحة. كان يرتدي ملابسه النوردية الغريبة، ولمعت أبازيم الأحزمة والأزرار الفضية في بريق النار. كان جزءٌ من وجهه مسودًّا بفعل الحريق وباقيه شاحبًا. وكان شعره الأشعث أشبه بإكليل من أوراق الشجر على قمة شجرة صنوبر طويلة. لم يكن يحمل سلاحًا، ورفع يديه أمامه كما لو كان كفيفًا يتلمس طريقه. ولكنه كان يتحرك كجلمود صخر يتدحرج من على جبل، وبدا وكأن ثانية واحدة قد مرت قبل أن أجده تحتي مباشرة في الشرفة.

لم يكن ثمة شك في هدفه من هذا الفعل. لقد أصيب الرجل بالجنون وأصبح مستعدًّا لمواجهة أي عدد منهم بقبضتَيه العاريتين. إذا كنت قريبًا منه بحيث أرى عينيه، فأنا واثق من أنهما ستكونان ثابتتين متحجرتين وكأنهما زجاجيتان ... رأيت في مدينة بييرا ذات مرة أحدَ أفراد قبيلة المالاي اندفع كالمجنون وراح يقتل كلَّ من يصادفه بسكين ضخم حمله في يده. كان الحشد الذي تعرَّض لهجومه مسلحًا بالكامل، إلا أن الغريب في الأمر أن أحدًا لم يطلق النار عليه، وكان قد ذبح رجلًا وشجَّ جمجمتَي اثنين آخرين قبل أن يُعرقله بحارٌ ثَمِلٌ اندفع من شارع جانبي فاصطدم به وأوقعه أرضًا دون أن تكون لديه أدنى فكرة عمَّا يحدث. هذا بالضبط ما حدث الآن. كان ثَمة رجال من خلفه يحملون أسلحة، ويوجد عشرون رجلًا في الشرفة يحملون البنادق والمسدسات، إلا أن سلوكه العاصف هذا ووجهه الذي حمل أمارات الموت مكَّناه من المرور عبرهم دون أن يعترضه أحد. بدوا وكأنهم أصيبوا بالشلل مثلما يحدث لمتسلقي الجبال الذين يعلَقون في طريق انهيار ثلجي، كما قيل لي.

لا بد أن ما حدث لاحقًا استغرق دقائق كُثرًا، ولكنه بدا لي وكأنه حدث في لحظة واحدة. لم أدرِ بما يحدث إلا بعدما انتهى، وشعرت بأظافر يد ساندي التي تقبض على معصمي تنغرس في لحمي من فرط الإثارة ... كان دينجرافيل يقف في طليعة مجموعة صغيرة أحاطت به عندما اقترب منه هارالدسن كالعاصفة. أزاحهم هارالدسن عن طريقه وكأنهم أوراق شجر ذابلة، ولكني لم أدرِ إن كان تغلُّبه عليهم بدنيًّا أم معنويًّا. ثم حمل دينجرافيل بين ذراعَيه مثلما قد أحمل طفلًا صغيرًا ابن ثلاث سنوات. في هذه اللحظة، وليس قبلها، دوَّى صوت طلقة. كان دينجرافيل هو من استخدم سلاحه، ولكني لا أعلم ماذا أصابت الطلقة. ولكني واثق من أنها لم تُصِبْ هارالدسن.

رفع هارالدسن أسيره نحو السماء كما لو كان كاهنًا يقدم قربانًا. مدَّ هارالدسن قامته لأقصى ارتفاع لها، وبدا لعينيَّ الخائفتين أضخم من البشر. حرَّر دينجرافيل جزءًا من جسده من قبضة هارالدسن، وبدا لي كأن هارالدسن ألقاه في الهواء ثم التقطه وأحكم قبضته عليه بقوة أكبر. بعد ذلك استدار هارالدسن نحو الشمال مرة أخرى، وبدأ يعدو عائدًا أدراجه إلى زنزانة الناسك.

ثم بدأ دويُّ طلقات الرَّصاص. كان الرجال المتمركزون في الشرفة يُصوِّبون أسلحتهم على ساقَيه، رأيت طلقات البنادق تثير التراب في أحواض الزهور. ولكن لم يتمكن أيٌّ منهم من إصابته لسبب مجهول. حاوَل الرجال بالقرب من الزنزانة أن يوقفوه، ولكنه داسهم تحت قدميه دون عناء. واحدٌ منهم فقط هو من تمكَّن من إطلاق النار، ووجدنا أثر هذه الطلقة فيما بعدُ حيث صنعت أخدودًا عبر شعره ... تمكَّن هارالدسن من تَخطِّي هؤلاء الرجال، ووصل إلى الزنزانة المحترقة حيث كانت عارضة سقفها الأخيرة تسقط إلى داخل الحفرة المشتعلة. ظننتُ للحظةٍ أنه سيُلقي دينجرافيل فيها، والذي لا بد أنه أصبح نصف ميت الآن بسبب تلك الضمَّة الجبَّارة بين ذراعَي هارالدسن. ولكنه لم يفعل. بل تجاوز الزنزانة وانحرف يمينًا نحو السهول المُطلة على البحر.

أصبح الآن خارج مجال الرؤية من الشرفة، ولكنه دخل في مجال رؤيتي وساندي من فوق سطح المنزل. ربما يجدر بنا أن نشطب اسم دينجرافيل الآن، فلا أمل في نجاته. لم يبطئ هارالدسن من سرعته على الإطلاق. كان يقفز قفزاتٍ كبيرةً فوق الأخاديد والصخور، وبسبب بعض ألاعيب الضوء، بدا كأنه يزداد ضخامة بدلًا من أن يصغر كلما ابتعد؛ لذا عندما وصل إلى حافة الجرف كانت معالم جسده غير واضحة أمام السماء، وكان عملاقًا.

ثم تذكرت واحدة من حكايات الجزيرة التي أخبرنا بها إبَّان وصولنا، والتي حكاها باستمتاع وواقعية وكأنه شهدها بعينيه. كانت حكاية هالوارد سكالسبليتر الذي أغار على

جزيرة الخراف منذ ألف عام وخرَّبها بلا رحمة. ولكن عزَلته عاصفة عن سفنه مع اثنين من رفاقه، وثار عليهم سكان الجزيرة، وربطوا أيدي مقاتلي الفايكينج وأقدامهم وألقوا بهم من فوق جرف فولنس في البحر ... كان جرف فولنس هو ما أنظر إليه الآن، حيث يمتد المدخل الأرضي للمرفأ إلى جرف يُطل على البحر بعلو ثلاثمائة قدم.

كان تخميني صحيحًا. اعتقدت في البداية أن هارالدسن ينوي إنهاء حياته أيضًا. ولكنه عدَّل من وضعية جسمه على حافة الجرف، وأرجَحَ دينجرافيل بين ذراعيه القويتين، ثم ألقى به من فوق الجرف. وقف هارالدسن للحظات موازنًا نفسه على حافة الجرف ينظر نحو الأسفل إلى قاع الجرف. ثم استدار وبدأ يعرج عائدًا أدراجه. ثَبَّتُّ نظارتي المقربة عليه ورأيت أنه سقط على المرج الأخضر وكأنه ميت.

لا شك في أن هذه الأحداث الدرامية الرهيبة من شأنها أن تترك المرء عاجزًا ومرهقًا. مات دينجرافيل، لكن عصابته لا يزالون أحياءً، وسيكونون حاليًّا أكثر استماتة مما سبق، فلم يعد ثَمة قائد يفكر بدلًا منهم. كانت حياتنا لا تزال على المحك، وأصبح من المهم وضع خطة للتخلص منهم. ولكن تمسكت وساندي أحدنا بالآخر في إرهاق كما لو أننا مصابان بالدُّوار.

قال ساندي أخيرًا: «يا له من شيطان مسكين! لم يكن يعرف ما سيحل به. لا بد أن عناق هارالدسن القوي أفقده وعيه.»

قلت: «ربما كنا أقل عددًا، ولكن لدينا وحشًا مسعورًا في صفنا.»

«لا أعتقد ذلك. لقد انتهت ثورته. وعاد إلى طبيعته إلى حدٍّ ما، واستعاد سيطرته على نفسه مجددًا.» أخرج ساندي ساعته. وقال: «لم نصل إلى السابعة حتى! علينا أن نواصل صد الذئاب لخمس ساعات أخرى. ذئاب جائعة بلا قائد ... مزيج خطير! ... يا إلهي! ما هذا؟»

كان يحدق نحو الجنوب، وعندما نظرت في الاتجاه نفسه، رأيت مشهدًا حبس أنفاسي. كان اللهب الذي يحرق زنزانة الناسك نحو الشمال يلفظ أنفاسه الأخيرة، ولكنه كان يبدد عتمة الغسق في هذا الاتجاه، ولكن ناحية الجنوب، كان ثمة شيء يبدد العتمة وكانت دائرة السماء الصافية تتسع. كانت معالم السهول الجنوبية تظهر بوضوح في مقابلها. وفي تلك الواحة من النور، رأيت أمرًا غريبًا ... كان في البحر أسطول صغير من القوارب يقترب من المرفأ في صف طويل، وكان ثمة قارب أو اثنان يبحران بمجاديف كبيرة ويتجهان نحو الشاطئ مباشرةً. من فوق التل، تحرَّك جيش لا يقل عدده عن مائة من الرجال الأقوياء

مرورًا بخزان المياه وانتشروا على المرج، وكانوا شُعثًا غُبرًا مغطَّينَ بالدماء، ويحمل كلٌّ منهم رمحًا يقطر دمًا.

لم أتمكن من استيعاب المشهد، ولم أقوَ على شيء سوى المشاهدة واللهاث. بدا الأمر وكأن جماعة من الغيلان قد قفزت من تحت الأرض فجأةً، فلم أرَ في هؤلاء الرجال أي دلالة على أنهم من البشر. كانوا يرتدون الملابس النوردية التي تشبه ملابس الغيلان، والتي أصبحت الآن ملطخة بالطين والدم بصورةٍ غير معقولة، وكان شعرهم وأعينهم تجعلهم أشبه بتلك الكائنات الوحشية التي تعيش في التلال، والصيحات التي كانت تخرج من حناجرهم لم تكن لتخرج من أُناس قادرين على الكلام، وكان كلٌّ منهم يتقلد رمحه اللامع المخضَّب بالدماء ... رأيت خيالات القوارب وهي تدخل المرفأ، ويُغِير ركابها على السفينة تشالدار وكأنهم سكان جزر من آكلي لحوم البشر يُغِيرون على سفينة تِجارية. ورأيت خيالات رجال دينجرافيل الواقفين تحتي يُلقون نظرةً واحدةً على ذلك الهجوم الدامي ثم يعْدُون في هياج نحو الشاطئ. لم ألُمهم. فقد جمدت رؤية هذا القطيع الهائج الدم في عروقي.

سمعت ساندي يغمغم بصوتٍ خافت: «يا إلهي، لقد أتت حملة صيد الحيتان.»

لم أفهم ما يقول، ولكني فهمت أن شيئًا أتى. وفي طليعة جيش الغزاة، رأيت أنَّا وبيتر جون.

الفصل السادس عشر

لغز اللوح

لطالما تساءلت عن كيفية تعريف شجاعة المجرمين الأشقياء. فبلا أدنى شك أصبحوا يزدرون أنواعًا بعينها من المخاطر التي ألفوها والتي فقدت في أعينهم ذلك الرعب الذي يسببه المجهول. ولكنها ليست حالة ذهنية يُعتمد عليها، فهم عادةً ما يُصابون بالشلل بسبب أمور لم يتوقعوها؛ ومن ثَم يقعون في حالة من الذعر إذا ما واجهوا أمرًا لم يألفوه. كان أول أمر غريب يواجهونه هو هِياج هارالدسن واندفاعه نحو دينجرافيل وانتزاعه من وسط عصابته، وكان ثاني أمر غريب يواجهونه هو هجوم عشرات النورديين الملطخين بالدماء على الجزيرة مما جعل أوصال أفراد العصابة تنتفض رعبًا. لا شك في أن هذا المشهد كان أكثر مشهد وحشي رأيته في حياتي، ومَن ذلك الرجل الصلب الذي قد يواجه جيشًا كابوسيًّا من الغيلان الملطخة بالدماء؟ في واقع الأمر، حاول اثنان من أفراد العصابة أن يقاوموا من خلال إطلاق النار من سلاحيهما، وقضيا نحبهما على الفور بالرماح مثلما تُقتل حيتان الطيار. كنت أشك في أن النورديين يدركون ما يفعلون. فقد تقمصوا شخصيات أسلافهم مثلما حدث مع هارالدسن؛ أصبحوا هم أنفسهم أسلافهم الذين عاشوا منذ ألف عام وها هم يقضون على غزوٍ من القراصنة.

لم تُسَأ معاملة بقية أفراد العصابة الذين استسلموا كالخراف، ولكنهم قُيدوا بالحبال المصنوعة منزليًّا التي يحملها جميع النورديين كما لو كانوا حزمًا من القش. تصرفت المجموعة التي اجتاحت السفينة تشالدار بحذر شديد. أعتقد أن هيبة السفينة البخارية الحديثة قد أخرجتهم من ثورتهم البدائية أسرع من أقرانهم على اليابسة. فقد تعاملوا بتحضر مع بارالتي وأصدقائه رغم عدم قدرتهم على التواصل لغويًّا، وحركوا السفينة إلى مرسى أفضل وتركوها على حالها دون مساس، ثم هبطوا إلى الشاطئ برصانة ليتحدثوا إلى بقيَّتنا.

بما أن حالة الهياج لم تستغرق وقتًا طويلًا لتنحسر. فإن حالة هارالدسن كانت غريبة. بمجرد أن رأيت أنه لم يعد ثمة خوف من حدوث مقاومة، وأن النورديين على استعداد لتنفيذ أي شيء تأمرهم به أنَّا، اتجهت وبيتر جون إلى قمة الجرف، فقد بدا أن هارالدسن هو المشكلة الكبيرة الوحيدة المتبقية. وجدته جالسًا على العشب فاركًا عينيه بقبضتيه الضخمتين مثل طفل ناعس. وأعتقد أن رؤية بيتر جون الذي لطالما كان صديقه المقرَّب هي ما أعادته إلى أرض الواقع.

قال الصبي: «أنَّا بخير ما يُرام يا سيدي. إنها هناك في الأسفل قائدة على جميع النورديين.»

قال هارالدسن: «جيد! سيُنفِّذون كل ما تأمرهم به. هل أتت حملة صيد الحيتان إلى جزيرتي؟»

أومأ بيتر جون برأسه أن نعم.

قال هارالدسن: «إنها المرة الأولى منذ عشرة أعوام. يجب أن أهبط وأرتب أمر الطعام والشراب. إن صيد الحيتان عمل يسبب الجوع والعطش، وكذلك القذارة.»

كان لا يزال يجمع شَتات نفسه، وحاولت أن أساعده في ذلك.

فقلت: «أنت آمن، والمنزل آمن، واللورد كلانرويدن وجميعنا آمنون. يجب ألا تفكر في هذه المشكلة مرةً أخرى.»

قال مكتئبًا: «يسعدني ذلك. فقد حدث كثير من الأمور الكريهة. أين الرجل الطويل ذو اللحية؟»

قلت: «مات في البحر.»

فردَّ بإجابة غريبة؛ إذ قال: «يجدر به أن يكون هناك.» ثم استدرك: «لقد أتى من البحر، وها قد عاد إليه.»

تثاءب هارالدسن وارتخت أطرافه، وقبل أن تمرَّ خمس ثوانٍ، غطَّ في نوم عميق. ولم أجرؤ على إيقاظه. تحلَّقنا حوله، وحملناه نحو المنزل حيث وضعناه في فراشه ونام طوال اثنتين وثلاثين ساعة. استيقظ هارالدسن يتضور جوعًا، واستحمَّ وحلقَ لحيته، ثم تناول كثيرًا من لحم البقر وأفرغ في جوفه ثلاثة أكواب من القهوة. لم يتذكر أيًّا مما حدث منذ علمه باختفاء الصغيرين واستيقاظه في فراشه، ولم أرغب في أن أكون أنا مَن يخبره بما حدث. ولكن كانت ثَمة فائدة وحيدة لحالة الهياج التي حدثت له: أنها جردته من جبنه إلى الأبد. فقد أصبح الآن متماسك الأعصاب وواثقًا مثلما كان والده تمامًا، بل أكثر هدوءًا أيضًا.

وصلت سفينة الصيد قبل منتصف الليل بساعة، وقبل وصولها كنا قد تناقشنا، ليس فيما بيننا فحسب، بل مع جماعة السفينة تشالدار أيضًا، واتفقنا على قصة موحدة نقصها. لم يُحبِّذ أيٌّ منا نشر القصة الحقيقية في جميع أنحاء العالم. خرج بارالتي وجماعته في رحلة بحرية مع دينجرافيل الذي أجبر طاقمه على الهجوم على جزيرة الخراف لغرض في نفسه. ولكن بارالتي وجماعته رفضوا النزول إلى شاطئ الجزيرة، ولم يروا شيئًا مما حدث. ولحسن الحظ، قلب ظهور حملة صيد الحيتان المفاجئ الأمور رأسًا على عقب. وقابل الصغيران سكان الجزر المجاورة وقادوهم إلى المنزل الذي كنا ندافع عنه باستماتة. أطلق هارالدسن النار على أحد المهاجمين، ثم صارَع دينجرافيل على قمة الجرف، الأمر الذي نجم عنه أن لقي الأخير مصرعه. (قدَّم ساندي ملفًّا عن دينجرافيل من شأنه ألا يجعل أحدًا يندم على وفاته.) تسبَّب وصول سكان الجزر في استسلام جماعي للغزاة، ولا توجد خسائر في الأرواح فيما عدا اثنين من الغزاة فقط.

كانت عصابة دينجرافيل مؤلفة من مجرمين من عدة أعراق سُلموا إلى محكمة كوبنهاجن لتصنيفهم والتعامل معهم. وكان أغلبهم مطلوبين للعدالة في دولهم. أما السفينة تشالدار التي استؤجرت باسم تروث، فكانت تُدار بواسطة طاقم بحري عادي ولا علاقة لها بعملية القرصنة، ورُتب الأمر بحيث تعود إلى أبردين تحت حراسة المدمرة الدنماركية.

صاحَبَ انقشاعَ مخاوفنا انقشاع الغيوم من السماء. وبدا أن النورديين يسبحون في منطقةٍ طقسُها مبهج؛ شمس بالنهار، وبحر هادئ، وأمسيات رائعة مُضاءة بنور ذهبي. كان أول ما فكرت فيه عندما وصلت إلى هنا هو أني خرجت من العالم، ثم اكتشفت الآن أني بلا شك خرجت من العالم إلى كابوس مرعب. والآن، بعدما انتهى الكابوس، أصبحت الجزيرة مكانًا مبهجًا، يستحق أن نعيش فيه الحياة بصحبة أمواج البحر، والكائنات البرية الودودة، والصباح المشرق، والظهيرة الهادئة الداعية إلى الاسترخاء. كانت بالنسبة إليَّ هي فوسي، وبالنسبة إلى ساندي هي ليفرلو، ولكنهما، في الحقيقة، كانا في عالم ذي أبعاد مختلفة. أما بالنسبة إلى لومبارد، الرجل الذي اعتقدتُ ذات يوم أنه تحوَّل إلى شخص بليد من العامة، فكانت كشفًا جديدًا. فقد أعادت له شيئًا من شبابه وأحلام شبابه.

أتذكر أننا جلسنا معًا فوق أعلى نقطة من تل سنوفيل ننظر عبر القناة الخالية من السفن إلى جزيرة هالدر التي تلمع مثل جوهرة تحت أشعة الشمس. كانت السفينة تشالدار ومركب صيد الأسماك راسيتَين تحت قدمينا؛ وكانت طيور الكروان والقطقاط

تنوح بجوارنا؛ وكان البحر بمياهه البرَّاقة يحيط بنا من جميع الاتجاهات ما عدا جهة الشرق. كان المشهد من حولنا رقيقًا حالمًا كما لو كانت بلدًا في الأحلام.

قال لومبارد وهو يفرغ غليونه من التبغ: «سآتي إلى نورلاندز مرةً أخرى. كان لطفًا منك أن تسمح لي بالمشاركة في هذا الأمر يا هاناي، وأتمنى لو أني لم أسئ التصرف.»

قلت بود: «كنت أكثرنا التزامًا وثباتًا. فلم تجبن قَط حتى في أسوأ الظروف.»

فضحك.

وقال: «لطالما أردت أن أفعل. ولكني سعيد أني لم أصبح ليِّن العريكة. لم أعتقد قَط أني كذلك. ولكني سمحت لنفسي بأن تخلد للدعة والراحة. وهذا ما تعلمته من مغامرتنا هذه. أريد أن أعيش وسط هواء نقي ومساحات شاسعة، فأنا أعيش حاليًّا في عالم مزدحم ومكدَّس ... لذا سأعود إلى نورلاندز لكي أُحيي روحانيتي.»

أعتقد أني نظرت إليه بدهشة؛ لأنه ضحك مجددًا. وقال: «أنت تعلم جيدًا ما أعنيه. نورلاندز مكان روحاني لن تعثر عليه في أي خريطة. على كلِّ رجلٍ أن يكتشف جزيرة الخراف الخاصة به. لقد عثرت وكلانرويدن على جزيرتيكما، وسأعثر على جزيرتي.»

كانت ذكراي الأخيرة وجبتَين تناولناهما في ردهة المنزل الكبيرة. تناولنا الأولى في ليلة قدوم حملة صيد الحيتان، أو ربما في الساعات الأولى من صباح اليوم التالي. فكانت مركب الصيد الدنماركية قد وصلت، وتم القبض على الأشرار، وبينما كان هارالدسن يرقد في فراشه في الطابق العلوي، جمعنا النورديون الذين أنقذوا حياتنا، في الردهة؛ جماعة القوارب والجماعة التي وصلت إلينا برًّا — ومعهم ضباط المدمرة — وساندي ولومبارد وأنا، وكذلك أنَّا وبيتر جون. بدا أن الصغيرين قد استعادا حيويتهما بعد أن حصلا على قسط من النوم؛ فقد كانا مرهقين وناعسين قبل ذلك، واستيقظا قبل منتصف الليل مُفعَمين بالحيوية. كان الضباط الدنماركيون، الذين يعرفون نورلاندز وكذلك هارالدسن حق المعرفة، ودودين جدًّا. أما بالنسبة إلى النورديين، فكانت جزيرة الخراف مهد الأساطير، وكانت عائلة هارالدسن أبطال هذه الأساطير. كانوا في البداية خجولين ومترددين، فمن شِيَم النورديين العطاء بلا حدود والأخذ بخجل. ولكنهم كانوا يتضورون جوعًا، وأعدَّ آرن وليمةً دسمة، وفي غضون عشرين دقيقة شمَّروا عن سواعدهم وبدءوا الأكل وكانوا في غاية السعادة.

لن أنسى هذا المشهد ما حييت. أضاف آرن إلى الإضاءة الكهربائية كثيرًا من الشموع، وأصبح المنزل الهائل منيرًا بضوءٍ يضاهي ضوء الشمس. كانت السجاجيد الجدارية

والزخارف المحفورة ونماذج السفن الكثيرة وألواح السقف غير المألوفة ظاهرة بوضوح في هذا الضوء الباهر، بأدق تفاصيلها وأخف ألوانها. وتحت ألواح السقف هذه، جلست مجموعة من البشر أقل ما يُقال عنها إنها خرجت من إحدى قصص جريم الخيالية المصورة. كان كثير من سكان الجزر يرتدون قلنسواتهم، فلم يكونوا واثقين مما إذا كانت هذه الردهة الهائلة تُعد بيتًا أم لا. وفي صدر المائدة الطويلة المصنوعة من خشب السنديان، جلست أنًّا على مقعدٍ أشبه بمقدمة السفينة. لم أرَ في حياتي أحدًا مثلها. فقد استبدلت ملابسها الخشنة وارتدت ثوبًا من الحرير الأبيض، وجعلتها هالة الضوء التي جلست تحتها تبدو كأنها كائنٌ مصنوع من الذهب والعاج. كما أنها مَن افتتحت المأدبة. وكانت هي من اقترحت الأنخاب، وكانت هي من شكرت مُنقذينا بكلمات منغَّمة باللغة النوردية. كانت تجسيدًا لأميرات القصص الخيالية، ملكة متوَّجة على الشمال، وأضفت لمحةً من الرُّقي على هذا الحشد الهمجي. ولكنها كانت أميرةً مُتحجِّرة القلب؛ فقد أصرَّت على شرب نخب في صحة بيتر جون. لم أعلم ما قالته عنه، ولكنها جعلت النورديين يهبون من مقاعدهم ويحملونه — رغم اعتراض موراج الغاضب — على دزينةٍ من الأعناق. وطلبوا منه أن يُلقيَ عليهم خطابًا، فألقى عليهم جملتين فحسب. «جزيل الشكر لكم؛ أنًّا، أيتها الشقية، سأرد لكِ الصاع صاعَين.»

كانت الوليمة الثانية في اليوم التالي عندما استعدت السفينة تشالدار للإبحار برفقة المدمِّرة الدنماركية، واستعدَّ سكان الجزر للعودة إلى ديارهم. دعَونا طاقم السفينة تشالدار على العشاء، وضيَّفهم هارالدسن بنفسه. لم أحضر في حياتي مناسبةً أكثر روعة من تلك. قال ساندي إنه يجدر بنا أن نفعل ذلك لكي نُنهي العداوة معهم، ولكن الأمر كان صعبًا على المتآمرين السابقين. كان ألبينوس متجهِّم الوجه، وكان لا يزال يرتجف. وكان بارالتي أشبه بمفكر خائف يحاول استعادة رباطة جأشه، ولكنه كان لا يزال بعيدًا كل البعد عن استعادة ثقته بنفسه. كانت السيدة هي أكثرهم تماسكًا. فقد ارتدت ثوبًا رائعًا، وكانت من الذكاء بحيث لم تذكر أي ادعاءات كاذبة. كانوا قد ورَّطوا أنفسهم في مشكلة كبيرة، وتم إعفاؤهم الآن من المسئولية؛ ومن ثَم يشعرون بكثير من الامتنان. ولكنهم كانوا جميعهم ينظرون إلى ساندي في رهبة. استنبطت أنه عندما كان يؤدي دور مارتل، كان مسئولًا عن إرعابهم.

أعتقد أنني يمكنني أن أقول إننا تصرفنا جميعًا بشكل جيد. تحدَّث لومبارد عن عالم المال والأعمال مع بارالتي وتروث، وقال ساندي بعض الأمور المهذَّبة عن السياسة،

وطُرح كثير من المعلومات عن نورلاندز، وعرض هارالدسن بعضًا من ممتلكاته القيمة، وتعاملت الآنسة لادلو بلطف بالغ مع أنًّا. ويجدر بي القول إن آرن العجوز تفوَّق على نفسه؛ فقد كان الطعام رائعًا، وتناولنا أفضل ما في قبو هارالدسن من نبيذ. قدَّر تروث هذه اللفتة الأخيرة بشكل خاص، وسرعان ما أصبح يتصرف بحرية وكأنه وسط عائلته. وجدته رجلًا ودودًا جدًّا يمتلك أفكارًا منطقية عن جداول إسكس والمد والجزر فيها.

كما حاول أن يعتذر لنا قبل أن يغادر.

حيث قال: «أتمنى أن نتمكن جميعًا من النسيان والغفران يا سيد هارالدسن.»

طأطأ هارالدسن رأسه لينظر إليه بسبب هامته العالية.

وقال: «لا أتمنى شيئًا أكثر من ذلك. أعلم أنك تشعر بأن لك حقًّا عندي يا سيد تروث. دَيْن في عنق والدي لصالح والدك، أليس كذلك؟ حسنًا، أنا على استعداد لإصلاح الأمور. سيخبرك اللورد كلانرويدن بكيفية تحقيق ذلك.»

أخرج ساندي من جيبه شيئًا ملفوفًا في جلد الشمواه.

وقال: «هذا يعود إلى السيد هارالدسن الراحل. لقد حصلت عليه بطريقة غريبة كتبت عنها في الصحف. ولا أنوي تسليمه إلى المتحف البريطاني. وأقترح يا سيد تروث أن أعطيك إياه تعويضًا كاملًا عن أي مطالبات قد تعتقد أنك تملك الحق فيها في تركة السيد هارالدسن الراحل.»

أخرج ساندي من داخل الكيس لوح اليشم الذي عرضه علينا في فوسي.

أمسك تروث باللوح وقد ارتسمت على وجهه تعبيراتٌ مختلطة من المفاجأة والجشع ومسحة من الخجل. قلَّب ذلك العمل الفني الجميل بين يديه، وتظاهَر بقراءة الكتابات، ثم نظر إلى ساندي مرتبكًا.

وسأله: «هل تعني ذلك حقًّا أيها اللورد كلانرويدن؟ هذا كرم بالغٌ منك. بالطبع سأتنازل عن أي مطالب؛ لقد تنازلت عنها بالفعل. هل تعني أن أتبع ما تخبرني به الكلمات المنقوشة على هذا اللوح؟»

«بالطبع.»

«وأن أحتفظ بما أعثر عليه لنفسي؟»

«بالطبع. احتفظ به لنفسك ولأيٍّ من أصدقائك ترى أنك ترغب في مشاركته معهم.»

حدَّق تروث في الكتابات.

«أحد الجانبين مكتوب باللاتينية. أما الجانب الآخر — الجانب المهم — أعتقد أنه يمكنني أن أستعين بمترجم لترجمته، أليس كذلك؟»

قال ساندي بجدية: «لقد تُرجم بالفعل. لقد اهتممت بالأمر.»

«وماذا وجدت؟» سُمعت في صوت تروث نبرة صياد الكنوز بكل وضوح.

«وجدنا قائمة تحتوي على الفضائل الاثني عشر وأسماء الله الحسنى التسعة والتسعين!»


هنداوي